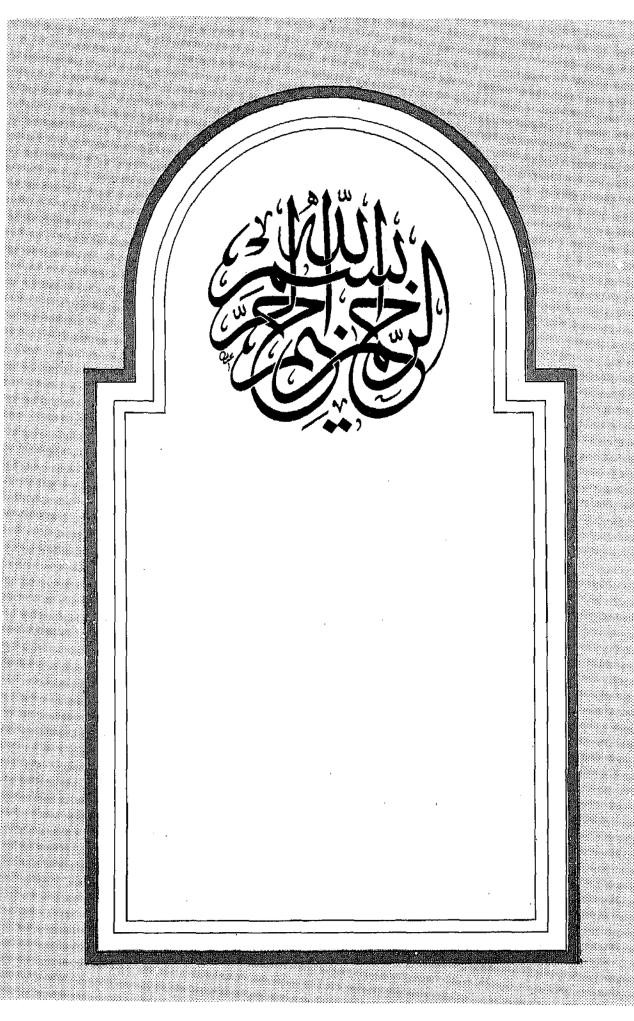
كتاب العربي

الطفل العربي والمستقبل !

د. زكريا إبراهيم
د. فاخر عاقل
د. عبدالقادر يوسف
د. غسان حتاحت
د. علي الحديدي
د. زكي الجابر
د. عماد زكي
د. محيي الدين توق
وآخرون



الكتاب الثالث والعشرون
١٥ ابريل ١٩٨٩


بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب العربي

مرآة العقل العربي



هذه السلسلة

- تصدر عن مجلة العربي مؤقتاً فصلياً.
- تقدم مجموعة من المقالات والموضوعات لكاتب واحد أو موضوعاً واحداً تتناوله عدة أقلام مما سبق نشره في مجلة العربي.

عنوان المجلة :

ص.ب : ٧٤٨ ـ الصفاة
الرمز البريدي 13008 - الكويت
تلفون : ٢٤٣٩٧٢٨ ـ ٢٤٦٨٢٤٢ ـ ٢٤٢٧١٤١
برقياً: "العربي" ـ الكويت ـ تلكس MITR.44041KT
تلفون فكسملي : ٢٤٢٤٣٧٥
المراسلات باسم رئيس التحرير

السعر :

الكويت ٣٠٠ فلس، العراق ٤٠٠ فلس، السعودية ٦ ريالات، الأردن ٣٥٠ فلساً، سوريا ١٥ ليرة، لبنان ٥٠ ليرة، مصر ٣٥ قرشاً، السودان ٣٠ قرشاً، المغرب ٦ دراهم، قطر ٧ ريالات، الامارات ٧ دراهم، سلطنة عُمان ٤٠٠ بيسة، اليمن الشمالي ٤ ريالات يمنية (ش)، اليمن الجنوبي ٣٥٠ فلساً يمنياً، ليبيا ٥٠٠ درهم، تونس ٥٠٠ مليم، الجزائر ٥ دنانير، البحرين ٤٠٠ فلس، بريطانيا جنيه استرليني ونصف، فرنسا ٢٥ فرنكاً، أوروبا جنيه استرليني ونصف، أمريكا ٣ دولارات أو جنيه استرليني ونصف.

الاشتراكات :

في الوطن العربي: ٢,٥٠٠ د. ك أو ٧ دولارات.

باقي دول العالم: ٣د. ك أو ٩ دولارات.

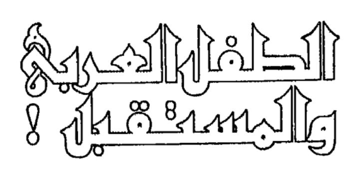
د. زكريا إبراهيم   د. فاخر عاقل

د. عبد القادر يوسف   د. غسان حتاحت

د. علي الحديدي   د. زكي الجابر

د. عماد زكي   د. محيي الدين توق

وآخرون



● كتاب العربي ●

● سلسلة فصلية تصدرها مجلة العربي ●

الكتاب الثالث والعشرون

١٥ أبريل ١٩٨٩

تقديم

الدكتور محمد الرميحي

الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون !

مازلت أذكر ، بعد سنوات طوال ، مقولة « الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون » ، ولم أكن قد قرأتها في كتاب لأحفظها ، ولكنها كانت أحد أسئلة أستاذ لنا في علم النفس ، مطلوب منا أن نعلق عليها كتابة ، لإظهار الترابط بين ما يفعله الآباء من خير أو شر ، يصل إلى الأبناء عن تبعات لم تكن لهم يد فيها .

ويتطور الأمر ، ونهتم ـ في الوطن العربي ـ بالطفل ، ونجعل له حقوقاً نعلنها كحقوق الإنسان الراشد ، ونفرد له عقداً كاملاً ودراسات كثيرة ، ونقدم له أيضاً الكثير على الصعيد المادي والمعنوي ، إلا أن الحقيقة مازالت تلاحقنا ، وتتمثل في أن معظم جهودنا حتى الآن في كثير من أقطارنا العربية والموجهة للطفل ،

مازالت عاجزة عن إحداث تغيرات جذرية ، تؤثر على الطفل ، وبالتالي تؤثر على حياة الأمة ، فمازالت الأشواط التي تنتظرنا كثيرة .

يقول لنا الخبراء في السكان : إن هناك حوالي تسعين مليون طفل عربي ، (والطفل هنا هو ما بين لحظة الميلاد والرابعة عشرة من العمر) ، وأن هؤلاء يمثلون ما يقارب ٤٥٪ من عدد سكان الوطن العربي . وتقول لنا الاحصائيات ـ أيضاً ـ : إن أطفالنا هؤلاء يشكلون أعلى نسبة من نسب الأطفال مقارنة بأي شعب آخر ، فالنسبة هنا ليست قليلة ، وكذلك العدد المطلق ليس قليلاً ، ومهما قدم لهذه الفئة الكبيرة من البشر في محيطنا ، فإنه سيظل قليلاً ، إذا لم يؤد ما يقدم من خدمات إلى تحويل هذا القطاع من تواجد بالعدد إلى تواجد مشارك في التنمية بالفعل .

هذا القطاع الكبير ليس متجانساً أيضاً ، فهناك أطفال في وطننا العربي حصلوا على الرعاية المادية كاملة ، بل ربما تزيد عن الحد المعقول ، وربما حُرموا من الرعاية المعنوية ، ولكن آخرين محرومون من هذه الرعاية المادية والمعنوية ، أو من كثير منها ، وبعضهم حُرموا أو يحرمون ، حتى من الحصول على الماء النظيف للشرب ، أو اللقمة التي بها يقتاتون .

ومعظم دراساتنا التي ننشرها تتحدث دائماً عما يجب عمله ، كما أن حديثها يأخذ الصورة الخطابية العالية النغمة ، عن غرس الموروثات والقيم ، وإنشاء مؤسسات الرعاية والتنمية المجتمعية ، مع تأكيد على أهمية الطفل في المجتمع وبناء شخصيته ، وتلك قضايا لا خلاف عليها ، والسؤال الملح هو : كيف يتم ذلك ؟

فإذا كانت الخدمات مطلوبة وضرورية ، فإنها لا تفي

بالحاجات الأساسية لقطاع الأطفال في بيئاتهم العربية المختلفة . هذا الغياب ناتج عن خطأ في فهمنا ، ويتمثل هذا الخطأ بأن ما هو ضروري ، وما هو كمالي للطفل ، لا يقرره الطفل ، ولا نبحث عنه نحن بدأب ، كي نصل إلى سد احتياجات الطفل الأساسية . إن الضروري والكمالي ، وحاجات الطفل الأساسية ، نقررها نحن في عالم الكبار ، بل ونجد كثيراً من الوثائق العربية التي تخلط بين حاجات الطفل وحاجات والديه ، كالقول مثلاً بأننا نحتاج إلى دور حضانة في هذا المكان أو ذاك . إن دور الحضانة هنا تلبي (حاجة) الأم العاملة مثلاً ، ولكنها لا تلبي بالضرورة حاجة الطفل ، فهناك إذن غياب لتصور ما يحتاجه الطفل حقيقة .

كما أن هناك خلطاً كبيراً ـ يصل إلى حدود الخطأ العلمي ـ في تحديد حاجة الطفل في بيئات مختلفة ، اقتصادياً واجتماعياً ، ونجد البعض يتحدث عن الطفل العربي ، وكأنه شيء واحد ، مدرجاً توكيد القيم والثقافة التي قد تكون متشابهة في إطار حاجات كل الأطفال ، دون النظر إلى اختلاف واقعهم الاقتصادي والاجتماعي والبيئة التي يعيشون فيها ويتشكلون .

وتجاوز بعضنا النقطة المطروحة بكاملها ، ليدخل في نقاش فلسفي حول أولوية العناية : هل هي للطفل أم للمجتمع الذي يعيش فيه أم لأسرته ؟ فانتشار الخرافة والجهل في مجتمع وأسر بعينها سيورثان لأطفالها ، وبالتالي فإن تثقيف الأسرة وتوعيتها وتخليصها من القيم السلبية قد يحمي الطفل فيها من الوقوع في مستقبل سلبي !! وهكذا نعود من جديد إلى حاجة الأسرة لا إلى حاجة الطفل . فمن أيهما نبدأ ؟

من خلال تجربتنا في مجلة « العربي » ، خاصة بعد إصدار مجلة « العربي الصغير » بشكلها الحالي منذ أربع سنوات ، أخذنا نستقبل آلاف الرسائل من الأطفال العرب ، من معظم الأقطار العربية ، ومن بيئات اقتصادية واجتماعية مختلفة ، ووجدنا بالخبرة أن حاجات الطفل العربي ليست واحدة ، بل ليست متماثلة ، بل إنها مختلفة شديدة الاختلاف في أولوياتها ، مع أن معرفتنا الواعية تفيد بأن هذه الرسائل تأتي من الأطفال الذين يقرءون أولاً ، وبالتالي يكتبون ، وكذلك لديهم وعي كافٍ لوضع تصوراتهم ورغباتهم على الورق ، فهناك قطاع آخر من زملائهم لم يتوافر لهم حتى الحد الأدنى من محو الأمية .

والقصد أن تلك الرسائل تحمل نبض قطاع لا بأس به من الأطفال العرب ، وتبدو أولوياتهم مختلفة عما يضعه (خبراء الأطفال) في بلادنا . وأنا أدعو الآخرين لمراجعة مثل هذه الرسائل ودراستها بأسلوب علمي ، حتى يتبين لنا حقيقة مشكلات أطفالنا .

وللتعميم دون التخصيص ، فإن هناك رسائل تأتينا تشكو مر الشكوى من معاملة الوالدين القاسية ، خاصة من قبل بعض الآباء وبعض الأمهات ، إلى درجة أننا نكاد نقول : (إننا مجتمع في معظمه قاسي القلب . .) .

وليس هناك قانون - حسب علمي - في وطننا العربي ، يمنع الكبار من معاقبة الصغار أو الإضرار بهم جسمانياً ، على الرغم مما نقوله عن حقوق الطفل . فمازال الأطفال - خاصة الابناء والبنات - يعدون في تقدير كثير منا ممتلكات شخصية للأب والأم ، وليسوا أشخاصاً يتألمون . وتجري هذه المعاملة القاسية خلف أبواب

موصدة ، وعندما يصل الأمر إلى المحاكم والصحافة فقط ينتبه بعضنا لهذه القضية ، ولكنها في الغالب ممارسة يومية لدى أسر كثيرة ، وقد يجيب كثيرون من الآباء : لقد ضُربنا ونحن صغار ، فلم يؤثر فينا ذلك عندما كبرنا ! والإجابة عندي عن كل ذلك في ما نشر من الدراسات العلمية ، ومعظمها نُشر خارج أقطارنا العربية مع الأسف ، لكنها مؤشر مهم يمكن الاسترشاد به . تقول هذه الدراسات : إن الآباء الذين ضُربوا وهم صغار ، ويدعون أن ذلك لم يضر بهم ، يكررون المعاملة نفسها مع أطفالهم .

ودراسات أليس ميلر التي نشرت مجموعة من الكتب في هذا الموضوع ـ منها على سبيل المثال الكتاب المشهور (مأساة أن تكون طفلاً) ـ قد تابعت بدراسة تفصيلية السلوك العدواني على مستوى الكبار ، وعلاقته بالإهانة والضرب عندما كانوا صغاراً ، ولعل دراستها المشهورة عن طفولة أدولف هتلر ، دكتاتور ألمانيا النازية ، وبعض رفاقه مثل رودلف هيس ، قد كشفت أنهم ضُربوا بقسوة عندما كانوا أطفالاً .

وتقول الدراسة : إن هذا النوع من التنشئة ، مسؤول إلى حد ما عن توليد « مجتمع العنف » . فإذا نظرنا إلى واقعنا العربي فإننا نجد أن هذا العنف يتكاثر بين ظهرانينا . فهناك في لبنان ، في السنوات الخمس عشرة الماضية ، قد تولد عنف شب عليه جيل كامل ، أما العنف الذي يواجهه أطفالنا في فلسطين الذين سميناهم (أطفال الحجارة) ، فهو مُشاهد ومسموع يومياً .

وفي مناطق أخرى من الوطن العربي يشب الأطفال تحت وطأة الحاجة التي قد تقودهم إلى العنف .

تلك هي بعض مشكلات التنشئة العربية التي لم نلتفت إليها حتى الآن ، وهي في مجموعها تشكـل إهانـة للطفل ، وتجبـره على الرضوخ بالقوة لطلبات الكبار ورغباتهم ، مما يعزز النتائج السلبية في حياته عندما يشب ويكبر .

وفي غياب الترفيه البريء ، في بعض بيئاتنا العـربية ، فـإن أطفالنا يتجهون إلى الترفيه الضار بكل أشكاله ، ولم يعد سراً أن هناك عدداً كبيراً من أبناء المدن العربية يدخنون السجائر على أقل تقدير ، وبعضهم تتفشى بينهم عادة شرب المحرمات ، بل وتعاطي أشكال من السموم المختلفة في صورة مخدرات .

بعض الرسائل تردنا من الآباء المحتارين في تربية أبنائهم ، فهم يحاولون جاهدين توفير كل سبل الراحة والاطمئنان لأطفالهم ، إلا أن بعضهم يضل الطريق ، وكثيراً ما يتردد على لسان الأب أو ولي الأمر : (أنه يريد أن يعطي ابنه فرصة في الحياة أفضل مما وجد هو نفسه فيها) ، ولكن هذا الإصرار يدفع الابن إلى سلوك طريق آخر ، يؤثر عليه فيه أبناء الجيران والأصدقاء في الحي أو المدرسة ، ويكاد الآباء يغفلون عن أن النجاح والسعادة وحب العمل ليست قضايا مادية كالتطعيم ضد الجدري أو الحصبة ، فنحن لا نستطيع أن نطعم أطفالنا ضد تعاطي السجـائر أو المخـدرات ، فتلك عملية طـويلة ومعقدة ، ودقيقة أيضاً ، تلعب القدوة والتعـاطف الأسري الـدور الأكبر فيها ، فربما كان التصرف الخاطىء من قبل الطفل أو الحدث رد فعل لسلوك الآباء والأمهات ، فتوقيع الضرر بالنفس للفت الانتباه ، طريقة اعترف بها علماء النفس منذ وقت طويل .

من جهة أخرى فإن الظروف الاقتصادية الصعبة تدفع بعض الاسر العربية الى تقليل عنايتها بالطفل وأحياناً إلى اهماله . ولعلنا قد قرأنا في بعض الصحف الصادرة في بعض أقطارنا العربية عن الإهمال الشديد للأطفال نتيجة الفقر والحاجة ، بل ونجد بعض الآباء والأمهات (يتخلون) عن أطفالهم طواعية . صحيح أن تلك الحوادث قليلة ، لكنها تثير الكثير من القضايا القابلة للنقاش .

وهناك موضوعات كثيرة ، تطبع وتذاع تحت عنوان « العناية بالطفل العربي » ، منها التعليم والتربية ، والتعليم غير الرسمي (الإعلام) ، وما نقدمه من خلال تلك البرامج المختلفة للطفل .

وعند النظر إلى حاجات الأطفال في قطاعات خاصة ، كقطاع المعاقين والمتخلفين ، أو قطاع النابهين المبرزين ، أو قطاع اليتامى أو فاقدي أحد الأبوين بالوفاة أو الطلاق ، تتعدد القضايا التي يجب أن تطرح

وحيث أن أطفال اليوم هم رجال الغد ، فإن ما نقدمه لهم الآن يحدد شكل سلوكهم في المستقبل ، ويحدد طبيعة المجتمع الذي سوف يعيشون فيه .

من كل ذلك ينبع اهتمامنا بأن نقدم لقرائنا هذا الكتاب الخاص بالطفل العربي ، وهو كالعادة ، مجموعة من المقالات، كتبها للعربي كوكبة من المهتمين بقضايا الطفل العربي ومراحل نموه ، وما يلاقيه من مشكلات .

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى أربعة فصول هي :

*** في السنوات الأولى :**

تضمن متابعة لحياة الأطفال في سنواتهم الأولى من حيث تكوينهم النفسي ، واحتياجاتهم ، وما يمكن أن يواجهوه من مشاكل وتعقيدات في هذه المرحلة التي تتكون فيها المفاهيم والصور والحروف في ذهن الطفل .

*** آباء وأبناء :**

وقد تضمن هذا الفصل عرضاً لحياة الأطفال وعلاقاتهم بوالديهم ، وما يمكن أن يكتسبوه منهم ، والتأثيرات التي يتركها الوالدان في الأطفال سلباً أو إيجاباً .

*** خبرات وتجارب :**

احتوى هذا الفصل على موضوعات تناولت بعض ما يصادفه الأطفال في حياتهم البيتية أو المدرسية ، وما يمكن أن يكتسبوه من خبرات وتجارب .

*** آداب وفنون في حياة الأطفال :**

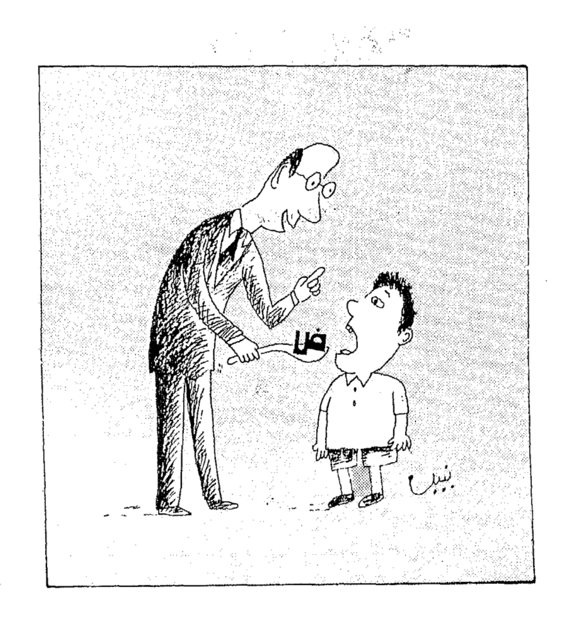
وقد احتوى هذا الفصل على موضوعات تتعلق ببعض النشاطات الفنية والأدبية التي تصادف الطفل في حياته ، والتي تؤثر على حصيلته من الوعي والإدراك .

نأمل أن تساهم موضوعات هذه الفصول في بث الوعي ، وتدارك بعض التصرفات الخاطئة ، لنصل إلى حياة أفضل .

محمد الرميحي

الفصل الأول

في السنوات الأولى


ض

لُغةُ أطفالِنَا .. هَلْ نعـرِفُ حُروفَهَا ؟

بقلم : الدكتور سامي عزيز

« يستخـدم أطفالنـا قبل النـطق لغة الاشـارة أداة للاتصـال والتعبير ، والمدهش أن هذه اللغة واحدة لكل الأطفال في المجتمعات المختلفة . وفي دراسة جديدة اكتشف العلماء أن توجهات أبنائنا ومشاعرهم وسماتهم النفسية تتضح من خلال هذه الاشارات التي يعبرون بها عن أنفسهم » .

يواجه العالم الفرنسي هبرت مونتاجنر المتخصص في دراسـة سلوكيات الحيوان حاليا تحديا جديدا ، فلقد طلبت منه جامعة « لسانكون » التي تقع على حدود سويسرا أمرا غير متوقع ، فعلماء الطب النفسي بالجامعة الذين أعجبوا بدراساته في سلوكيات الحيوان والحشرات طلبوا منه الانضمـام لهم لدراسـة سلوكيات الأطفال ، ولا بد من قبول التحدي .

تقول النتائج الأولية التي توصل إليها مونتاجنر بعد عمل شاق استمر عدة شهور ، وبعد أكثر من ٣٢٠ كيلو متراً من الأفلام التي سجلتها عدساته ، إن دراسة سلوكيات الأطفال علم جديد ، سيجد طريقه لجـامعات العـالم خلال السنوات القليلة القادمة .

العربي العدد ٣٥٣ ابريل ـ نيسـان ١٩٨٨ م

هل طفلك طفل اجتماعي ؟ وهل طفلك يصلح لأن يكون قائدا في المستقبل ؟

أسئلة كثيرة أجابت عنها دراسة مونتاجنر ، إلا أن كثيراً من علامات الاستفهام ما زالت محل بحث ودراسة .

لم يسبق لها مثيل :

يقول مونتاجنر معلقا على هذه الدراسة : « لقد استطعت من خلال خبرتي الطويلة في علم سلوكيات الحيوان أن أبدأ في تحليل لغة الأطفال غير المنظومة ودراستها ، فحتى بعد أن يعرفوا كيفية التحدث ببعض الكلمات المفهومة ، فإنهم يستمرون باستخدام هذه اللغة ـ أقصد لغة الاشارة والحركات ـ مما يؤكد على وظيفتها في الاتصال . ويستكمل حديثه قائلا : « بعد دراسة ١٥٠٠ طفل أعمارهم ما بين ستة أشهر وست سنوات يمكنني أن أقول إن تصرفات الأطفال وحركاتهم تنقسم إلى عدد من المجموعات » وسنرى معاً أهمية هذا التقسيم في فهم الخصائص التي ترمي إليها كل مجموعة .

حركات طفلك . . من أي نوع ؟

لقد أمكن تقسيم حركات الأطفال ـ بعد العديد من الدراسات التي قام بها مونتاجنر ـ إلى خمس مجموعات متميزة :

١ ـ حركات تنم عن الحب والحنان ، وتزيد العلاقة مع الأطفال الآخرين ، مثل إعطاء لعبته أو الحلوى التي يأكل منها لطفل آخر ، أو المسح باليد على وجهه ، أو الاكتفاء بالابتسام له ، أو التصفيق باليدين ، أو مد اليد إليه كأنه يشحذ منه ، أو مسك ذقنه بحنان .

٢ ـ حركات تظهر التهديد والوعيد ، مثل التكشير ، وإطباق الأسنان ،

وفتح الفم ، والإشارة بالسبابة الى الطفل الآخر ، أو الضغط على قبضة اليد ، أو رفع ذراع واحدة إلى أعلى ، أو مد الجذع للأمام .

٣ ـ حركات عدوانية ، مثل : القرص والضرب والعض وجذب الشعر والملابس وهز الطفل بعنف ، أو محاولة دفعه للأرض ، أو خطف لعبة الطفل الآخر الممسك بها .

٤ ـ حركات تنم عن الخوف ، مثل إخفاء الوجه بين الذراعين والنظر لأسفل ، أو الحركة للخلف ، أو الهروب بعيدا ، أو الصراخ .

٥ ـ حركات تنم عن الشعور بالوحدة ، مثل : مص أصابع اليد وجذب الطفل لأذنه ، أو مصه للعبته ، أو الوقوف بعيدا عن باقي الأطفال ، أو الجلوس بمفرده على الأرض ، أو النوم على الأرض في وضع يشبه وضع الجنين في بطن أمه ، أو البكاء منفردا .

لغة عالمية :

تشير ملاحظات « مونتاجنر » إلى أن بعض الأطفال يميلون إلى استخدام بعض الحركات التي تنتمي لمجموعة معينة من المجموعات التي تعرضنا لها بصورة أكثر من غيرهم . فالملاحظ أن هناك نسبة غير قليلة من الأطفال تستخدم الحركات التي تنم عن العنف بصورة أكثر في سن مبكرة ، قبل إتمامهم العام الثاني في حين أن هناك نسبة أخرى من الأطفال تميل معظم حركاتهم إلى الود والحب والصفاء ، ولا يعرفون شيئا عن العنف أو الوعيد والتهديد . إلا أن هذه التصرفات جميعها غير متعمدة ، أو غير مقصودة ، وهي غالبا ما تتزايد مع نمو الأطفال ، وانتقالهم إلى مراحل العمر المختلفة ، لتصبح طريقتهم الثابتة في تصرفاتهم مع الآخرين .

يؤكد « مونتاجنر » أن حركات الأطفال الذين كانوا مجال دراسته في فرنسا وسويسرا وبعض مناطق أفريقيا تكاد تطابق حركات الأطفال الذين سبقت

دراستهم في الولايات المتحدة الأمريكية وانجلترا . لقد اشترك العديد من العلماء في هذا المجال ، أمثال بلورتن جون ، وماك جرو ، وديفيد لويس ، وغيرهم ، وجميعهم يؤكدون تطابق هذه اللغة غير المنطوقة على الرغم من اختلاف العوامل البيئية والجغرافية والاجتماعية .

للحب لغة خاصة :

هل يردد طفلك لغة الحب ؟

يقول « مونتاجنر » : إن الطفل قبل دخوله المدرسة يعرف هذه اللغة ، وبعض الأطفال يظهرونها بصورة واضحة في تصرفاتهم مع الأطفال المحيطين بهم ، فالطفل عندما يميل برأسه على كتفه مبتسما أو يلوح بيده في ود وعطف ناحية الطفل الآخر الذي يقابله لأول مرة غالبا ما تبدأ علامات الحب والتآلف بين هذين الطفلين في ثوان معدودة في ٨٠٪ من الحالات، وفي بعض الأحيان قد يذوبان حبا ويبدأ كل منهما في تبادل الهدايا مع الآخر ، وقد تندهش حقاً حينما ترى طفلك يقدم عن طيب خاطر أعز لعبة لا يطيق أن يلمسها أحد غيره إلى صاحبه الجديد مبتسما راضيا ، كأنه يريد أن يقول له : انظر كم أنا أحبك .

للحب قوة لا شك في ذلك حتى بين أطفالنا .

وهذه القوة تأتي من حركات متتابعة متسلسلة من الطرفين ، وحتى تتضح الأمور قام « مونتاجنر » بتصوير العديد من هذه اللقاءات ، حتى يمكن دراستها والتعليق عليها .

في أحد هذه الأفلام طفلة صغيرة ، لم تتجاوز عامها الثاني ، تتقدم بين طفلين ، وأثناء تقدمها تميل برأسها قليلا نحو كتفها الأيسر ، وينم وجهها عن ابتسامة وفرح ، وفي نفس الوقت نجد الطفل يبتسم لها ، بينما يندفع الطفل الآخر فيمسك بلعبته الوحيدة كما يقول مونتاجنر ويقدمها لها .

لكن هل يستخدم الطفل هذه اللغة مع أمه ؟

الواقع أن الأطفال غالبا ما يلجأون إلى هذه الحركات عندما يودون شيئا معينا ، فهم يريدونه بالود والحب ، لا بالعنف ، لكن إن فشل الحب فالعنف قد يصلح .

ويقول مونتاجنر : أنت أيضا تعرفين هذه اللغة !! فقد استخدمتيها وأنت صغيرة ، لكنك ما زلت تستخدمينها دون أن تدري . هل حاولت مرة أن تسكتي طفلك عندما يبكي لأي سبب من الأسباب بالابتسام له ومد اليد إليه بلطف وحنان أو ضمه إلى صدرك ؟

بعض الأمهات في الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا يستخدمن هذه الطريقة ، وهي طريقة ناجحة لإسكات ثورة الطفل دون شك .

لكننا قد نلجأ إلى استخدام هذه اللغة مع زملائنا ، فإنها المفتاح لقلوبهم ، لجذبهم ونيل عطفهم وتأييدهم .

هل تمعن النظر في إعلانات التلفاز ؟ لقد تم إخراج هذه الإعلانات على هذا الاساس ، لغة منطوقة ولغة أخرى غير منطوقة ، ولكل لغة هدف ، والإعلان الجيد المؤثر يحتاج إلى اللغتين معا ، لا إلى اللغة المنطوقة وحدها . لكن على الرغم من قوة هذه اللغة لا يعرفها بعض الأطفال إطلاقاً ، أقصد لغة الحب . وما داموا لا يقدمون الحب ، فلا يمكن أن ينالوا عطف الآخرين ، وهكذا يصبحون دون أصدقاء أو أحباب .

هل يصلح طفلك لأن يكون قائداً ؟

يقول مونتاجنر قائلا : « يمكن التنبو بتصرفات أطفالنا في المستقبل ، إذ أن ما يقومون به من حركات في الثلاث سنوات الأولى يكشف العديد من خفايا المستقبل .

هل يستخدم طفلك لغة الحب مع الآخرين ؟

هل يؤثر طفلك في الأطفال المحيطين به ؟

هل يلعب معهم في ود وحب وهم يحبونه أيضا ؟
هل طفلك لا يميل إلى العنف مع الآخرين ؟
هل يقدم لعبته للأطفال الآخرين عن طيب خاطر ؟

الاجابة بنعم عن هذه الأسئلة تعني أشياء مهمة ، تعني أولا أن طفلك طفل سويّ ، وأنه طفل محبوب ، وأنه طفل ناجح اجتماعيا ، وأنه يصلح لأن يكون قائدا في المستقبل .

أما الطفل العدواني ، والغضوب ، الدائم الشجار مع الآخرين الذي لا يعرف الود أو العطف فلن يحبه أحد من الأطفال ، ولن يؤثر في المحيطين فيه ، وبالتالي فهو لا يصلح لقيادة أحد :

والأطفال الذين يصلحون للقيادة غالبا ما يرددون لغة واحدة ، فهم لا يخلطون بين حركات الحب والعنف كما يظهر من بعض الأطفال في تصرفاتهم ، فالطفل الذي يمسك بيده إحدى لعبه ، ويقدمها لزميله ، بينما يجذب شعره باليد الأخرى بعد ثوان ـ أي أنه يجمع بين حركات مجموعتين مختلفتين ـ هو طفل عدواني أيضا ، لا يعرف لغة الحب ، وهذا المزج بين الحركات لن يجعله مقبولا من الأطفال الآخرين . وعندما تابع « مونتاجنر » هذه المجموعة من الأطفال التي تخلط وتمزج بين حركات أكثر من مجموعة وجدها أنها تفتقد مع الوقت حب الطفل الآخر ووده ، بل في بعض الأحيان وجد « مونتاجنر » أن الطفل الآخر قد صرخ وجرى باكيا بعيدا عن هذا الطفل على الرغم من أن البداية كانت غير ذلك .

للآباء والأمهات دور !

ما هو السبب في تباين هذه التصرفات بين أطفالنا ؟
هل هي العوامل الوراثية ؟
هل هي البيئة ؟ هل للمحيطين بهم دور ؟

ما أثر العلاقة بين الأم وطفلها في نشأة هذه التصرفات وتغيرها ؟

يعتقد « مونتاجنر » أن العوامل الوراثية ليست ذات أهمية في تشكيل تصرفات أطفالنا ، لكن هذه التصرفات ترجع بنسبة قد تصل إلى ٨٥٪ إلى تصرفاتنا نحن الآباء والأمهات مع أطفالنا ، وبخاصة علاقة الأم بطفلها ، فإنها وحدها العامل المؤثر ذو القيمة الملحوظة في نشأة تصرفات معينة دون غيرها . ويقول مونتاجنر مؤكدا على ذلك : « لقد لاحظت أن الأطفال الذين يتمتعون بروح قيادية هم في معظم الحلات أطفال من أسرة متفاهمة ، تسودها روح الحب ، تقوم الأم دائما بمخاطبة طفلها والتحدث معه بلطف وحنان ، وهي فى ذلك لا يهمها إن كان طفلها يفهم كلماتها أم لا ، فهي تستخدم كتفيها ووجهها وابتسامتها وصدرها وكل جسمها لتؤكد له شيئا واحداً ، وهو أنها تحبه ، أنها قريبة منه ، وأنها تفهمه ، وأنها تلبي طلباته . وهذه المشاعر المتبادلة المتصلة تؤثر في أطفالنا كثيرا ، حتى إن كانوا دون السنة الأولى من عمرهم » . ومن أحسن الأمثلة التي يسوقها لنا « مونتاجنر » تلك الأم التي تأخذ طفلها الذي بلغ من العمر سنة واحدة فتسأله بحب وعطف ماذا يريد أن يلعب ؟ هل يرغب في تسلق ظهرها ؟ هل تحكي له حكاية مثلما فعلت بالأمس ؟ إن هذه الأم التي لا تمل من محادثة طفلها على الرغم من صغر سنه ـ حسبما يعتقد بعضنا ـ تخلق بذلك جواً من التفاهم والود والثقة بينها وبين طفلها ، والأهم من ذلك أنها لا تقوم بأي عمل عدواني نحوه إن أخطأ ، بل تعرف كيف توجهه بحزم ، ولا تدلله إلى حد التسيب ، أي أن أهم عامل في هذه العلاقة أن تكون تصرفاتنا مع أطفالنا تسير في خط ثابت ، دون تناقض بين التدليل أحيانا والعنف أحيانا أخرى ، فهذه الوتيرة الثابتة هي أهم عامل يؤثر في تصرفات أطفالنا مع الآخرين .

ما سبب التصرفات العدوانية التي يقوم بها أطفالنا ؟

يقول مونتاجنر : « . . . الطفل العدواني : كيف تتعامل أمه معه ؟ هذا الطفل غالبا ما تكون أمه إما شديدة الغضب ، تعامله بشدة وقسوة ، أو أنها لينة لا تعيره أي اهتمام ، ولا تريد أن تدخل نفسها إلى عالمه الصغير » . وحتى

تتضح الأمور لنا يعرض علينا مونتاجنر المثال التالي كدليل لكلامه :

« . . في نهاية اليوم تأتي أم « نيكول » متعبة من العمل ، فتفتح باب حجرته ، وتنادي عليه ، وعندما يراها الطفل يجري نحوها فرحا ويداه ممتدتان نحوها ، لكنها لا تعيره القدر الكافي من الاهتمام والرعاية والحنان ، فتلتفت إلى الخادمة لتسألها : هل ما زال « نيكول » لا يسمع كلامها ؟ وهل ظهرت منه أي سلوكيات غير حميدة ؟ وهل ما زال يضرب أخته الصغيرة ؟ وهل شرب الحليب اليوم ؟ وهكذا ، من هنا نلاحظ أن الطفل يتقدم بحب وثقة نحو أمه ، لكنه لا يجد منها أي تفاعل ، فماذا يفعل ؟ سنجده يقف بمفرده منطوياً في أحد جوانب الحجرة . والأم لا يهمها ذلك . تصرخ فيه لكي يأتي لينام لأن الوقت متأخر ، لكنه لا يبالي بذلك ولا بصراخها ، فتنفعل الأم وتتقدم اليه بوجه غاضب يابس ، وتمسكه بعنف ، بل قد تضربه لأنه لا يسمع كلامها . وقد تحكي عن تمرده لصديقاتها ووالده ، وتظهر تخوفها من تمرده الذي لا تعرف له سبباً » .

هل يغير طفلي من تصرفاته ؟

ترتبط تصرفات أطفالنا بحالة بيوتنا ، لذلك من الممكن أن تتغير تصرفات أطفالنا في العامين الأولين إذا ما تغيرت الأحوال المحيطة بهم . وخير مثال يورده « مونتاجنر » للتدليل على ذلك الطفل الصغير الذي لا يعرف العدوانية ، ويتمتع بسلوك ينم عن روح القيادة والحب لمن حوله من أطفال،وفجأة تتغير به الحال ويصبح عدواني السلوك وقد ارتبط هذا التغير المفاجيء بولادة أخيه الصغير ، والأم أصبحت عصبية متوترة ليس لها صبر ولااحتمال بالمقارنة إلى معاملتها السابقة معه ، لكن عندما تتحسن أحوال الأم ، وتعود لطبيعتها الأولى مع طفلها يمكن لعدوانية هذا الطفل أن تتوقف ، ويعود مرة أخرى الى سلوكياته الأولى .

لكن يجب أن نذكر هنا أن الذين يبلغون من العمر خمس سنوات أو أكثر لا

يمكن أن تتغير سلوكياتهم ، فالتغيرات التي تحدث مبكراً في حياة أطفالنا هي وحدها التي تؤثر في سلوكياتهم ، أما أي تغير فيما بعد فلن يغير شيئاً .

ويضيف « مونتاجنر » إلى ذلك : « الطفل الذي عرف بسلوكه العدواني في سن سنتين وثلاث سنوات يستمر كذلك حتى سن العاشرة والحادية عشرة ، كذلك الطفل ذو السلوك الجذاب القيادي فإنه يزيد حب الجميع له . أما الطفل الانطوائي الجبان فربما تتغير أموره ويصبح طبيعياً من هذه الجهة . . ربما لأن أمه تغيرت هي أيضاً ولم تعد تقلق عليه بهذه الصورة الجنونية .

طفلك ولغة الكيمياء :

لما كان « مونتاجنر » عالماً من علماء سلوكيات الحيوان والحشرات كما سبق أن ذكرنا ، وهذه الحيوانات يتعامل بعضها ببعض بلغة كيميائية خاصة فقد بدأ أبحاثه من هذه النقطة . فهل توصل الى شيء يستحق القيمة ؟

إحدى التجارب الرائدة التي قام بها منذ سنوات قليلة في هذا المجال كان من شأنها أن تغير كثيراً من مفاهيمنا القديمة في علم (البيولوجيا) ، وتوصلنا الى معرفة قدرة الطفل الذي لم يبلغ عمره سنتين في تمييز ملابس أمه من رائحتها . فبعد عرض مجموعة متشابهة من الملابس على مجموعة من الأطفال استطاع ٩٥٪ منهم تمييز ملابس أمهاتهم من رائحتها ، وأخذوا يضعونها على وجوههم ، وبعضهم حاول ضمها الى صدره أو تغطية جسمه بها أو وضع طرفها في فمه ، وقد شغلوا تماماً بهذه الملابس ، بل إن تصرفاتهم تغيرت عدة ساعات بعد هذه التجربة .

والواقع أن هذه التجربة فتحت المجال للعديد من التجارب التي تبحث في نفس المجال ، وقد تبين فيما بعد أن الأمهات أيضاً لديهن القدرة على تمييز ملابس أطفالهن عن طريق الرائحة . ويرى مونتاجنر أن لغة الكيمياء هي أول اللغات التي تتبادلها الأم وطفلها في الشهور الأولى بعد الولادة .

لكن ما هو الهدف من وراء هذه الأبحاث ؟ وكيف نستفيد من هذه النتائج في رعاية أطفالنا وتربيتهم ؟

يقول مونتاجنر : إننا في طريقنا الآن الى إعداد قائمة طويلة بالتغيرات التي قد تظهر على أطفالنا في مراحل نموهم المختلفة ، وهذه التغيرات لها دلالات مهمة ، وهي دون شك ستسمح لنا أن نفهم أطفالنا أكثر وأكثر ، وأن نقترب منهم ، ونزيل أي حاجز قد ينشأ بيننا وبينهم . عزيزتي الأم ، طفلك يردد اللغة التي تعلمها منك . فأي لغة تلقنينه ؟



حِدَّةُ الطَّبْعِ وَعُنْفُ المِزاجِ عِنْدَ الطِّفْلِ

بقلم : الدكتور محمد صادق زلزلة

« قد لا يربط كثيرون بين طرق معاملة الطفل وتربيته وبين سلوكه ، وبدون أن ندري قد نساهم بذلك في إكساب الطفل عادات وسلوكيات يصعب التخلص منها مع الزمن » .

تظهر عند بعض الأطفال ـ فيما بين الشهر الخامس عشر والسّنة الثالثة من العمر ـ بعض التصرفات العنيفة والشرسة ، حيث يقوم ببعض الأعمال العنيفة المخربة ، كرمي الصحون على الأرض وكسرها ، وإتلاف بعض ما يقع في يده من أشياء صغيرة كاللعب ، والكتب ، وما أشبه ، أو أن يضرب الباب بيده ، أو يرفس الأثاث برجله ، وما إلى ذلك من أعمال تتصف بالعنف والشدة والشراسة ، وقد تقوم الأم بمعاقبة طفلها على حدة طبعه وشراسته ، لتمنعه من التمادي فيها ، أو تكرارها في المستقبل ، لكنه لا يلبث أن يعود اليها مرة أخرى ، غير خائف ولا وجل !

العربي العدد ٣٤٦ سبتمبر أيلول ١٩٨٧ م



أسباب حدة الطبع عند الطفل

في بعض أدوار الطفولة ـ وهو الدور الذي يمر به الطفل من مرحلة الطفولة الهادئة الناعمة ، الى مرحلة الوعي ، والاستقلال ، والتحدي ـ يبدأ تبلور شخصية الطفل ، وظهور ما يسمى « الأنا » عنده ، و « الأنا » هي الشعور الواعي للنفس ، حيث ينظر إلى نفسه وكأن له شخصية متكاملة ، لها رغباتها ، ومتطلباتها ، وتكون حدة الطبع في هذا الدور أمراً سويا ، يظهر ـ غالبا ـ عند الأطفال جميعا بدرجات متفاوتة ، يعبر بها الطفل عن شخصيته ، ويعلن بها عن وجودها ، ويفرضها على المحيطين به كالوالدين والأهل جميعا . ويكون لشخصية الطفل الموروثة دور كبير في ظهورها وتبلورها ، فهي تظهر غالباً عند الطفل القوي الذي يتمتع بقدر كبير من النشاط يميزه عن غيره من الأطفال ، ولا تظهر عند الطفل الهادىء ، اللين العريكة ، الرضي السلوك الذي يطيع أوامر أمه ، ويتقبل إرشاداتها ، وتعليماتها .

وتزول هذه الحالة عادة في الأحوال السوية دون أن تترك في نفس الطفل شيئا من الآثار والترسبات ، وذلك بعد معرفة الأم بطريقة معالجتها ، وحسن تصرفها مع الطفل في هذه الحالة ، وتجنب ما يسبب تمكنها من شخصية الطفل ، واستقرارها في أعماق نفسه ، أما إذا أساءت الأم التصرف ، وحدث التصادم بين شخصية الطفل المتنامية وما تحمل من روح التمرد وحب الاستقلال ، وبين شخصية أمه وإرادتها ، وذلك بفرض سلطانها عليه ، وإخضاعه لارادتها ، وتعسفها ، فان الطفل يبدأ بالصمود أمام إرادة أمه هذه ، فيتحدى أوامرها ، ويرفض سلطانها وتعسفها ، فتتلبسه حالة من العنف وحدة الطبع .

وتزداد تلك الحالة سوءاً إذا ما أساءت الأم التصرف أكثر من ذلك ، كأن تزجر طفلها على حدة طبعه ، وسوء تصرفه ، أو تعاقبه أو تضربه ، أو تشكوه إلى أبيه ، أو تشكو إلى بعض جاراتها وذويها ـ أثناء وجوده ـ ما تعانيه من جراء

عنف صغيرها ، وتعنته ، وشراسته ، وتبدي قلقها وخوفها عليه ، فيتمادى الطفل بتلك الحالة ، ويكررها ، ليشد إليه الانتباه ، ويركز نحوه الأنظار ، ويستمر في تماديه حتى تصبح حدة الطبع عادة متأصلة فيه ، يلجأ إليها كلما أراد فرض إرادته ، أو إظهار احتجاجه على بعض مالا يرضاه من تصرفات أمه معه ، ومعاملتها له ، أو عند عجزه عن الحصول على شيء يتمناه أو يرغب في اقتنائه .

لا للشدة أو الإفراط في التدليل

ومما يسبب قيام حالة العنف وحدة الطبع عند الطفل : المحيط المتزمت ، والأنظمة الصارمة التي تفرض على الطفل ، والحساب العسير الذي يحاسب به على كل عمل يعمله أو نشاط يقوم به ، بدل محاولة تفهم مشاكله ، والبحث عما يثيره أو يريحه ، وتحقيق المعقول من طلباته ، مما يثير عنده مشاكل نفسية كثيرة ، ومن جملتها حالة العنف وحدة الطبع ، وعلى الأم أن تتذكر دائما أن الطفل يجب أن يعامل حسبما تقتضيه حالته وسلوكه ، وألا تتجاهل التباين بين شخصية طفل وآخر ، ذلك أن معاملة طفل كما يعامل غيره ممن يختلف عنه في الشخصية ، والسلوك ، والتصرف ، قد يثير المتاعب والمشاكل له ولأمه على السواء .

كذلك فإن معاملة الوالدين للطفل معاملة شديدة ، صارمة ، متعسفة ، لا تتناسب مع سنه ، ولا تتوافق مع مستوى فهمه وإدراكه تسبب للطفل الارتباك ، وتثير فيه الحيرة ، مما يدفعه إلى التحدي والتمرد ، ثم إلى العنف وحدة الطبع ، ومن الخطأ أن تعترض الأم على كل عمل يقوم به الطفل ، حتى وإن كان لا يستدعي الاعتراض أو الزجر ، لأنها بذلك تولد فيه روح الاستياء ، والتذمر ، والتمرد ، خاصة في العمر الذي تظهر فيه روح الاستقلال ، والشعور بالكيان المستقل الذي يولده فيه ظهور « الأنا » ، وكذلك فان زجر الأم لطفلها بشدة وقسوة ، أو بعقاب وضرب أثناء لعبه ولهوه خشية إزعاج الجيران ،

أو مراعاة لوجودضيوف في البيت فانها تكبت في طفلها حب اللعب ، والرغبة في المرح والتسلية ، إذ أن لعب الطفل ، وصياحه ، أثناء ذلك أمر طبيعي ، لا يستدعي الزجر ، والتأنيب ، والعقاب ، الذي يولد في الطفل روح النقمة والغضب ، ثم التمرد ، والعصيان ، ثم حدة الطبع والعنف ، وإنما ينبغي على الأم أن تهيء لولدها جوا يلعب فيه ويمرح حسب ما يشاء ، وأن تفهمه ـ بمودة وعطف وتفاهم ـ أن إزعاج الجيران أمر غير مقبول وأنه لا يليق بشخص مؤدب لطيف مثله .

إن مسامحة الطفل في كثير مما يأتي به من أخطاء ، والتساهل معه في بعض الأمور التي لا ينبغي التسامح بها ، وتلبية جميع رغباته مهما كانت متزمتة ومتعبة ، والخوف عليه من كل أمر مهما كان صغيرا وتافها ، لمن الأسباب المهمة التي تنمي في الطفل روح العنف ، وحدة الطبع ، وذلك أن مثل هذا الطفل لا يعرف ـ عادة ـ الحدود التي ينبغي أن يقف عندها في طلباته وتصرفاته ، لالتباس الأمر عليه ، ولعدم إدراكه ما هو معقول منها ، وما هو غير معقول ، بسبب تلبية أمه لجميع رغباته وطلباته دون استثناء ، فإذا ما أسرف الطفل يوما وتجاوز تلك



الحدود تجاوزا مزعجا فإن أمه ستقوم إما بزجره وإيقافه عند حده ، أو ـ على الأقل ـ بعدم الاستجابة إلى تنفيذ تلك الرغبة وذلك المطلب ، وعند ذاك يثور الطفل ، ويلجأ إلى العنف وحدة الطبع ، معبراً عن رغبته في تنفيذ رغباته وطلباته كلها ، كما كان عليه الحال آنفا .

وقد تضطر الأم في بعض الأحيان أن تعد طفلها ببعض الوعود ، ثم لا تفي بها،أو تقول له قولا ثم تفعل فعلاً مغاير له،كأن تهدد طفلها بأنها سوف تعاقبه إذا فعل أمرا معينا ، أو إن امتنع عن تلبية بعض إرشاداتها أو عصى بعض أوامرها ، ثم تنسى أو تتناسى وعيدها وتهديداتها ، فيتعجب الطفل من تلك الأمور ، ويفقد ثقته بأمه ، ثم يظهر احتجاجه على ذلك بإبداء حدة الطبع والعنف والمشاكسة ، وعلى الأم أيضا ألا تعارض الأمور التي يوافق عليها الأب بطلب أو التماس من الطفل ، فتحرم الطفل من التمتع بموافقة أبيه على طلبه ، لأن ذلك يثير في الطفل روح المشاكسة ، والعنف ، وحدة الطبع .

أسباب مرضية لها علاج

وهناك أسباب عضوية لحدة الطبع ، منها : بعض الأمراض التي تصيب الطفل ، فتجعله يشعر بالضيق والانزعاج ، كالحمى ، وفقر الدم ، وأورام الدماغ في أدوارها الأولى ، ونقص السكر في الدم ، وتناول بعض الأدوية ، وبعض الأمراض المزمنه كالصمم والتدرن . والسؤال الآن كيف يعالج الطفل المصاب بحدة الطبع ؟ .

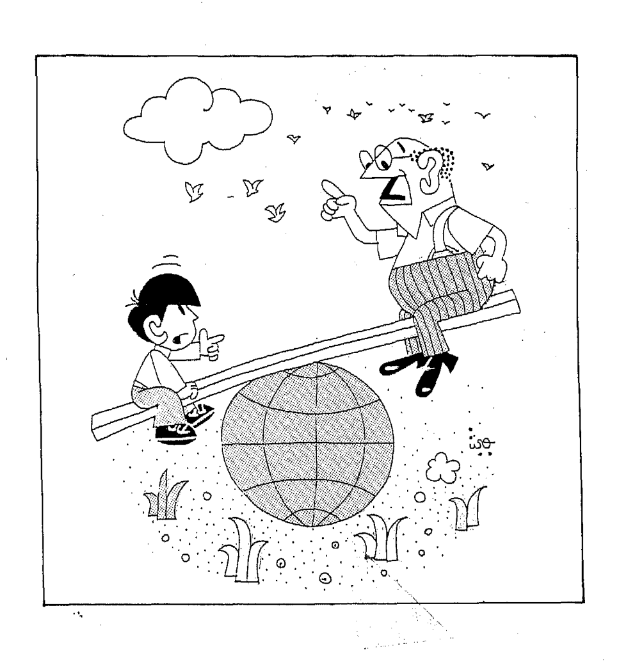
قبل كل شيء يجب التحري عن وجود الأمراض العضوية التي تسبب حدة الطبع للطفل ، فإن وجد بعض تلك الأمراض وجب علاجها والقضاء عليها .

أما في حالة الطفل السوي فإن على الأم أن تتفهم سبب حدة الطبع عنده ، وأن تعمل على علاجها وإزالتها .

إن الطفل يبغي من وراء سلوكه المتمرد أن يشد الانتباه إليه ، ويجذب الأنظار نحوه ، ويسبب الأذى والمضايقة لأبويه ، ويبذر فيهما بذور القلق ، كي يهتما بأمره وينتبها لرغباته ، فيفرض إرادته عليهما ، وينال منهما ما يرغب ويريد ، ولذلك فإن أول ما ينبغي على الأم أن تفعله هو أن تتجاهل حدة طبعه ، وتغض النظر عن شراسته وعنفه ، وتقابل ثورته بصبر وهدوء ، فلا تزجره أو تعاقبه ، ولا تلقي لتصرفاته العنيفة بالا ، ولا تظهر على وجهها علامات الغضب أو الأسف ، أو الاشمئزاز أو النفور ، وأفضل ما تفعله هو أن تخرج من الغرفة ، وتغلق الباب خلفها بهدوء وسكينة ، وتترك الطفل في ثورته يبكي ويضرب بيديه ، ويرفس برجليه ، ويأتي بما يشاء من حركات العنف والشدة ، ذلك أن أشد ما يكون على الطفل أن تتجاهل أمه عنفه وشراسته ، ولا شيء يؤلمه قدر ما يؤلمه عدم اهتمام أمه به وهو يبكي ويصرخ بعنف وشدة .

ثم إن على الأم أن تدرس حالتها وحالة الأب ، وهل في تصرفاتهما أو سلوكهما مع طفلهما ما يؤثر على نفسية الطفل وسلوكه ، كالتدليل الكثير والتسامح المتمادي ، وتلبية رغبات الطفل جزافا وإسرافا ، أو كالصرامة والشدة ، وما تسببه هذه الحالة وتلك من توتر نفسي ، وقلق ، وحرمان عاطفي ، للطفل .

ومن ناحية أخرى ينبغي أن تراعي الأم حالة التغذية عند الطفل ، وتلاحظ أوقات تناول الطعام التي لا ينبغي أن تكون متباعدة عن بعضها إلى حد شعور الطفل بالجوع بعض الوقت ، ذلك أن نقص السكر في الدم الناتج عن سوء التغذية أو قلتها قد يكون سببا من أسباب حدة الطبع ، ولا سيما إذا كانت أوقات تناول الطعام متباعدة عن بعضها بصورة غير معقولة ، ويجب أن تراعي الأم ذلك عند عودة طفلها من المدرسة جائعا ، فقد يكون حاد الطبع متبرما بسبب الجوع ونقص السكر في الدم ، إذ يجب عليها أن تسرع بتقديم وجبة الغذاء لطفلها ، حيث يصبح بعد تناول غذائه هادئا في تصرفاته ، قرير العين ، سويا في سلوكه .



زَرَاعَةُ العُقَدِ النّفسِيّة في الأطفالِ

بقلم : الدكتور زكريا ابراهيم

حينما يتحدث علماء النفس عن « العقد » ، فانهم يعنون بها تلك « الأنماط المنظمة (بكسر الظاء) للسلوك ، في رحلة الحياة ، مما تم تكوينه في العادة على نحو لا شعوري ، في مرحلة مبكرة من مراحل الطفولة . نتيجة لخبرات معينة كانت سببا في اصابة الشخصية بضرب من الاضطراب او الاختلال ». ولو شئنا ان نبسط هذا التعريف ، لكان في وسعنا أن نقول : إن « العقد » هي بمثابة « اصابات نفسية تطرأ على البناء العام للشخصية ، نتيجة لظروف خاصة اقترنت بها المرحلة الاولى من مراحل الطفولة ». ولكن على حين ان فرويد كان يعد « عقدة اوديب » هي العقدة الوحيدة الأصيلة في حياة الطفل نجد ان الباحثين قد اصبحوا يتحدثون عن العديد من « العقد النفسية »، ، وعلى رأسها « عقدة الذنب » (او الاثم) ، و « عقدة القلق » (او عدم الطمأنينة) ، و « عقدة البتر » (او الإخصاء) ، و « عقدة الهجر » (او الإقصاء) و « عقدة النقص » (او القصور). و « عقدة التفوق » (او الاستعلاء) . . . الخ .

العربي العدد ١٨٨ يوليو - تموز ١٩٧٤ م

حين يكون « الأبناء » ضحايا لآبائهم !

وعلى الرغم من أن « العقد النفسية » ـ كما لاحظ يونج ـ هي في العادة وليدة بعض الصدمات او الأزمات ، او الأحداث الدرامية ، او غير ذلك من مصاعب الحياة ، فان التجارب نفسها قد اظهرت لنا ان سلوك الآباء والأمهات نحو ابنائهم ـ خصوصا في السنوات الخمس الأولى من حياة اطفالهم ـ قد يكون هو السبب المباشر ـ أو غير المباشر ـ في اضطراب شخصية الطفل ، او اصابته ببعض العقد النفسية . والواقع انه كثيرا ما يكون اطفالنا « ضحايا » لنقص خبرتنا ، او لضعف شخصيتنا ، او ـ على الاقل ـ لخطأ اساليبنا التربوية ! وقد لا نبالغ اذا قلنا ان فن « زراعة العقد » فن شيطاني خبيث ، برع فيه الكثير من الآباء والأمهات ، من حيث يدرون او من حيث لا يدرون !

وآية ذلك أن الأساليب التي قد ينتهجها بعض الآباء والامهات في تربية ابنائهم ـ وبخاصة حينما يكونون هم انفسهم عصابيين او منحرفين او اصحاب عقد نفسية ـ قد تعمل على اشاعة الاضطراب في حياة اطفالهم ، او قد تتسبب في خلق « عقد شخصية » خطيرة تهدد ـ من بعد ـ كل نموهم النفسي . ولسنا نريد ـ في هذا المقال ـ ان نتتبع بالتفصيل كل الاخطاء التي طالما تردى فيها امثال هؤلاء المربين المنحرفين ، وانما حسبنا ان نتعقب ـ في ايجاز ـ أهم « العقد الشخصية » التي قد يتسبب الآباء والامهات ـ حتى ولو كان ذلك بحسن نية ـ في زراعتها ـ بشكل خطير ـ في نفوس ابنائهم !

« عقدة الذنب » . .

ولعل في مقدمة « العقد » التي قد يعمل الآباء والامهات على زراعتها في نفوس ابنائهم « عقدة الذنب » (او الاثم) . وربما كان من أهم اعراض هذه العقدة ، الرغبة في « العقاب الذاتي » :

الحرص على « القصاص » ، والنزوع نحو تنظيم « الفشل » ، بشكل قد لا يخلو من تناقض ظاهري ! وحينما يصطنع الآباء - في تربيتهم لاطفالهم - طريقة « التأنيب المستمر » ، فان هذه الطريقة التربوية - وحدها - قد تولد لدى الطفل ضربا من الشعور المرضي بالذنب ... م . وهنا قد يلجأ الوالدان - او احدهما - الى استخدام عامل « الإخجال » او « التعيير » او « التهديد الوجداني » .

كأن تقول الام لطفلها : « انك بذلك تقتلني » ، او كأن يقول الاب لولده : « انك تتسبب في موت والديك » ، او كأن يقول الوالدان لطفلهما : « اذا كنت تحبنا حقا ، فانك لن ترضى بلا شك ان تفعل هذا » ، او كأن تقول الام لابنتها : « انت عار الاسرة كلها ! » . . . الخ .

فكل هذه العبارات - وغيرها كثير - قد تنمي في نفس الطفل عقدة الشعور بالذنب ، خصوصا اذا انضافت اليها ذكريات النواهي الجنسية الكثيرة التي كان يتلقاسا من والديه ، ابتداء من سن الرابعة ، حين كان يبدي ضربا من حب الاستطلاع حول بعض الامور الجنسية ، حتى بداية فترة المراهقة الاولى مع ما يقترن بها من ممارسة لبعض العادات السرية . وقد تزداد المسألة خطورة ، اذا عمد الآباء والامهات الى اضفاء صيغة درامية خطيرة على بعض الاخطاء البسيطة التي قد يرتكبها الطفل (كأن يسرق مثلا لعبة من احد رفقائه ، او كأن يتفوه بكلمة نابية في حق احد البالغين . . . الخ) . وفي مثل هذه الحالات ، قد يتورط الآباء والامهات في معاقبة الطفل بأساليب رادعة عنيفة ، او يلجأون الى ايهامه بأنه سيتعرض لعقوبة الحبس او الضرب حتى الموت ، مما قد يسبب له اصابات نفسية بالغة ، وبالتالي قد يولد في نفسه « عقدة الذنب » او الاثم !

« عقدة النقص » !

واذا كان ثمة عقدة نفسية اخرى وثيقة الصلة بعقدة الذنب ، فتلك هي « عقدة النقص » (او القصور) . وربما كان من أهم اعراض هذه العقدة

الشعور المرضي بالحياء (او الخجل) ، والخوف من مواجهة الآخرين ، واعتبار « نظرة الغير » بمثابة حكم او ادانة « او لوم » او سخرية . ومن هنا فان المصابين بهذه العقدة يخشون المجتمعات ، ويهابون الناس ، ويعجزون عن الكلام او التعبير عن انفسهم امام الغرباء ، ويشعرون بقصورهم وعجزهم وفشلهم في الحياة ، لدرجة ان البعض منهم قد يتصورنفسه مثار سخرية الجميع ! وقد دلتنا التجارب على ان الآباء والامهات قد يعملون ـ من حيث لا يدرون ـ على تربية هذه العقد في نفوس ابنائهم حينما ينمون لديهم مشاعر النقص ، او حينما يلجأون باستمرار الى اساليب اللوم او الاستهزاء او التحقير . فالأب الذي يقول لابنه (مثلا) « أنت تلميذ خائب » ، او « انت ولد غبي » ، او « أنت عاطل لا تصلح لشيء » ! ، والام التي تقول لابنتها (مثلا) : « هل رأيت شكلك في المرآة ؟ » ، او « أنت لن تكوني يوما سيدة نافعة » ، او « لاأظن أن هنالك من هي أحمق منك ! » . نقول إن أمثال هؤلاء الآباء والامهات يمارسون مناهج تربوية هدامة ، لانهم بذلك يولدون في نفوس اطفالهم « عقدة النقص » .

صحيح أن الآباء والامهات قد يتوهمون أنهم ـ بهذه العبارات ـ يستحثون ابناءهم على الاعتراف بخطئهم ، والعمل على اصلاحه ، ولكن الابناء قلما يدركون الدلالة التربوية لامثال هذه العبارات ، ومن ثم فانها قد تولد في نفوسهم تأثيرا عكسيا ! وكثير من المقارنات التي يجريها الآباء والامهات بين أبنائهم « الفاشلين » وغيرهم من الأطفال « الناجحين » ، قد لا يكون من شأنها سوى أن تربي « عقد النقص » في نفوس أولئك الابناء !

ومن هنا فان الكثير من الاساليب التربوية التي يصطنعها الآباء والامهات لتشجيع أبنائهم ، او حثهم على التنافس ، ان هي الا مناهج فاشلة تتسبب في زيادة شعور الطفل بالنقص ، وتدفع به الى اتخاذ مسلك تعويضي متطرف او شاذ .

« عقدة التنافس الأخوي »

لقد فطن علماء النفس ـ منذ عهد بعيد ـ الى أهمية عاطفة « الغيرة » في حياة الطفل ، فتحدث فرويد عن « عقدة قايين » : (او كما نقول نحن « قابيل ») ، كما تحدث كل من بودوان ولاكان ، عن « عقدة الدخيل » وكل هذه التسميات إنما تشير الى « الغيرة » المرضية التي قد تتولد في نفس الطفل بسبب التنافس البغيض الذي قد يقوم بينه وبين أخيه الصغير . وقد روى لنا القديس أوغسطين في « اعترافاته » ان الطفل الرضيع نفسه لا يحتمل رؤية منظر أمه (او مرضعته) وهي ترضع طفلا آخر (حتى ولو كان أخا له) ، فهو بمجرد ما يشهد هذا المنظر ، يبدي من إمارات الحنق وعلامات الغضب ما قد يصل أحيانا الى حد التشنج ! ولا نرانا في حاجة الى القول بأن « الأخ » (او « الأخت ») يمثل (او تمثل) ـ في نظر الطفل ـ « المنافس » الخطير الذي يغار منه ، ويريد القضاء عليه ! واما في المراحل المتأخرة من الطفولة ، فان الاهتمام الذي قد يبديه الوالدان بأحد الابناء (دون سواه) ـ وبخاصة اذا اقترن بالتفضيل ، والمديح ، والملاطفة المستمرة ـ قد يولد في نفوس باقي الاخوة ، « عقدة الغيرة » او « عقدة التنافس الأخوي » .

حقا إن الآباء والامهات قد يلجأون الى « طريقة التنافس » بدعوى تشجيع أبنائهم على التفوق في الدراسة او الامتياز في السلوك ، ولكن التجربة قد أثبتت ان هذه الطريقة كثيرا ما تشيع روح البغضاء بين الأخوة والأخوات ، خصوصا اذا اقترنت بتفضيل واضح ـ من جانب الابوين او من جانب احدهما ـ لابن واحد بعينه ، على غيره من الابناء . ولا شك ان أي « تفضيل » محسوس ـ من جانب الاباء والامهات ـ لاي طفل بعينه على غيره من الاطفال ، لا بد من ان يكون بمثابة علة مباشرة لنمو « روح الغيرة » في نفوس باقي اخوته . ولكن هذا الشعور الطبيعي بالغيرة قد يتحول الى « عقدة » ، حينما يعمد الابوان الى معاقبة طفلهما على غيرته ، او حينما يقفان منه موقفا متحيزا ، بان يعمدا (مثلا) الى هجره ، او نبذه ، او اهماله . وليس أمعن في

الخطأ هنا من ان يعطي الوالدان للطفل الصغير كل لُعب اخيه الكبير ، او يعاقبا الابن الكبير ، لعدم اهتمامه بأخيه الصغير (او لكراهيته له ، او لحقده عليه . .). والواقع ان العناية الزائدة التي يلقاها المولود الجديد قد تكون كافية ـ في حد ذاتها ـ لاثارة الغيرة في نفس الاخ الاكبر ، فلا موجب لتوليد « عقدة التنافس الاخوي » في نفس هذا الابن المسكين باعطاء ممتلكاته (او لعبه) لذلك « الدخيل » الذي خلعه عن العرش ، واصبح هو ـ وحده ـ محط انظار الجميع ، وموضع اهتمام الاب والام معا ، لعل هذا هو السبب في ان « عقدة الغيرة » كثيرا ما تسير جنبا الى جنب مع «عقدة الهجر »!

« عقدة البتر »

حينما يتحدث علماء النفس المعاصرون عن « عقدة البتر » (او الإخصاء) فانهم قد لا يقصدون اليوم بهذا التعبير ما كان يقصده به فرويد ، بل هم يعنون بهذا الاصطلاح « صعوبة تأكيد الذات بطريقة شخصية مستقلة تحمل طابع المسئولية ، مما هو في العادة نتيجة لتأثير سيىء من قبل البيئة (وخصوصا من جانب الوالدين) ، بحيث يصبح الشاب (او الفتاة) عاجزا (او عاجزة) عن شق طريقه (او طريقها) في الحياة » .

وقد لاحظ عالم النفس الفرنسي المعاصر (لافورج) أن « هنالك من بين الفتيات عذارى كثيرات لم يجدن انفسهم بحاجة الى الاحتماء بين جدران اي دير من الاديرة ، لأنهن ضحين بشبابهن ، وجمالهن ، وحياتهن ، في سبيل ام فرضت عليهن واجبا لا مفر من ادائه ، الا وهو واجب رفض كل متعة في الحياة ! » ثم يحدثنا لافورج عن موقف بعض « الامهات الباترات ». من ابنائهن فيقول : « واما بالنسبة الى الولد ، فان الام قد تستعين بامثال هذه المباديء من اجل خنق كل مظاهر الرجولة في نفس ابنها منذ نعومة اظفاره . فحسبه ـ مثلا ـ ان يبدي اي تعبير قوي ينم عن الشخصية ، لكي تشن عليه حربا شعواء لا هوادة فيها ولا رحمة ، آملة من وراء ذلك أن تحطم « رأسه

العنيد » ، او ان تولد لديه ضربا من الشعور بالضعة او العار او الخجل من نفسه ، عاملة في الوقت نفسه على تزويده بمثل عليا ذات طابع انثوي صرف : كالعفة (او الطهارة) ، والرقة (او الانوثة) ! وهنا قد تتفنن الام في العمل على اخصاء ابنها ، نفسيا ، على الاقل ، ما دامت لا تملك اخصاءه جسميا . . !! ثم يستطرد لافورج فيحدثنا عن ردود افعال الأبناء ضد هذه الطريقة البترية في التربية فيقول : « إن ردود الأفعال التي تتولد لدى الأبناء - في هذه الحال - تختلف باختلاف امزجتهم الشخصية : فهنالك صبية يكادون ان يتحولوا الى بنات ، وكأن الواحد منهم قد اتخذ من « امه » مثلا اعلى له راح يعمل على محاكاته وينمو على غراره . . وهنالك اولاد آخرون يستجيبون لموقف الام بضرب من النزوع العدواني ، ولكن دون ان يقووا على مواجهة الام صراحة بهذا النزوع العدواني ، خشية ان يتعرضوا لقصاصها او مجازاتها ، ومن ثم فانهم يتجهون بميولهم العدوانية نحو أنفسهم ، او هم قد يعمدون الى اسقاطها على غيرهم . . » .

وهكذا نرى ان « الاسلوب البتري » في التربية هو اسلوب خطير يقوم على الوقوف في سبيل نمو الطفل ، والحيلولة دون استقلاله الذاتي ، والعمل على اعاقته عن تأكيد ذاته ، وبالتالي شق طريقه الخاص في الحياة . ويدخل في هذا الباب كل ما قد يقوم به الاباء والامهات من تصرفات قد يكون من شأنها استبقاء ابنائهم في مرحلة الطفولة ، لاسيما حين يكون الآباء في سن متقدمة ، او حينما يصدرون في سلوكهم عن مبدأ « عبادة الطفل » ، او حينما يكونون بازاء « طفل وحيد » . .

وفي كل هذه الحالات ، نجد الآباء ينمون في نفوس ابنائهم روح « الاعتماد على الوالدين » ، خوفا عليهم من المستقبل ، فلا تلبث مخاوفهم ان تنتقل الى نفوس الابناء ، وعندئذ قد يشعر الطفل بالقلق والخوف من « النمو » (او البلوغ) ، لدرجة انه قد لا يجد في نفسه اي استعداد لترك الملاذ العائلي الذي يحميه !

« عقدة القلق » . . !

لقد كان فرويد يجعل من « القلق » القاسم المشترك بين كل الاضطرابات الباثولوجية (المرضية) ، ومنذ ذلك الحين ، راح علماء النفس والمهتمون بدراسة الطفولة يبرزون أهمية الشعور بالامن ، مؤكدين انه يمثل الدعامة الاساسية لكل نمو سوي . وقد أثبت لنا (أودييه) ان ترقي شخصية الطفل لا يتم الا اذا تحقق له ـ على التوالي . . أولا الشعور بالامن ، ثم القدرة على « تقييم الذات » وأخيرا عملية الاستقلال الذاتي ، وهكذا جعل أودييه من « مركب الخوف » او « عقدة القلق » العصب الحيوي في كل المسار الباثولوجي للشخصية المنحرفة . ثم جاءت جماعة هورني فوضعت مشاعر القلق ، والخوف ، وعدم الطمأنينة ، على رأس المشاعر العصابية ، وقالت عن « عقدة القلق » انها « عقدة العقد » .

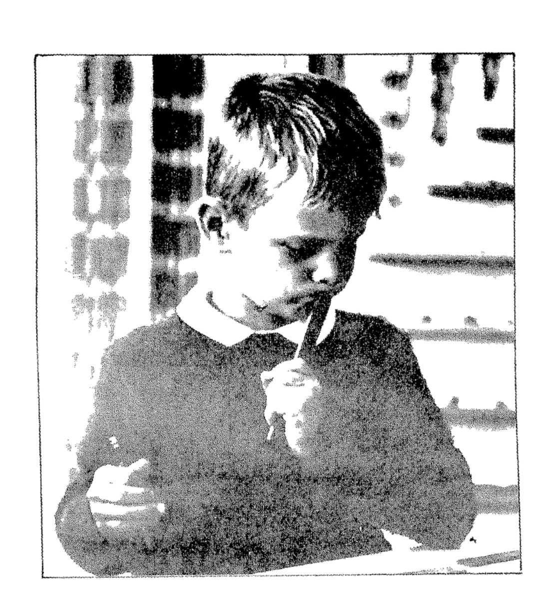
والملاحظ انه حينما يعمد الوالدان الى اظهار الكثير من مظاهر الجزع ، والقلق ، واللهفة ، حول صحة الطفل ، وحياته ، ومستقبله ، فان هذا المسلك نفسه قد يتسبب في توليد عقدة الخوف ، والقلق ، وعدم الطمأنينة في نفس الطفل . وليس من شك في ان الآباء والامهات حينما يبسطون مشكلاتهم العائلية والاقتصادية على مسامع اطفالهم الصغار ، او حينما يبالغون في وصف خطورة الاحداث السياسية والحربية التي تجتازها مجتمعاتهم ، فانهم بذلك يسهمون في بث روح الذعر والخوف وعدم الاطمئنان في نفوس ابنائهم ومن هنا فان فقدان الطفل لثقته في نفسه وفي الآخرين ، وتزايد اضطرابه الوجداني ، كثيرا ما يكونان من جملة الاعراض المرضية التي يزرعها الآباء في نفوس ابنائهم حينما يجتثون ـ من حيث يدرون او لا يدرون ـ مشاعر الامن والاطمئنان ، من نفوس ابنائهم .

على أن « مشاعر الأمن » ـ كما اثبتت التجارب السيكولوجية العديدة ـ وثيقة الصلة (اولا وقبل كل شيء) بتوافر محبة الام ، واستمرار رعايتها

لطفلها ، خصوصا في السنوات الخمس الاولى من عمره . وآية ذلك انه حينما ينعدم المناخ الدافيء الذي يشيعه حول الطفل « حب » امه له ، وتعلقها به ، وعطفها عليه ، فهنالك لا بد للطفل من ان يستهدف لخطر الوقوع تحت طائلة « عقدة القلق » ومن هنا فان اي تصدع يطرأ على علاقة الام بطفلها ، لا بد من ان تتمدد اصداؤه في كل الحياة النفسية للطفل ، لانه يتسبب - بلا شك - في زعزعة ثقة الطفل بالحياة والآخرين . هذا الى ان كل « تربية » تشيع في الوسط العائلي روح الخوف ، والقلق ، والجزع من المستقبل ، والذعر المسبق من احتمالات الفشل ، لا بد بالضرورة من ان تزرع في نفس الطفل « عقدة القلق » (او عدم الاطمئنان) . . . الخ .

وبعد ، فقد حاولنا ان نضع بين يدي القاريء ثبتا موجزا بأهم « العقد النفسية » التي قد يزرعها الآباء والامهات في نفوس ابنائهم ، من حيث يدرون او لا يدرون . . أفلا يحق لنا ان نقول - في خاتمة المطاف - إن الطفل - هذا المسكين - كثيرا ما يكون ضحية لجهل ابوين يحكمان عليه بان يحيا طوال حياته ، نهبا لمشاعر القلق ، او الذنب ، او النقص (او غير ذلك) ، وهو المخلوق البريء الذي كان احرى بهما ان يكفلا له حياة الامن ، والمسئولية والاستقلال الذاتي ؟





الأطفال الموهوبون

بقلم : الدكتور عبدالقادر يوسف

اهتم الناس منذ أقدم الأزمنة بالأذكياء من الاطفال ، باعتبارهم قادة المستقبل في مختلف ميادين المعارف الانسانية .

ولكن هذا الاهتمام لم يشمل إلا فئة محظوظة أتاحت لها الظروف أن تكتشف عبقرياتها ويؤخذ بأيديها لتصل الى ما قدر لها الوصول اليه من ابداع .

دراسة الموهوبين

وكانت دراسات الموهوبين من الاطفال في الغالب تدور حول طفولات رجال عباقرة غيروا وجه التاريخ والحضارة الانسانية ، ولم تك تلك الدراسات تعدو استعراض مراحل الطفولة الماضية لهؤلاء العباقرة ، وذلك استنادا الى روايات المعجبين وما يتذكره الرفقاء ، أو هي تستند على سِيَر أولئك العباقرة التي كتبوها بأنفسهم أو كتبها مريدوهم . فلم تكن تلك الدراسات علمية موضوعية ، ولهذا لم نجد فيما كتب وصنف في هذا الموضوع قبل القرن العشرين إلا النزر اليسير ، وحتى هذا القليل لا يعتبر دراسة منهجية ، وكل ما نشر هنا وهناك لا يفي بالمراد .

العربي العدد ٣٥ اكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٦٢ م

نظرة المجتمعات المختلفة الى الأطفال الموهوبين

والواقع ان سر العزوف عن الخوض في هذا الموضوع كان يستند الى نظرة المجتمعات المختلفة الى الأطفال الموهوبين والى الظروف التي تهيىء الكشف عنهم .

مضى على الناس حين من الدهر ، وهم ينظرون الى الطفل الموهوب الذي تظهر عليه سمات النجابة والنبوغ مبكرا ، نظرة ملؤها الشك والخوف والحذر ، وكان شعارهم أن الفاكهة المبكرة يسرع اليها الفساد والعطب قبل غيرها ، وانتشرت في الغرب الخرافة القائلة : إن إطالة الطفولة خير من الفطنة المبكرة وأرجف قائلون أن كثيرا من العبقريات الفذة كانت متبلدة في فترة الطفولة ، وقد باتت هذه النظرة الغربية أقل شيوعا هذه الأيام ، ولكننا نصادفها أحيانا .

فلربما وجدنا مدرسا يبدي بعضا من مشاعر الحنق والكراهية نحو الطفل الموهوب الذي أوتي نصيبا وافرا من النباهة والذكاء ، وقد نجد الطفل والحالة هذه يرى أن من الخير له أن يخفي حقيقة قدرته العقلية فيعزف عن الإجابة والتسميع في الفصل .

اهتمام العرب بالطفل النابه

اختلفت عناية الأمم بالموهوبين من الأطفال في جوهرها ، ووسائلها وأهدافها ، كما اختلفت وجهات النظر بالنسبة لطبيعة النبوغ وتعريفه وطريقة توجيهه واستغلاله ، ولم يكن العرب أقل من غيرهم اهتماما بمن تظهر عليهم مخايل النجابة و النبوغ من الأطفال ، بغض النظر عن أصولهم وبيئاتهم الاجتماعية فأفردت كتب الأدب القديمة فصولا عن النجباء ، وما روى عنهم في

صغرهم وطفولتهم من قصص نادرة ، وأعمال باهرة . وقد عرّف أحد قادة العرب الطفل الذكي الذي يجب أن يؤهل للقيادة والأعمال الجليلة ، بأنه القوي جسما ، والرضيُّ خلقا ، والمتوقد ذكاء ، والذي يبدي رأيا حصيفا قبل الأوان .

فروق فردية بين الأطفال

ومنذ بداية القرن السابع عشر الى أول الربع الأخير من القرن التاسع عشر انتشرت في العالم الفلسفة السياسية التي تنادي بتكافؤ الفرص للجميع ، ومعنى هذا في التربية ألا يفرق بين الذكي والغبي والمتوسط . وبناء على ذلك أعدت للأطفال جميعا ، من أذكياء وأغبياء ، وما بينهم ، مناهج تربوية واحدة ، أخرت الأذكياء فلم يتقدموا . ولكن ما لبثت الدراسات النفسية الحديثة أن ظهرت للوجود ، وثبت بالدليل القطعي أن هناك ما يعرف بالفروق الفردية ، فعدلت مناهج التدريس في كل مكان ، وتجدد الاهتمام بالأذكياء والنوابغ وأسست في أمريكا جمعيات للعناية بهم والعمل على الأخذ بأيديهم ، واهتم كثير من المربين النفسانيين بدراسة كل ما يختص بهؤلاء الأطفال . وحينما قام ترْمان الاستاذ بجامعة ستانفورد بكاليفورنيا سنة ١٩٠٤ بمراجعة كل ما كتب خلال نصف قرن مضى عن النبوغ والعبقرية ، في أمريكا وانكلترا والمانيا وفرنسا ، هاله ان وجد مشاعر الكاتبين ضد النباهة العقلية بصورة شبه اجماعية ، حتى كاد يفترض أن لها أساسا صحيحا من الحق ، ولكن في السنة التي تلت ، حدث لحسن الحظ ما أضعف ايمانه بالنظرية الدارجة الى حد ما ، وكان ذلك على ضوء نتائج دراسة اختبارية لفريقين متباينين من لامعي الأطفال وبلدائهم . وحينما قام ترمان بتنقيح مقياس بنيه اقتضى الأمر اختبار كثير من الأطفال اللامعين ومتابعتهم ، فاتضح له أن هناك مشكلة ذات أهمية اجتماعية وتربوية خطيرة ، فإلى ترمان يعود الفضل الأكبر في ارتياد هذه الآفاق الجديدة في عالم الطفل الموهوب . ومع كل ذلك فقد لاقى ترمان والمهتمون بعباقرة الأطفال معارضة

من القائلين بأن توجيه عناية خاصة بهم يعني من الناحية التربوية خلق عقدة العظمة والغرور عندهم . واستمر بعض المدرسين وأشياعهم من أصحاب هذه الفكرة ينظرون لنوابغ الأطفال على أنهم عبء على متوسطي التلاميذ ووصفوهم بالغرور والشذوذ وخلق المشاكل .

من هو الطفل الموهوب ؟

عرَّف جماعة من المربين الطفل الموهوب بأنه ذلك الطفل الذي يبدي امكانية ابداع مستمرة في احد المناشط الانسانية القيمة .

وعرَّفه آخرون بأنه من أوتي طاقة عالية للتعلم حتى إنه ليستطيع أن يتعلم ، ثر من المنهج المقرر ، خلال الوقت المقرر ، وتحت الظروف المقررة .

أما الاستاذ ترمان فقد عرفه بأنه من كان يملك محصول ذكاء أقله ١٤٠٪ حسب مقاييس الذكاء المعروفة .

وقد شاعت فيما مضى بين الناس خرافة مفادها أن الطفل الموهوب يغلب عليه أن يكون ضئيلا ذا عاهة جسمية ، شارد الذهن ، عزوفا عن المجتمع ، غريب الاطوار ، زري الشكل . واستندوا في أحكامهم هذه على أمثلة فردية لعباقرة اتصفوا بمثل هذه الصفات . إلا أن الدراسات النفسية المتكررة والمتلاحقة ـ وعلى الأخص دراسات ترمان وهولنكورث ـ برهنت عكس ذلك تماما ، واتفق غالبية الباحثين على أن العباقرة أصحاء الأجسام (العقل السليم في الجسم السليم) ، متواضعون ، ذوو جلد على البحث والدرس ، متعاونون ، شخصياتهم قوية ، عندهم أصالة وابتكار ، وأن من أبرز خصائصهم الطاقة العقلية والقدرة والحذق ، والكفاية ، والموهبة .

أما الطاقة العقلية فهي بعض صفات الفرد الطبيعية .

وأما القدرة فهي القدرة على الاداء والانجاز .

وأما الحذق فيكون مزيجاً من الطاقة والقدرة على مستوى رفيع في حقل خاص من حقول المعرفة والابداع .

أما الكفاية فيراد بها ، على ضوء المفاهيم النفسية التقليدية ، القدرة على التعلم التي يحتمل التنبؤ بها بواسطة الانجاز والتدريب .

أما الموهبة التي يشيع استعمالها كثيرا فتدل على أن الفرد يمتلك قدرة خاصة أو أكثر ، الى درجة عالية ، وهي عبارة عن أداء من غير مجهود يذكر ، ولما كان الناس كلهم لديهم كفايات تتراوح بين القليل والكثير وتختلف اختلافا عظيما في النوع فان الموهبة والحالة هذه عبارة عن كفاية رفيعة .

وقد برهن ترمان بشكل خاص نتيجة تتبعه مراحل حياة مجموعة من موهوبي الأطفال قرابة ثلاثين عاما ، على أن الغالبية العظمى منهم تميزوا بأغلب هذه الخصائص مجتمعة ونجحوا في حياتهم العملية نجاحا باهرا ، فمنهم الطبيب ، والمهندس ، والصحفي ، واستاذ الجامعة ، والمحامي ، ورجل الأعمال ، ووجد حياتهم العاطفية غنية وظروفهم المعاشية حسنة . على أننا يجب أن نشير هنا الى أن نجاحهم في حياتهم العملية لم يكن ليتحقق على هذه الصورة لو لم يجدوا أمامهم فرصا مناسبة ، ولو لم يعطهم المجتمع ما يستحقونه من عناية واعتراف وتوجيه .

كيف نتعرف على الأطفال الموهوبين ؟

لابد للعباقرة من الأطفال من يبحث عنهم ، ويأخذ بيدهم ، ويلفت الأنظار اليهم ، كي يعطوا العناية اللائقة ، وتستفيد الأمة منهم . والعبقرية لا يحتكرها وطن واحد ، أو لون أو جنس واحد ، إنها موجودة في كل مكان وكل زمان ، لكنها تحتاج الى من يسلط عليها الاضواء ، فكم من عبقريات فذة قضى عليها وهي في مهدها ، وانطمست أو انحرفت عن مجراها الطبيعي نظرا لغفلة المجتمع عنها ، وعلى الأخص في أقطارنا العربية . إلا أن الأمر هذه الأيام آخذ

بالتغير لصالح النوابغ نوعا ما ، بالنظر الى تعقد ظروف الحياة وتنوع الاختصاصات وحاجة المجتمعات الى القادة المبدعين في شتى الميادين ، فعلى الآباء والامهات مسئولية كبرى في ملاحظة ابنائهم وبناتهم ، ومراقبة اتجاهاتهم وآرائهم ، ونموهم العقلي والجسمي واللغوي والخلقي والاجتماعي . فان كان الاباء والأمهات على قسط من المعرفة ، ساهموا بنصيب في تهيئة الأجواء الملائمة لاطفالهم الأذكياء ، عليهم أن يطلعوا المدرسة على ملاحظاتهم وما يتصف به أطفالهم من خصائص نادرة ومميزات فذة من غير تحيز أو غلو .

وتستطيع المدرسة الحديثة أن تكون صورة صادقة عن أطفالها النوابغ ، بالتعاون مع المنزل ، ومع كل من له صلة بهؤلاء الأطفال ، لأن الذكاء الخارق ، لا يعبر عن نفسه دائما في الأعمال العقلية والمناشط الدرسية التي تؤدى في المدرسة فقط .

وهناك طريقة موضوعية لاكتشاف النوابغ وهي تطبيق اختبارات الذكاء والقابليات الخاصة على الأطفال، ثم تقارير الباحثين الاجتماعيين والنفسانيين ، فاذا استعملت هذه الاجراءات مع ملاحظات الآباء والمدرسين والمشرفين التربويين (المفتشين) ونتائج الاختبارات المدرسية أمكن الحصول على فكرة أصوب عن حقيقة الأطفال واستعداداتهم .

في المراحل المبكرة

وفي مرحلة الطفولة الاولى ، على الآباء والأمهات أن يلاحظوا بعض الخصائص الهامة ، التي قد تميز الطفل الذكي عن غيره . وهي الكلام المبكر ، والمشي المبكر ، والاسئلة الكثيرة الاستفسارية ، وسهولة استعمال الكلمات والأفكار .

وفي مدارس الحضانة يجدر بالمدرسين والمدرسات ملاحظة حديث الطفل ، واستعماله لأكبر عدد من المفردات على الوجه الصحيح ، والتخيل

وسعة الحيلة عند مواجهة المشاكل ، والاهتمام بأشياء كثيرة ، والرغبة في مزيد من التعلم عنها ، والاسئلة الهامة واظهار الاهتمام بالأجوبة ومحبة الكتب ، وتمييز كلمات مفردة على الصفحة المطبوعة وفهمها ، والرغبة في القراءة والتركيز على موضوع ما من غير تشتت ، مدة أطول من الآخرين .

ويكاد يصعب على الملاحظ أن يميز الطفل الموهوب في النواحي الفنية كالرسم والتلوين إلا اذا استمر في الملاحظة وأحاط الطفل بجو من التشجيع كي يخلق في نفسه شعورا بالطمأنينة والرضا .

وقد نجد شبها بين عبقري الفن من الأطفال وبين من يظهر خصائص قيادية فذة ، واكتشافه لا يتأتى بوسيلة غير الملاحظة والتشجيع .

أما استعمال اختبارات الذكاء ، فيعتبر وسيلة فردية هامة لقياس واختبار الطفل صاحب الذكاء الخارق ، إلا أن صحتها تعتمد على الطريقة التي تطبق بها ، فقد لا يتعاون الطفل مع الفاحص على الوجه الأكمل فلا يكشف عن قدرته الطبيعية ، كما ان عملها لا يتناول غير ذوي العبقريات الفكرية . وفي البلاد المتقدمة تربويا ، توجه عناية كبيرة الى مدرسي الأطفال النوابغ ، فيدربون أحسن تدريب ويختارون أحسن اختيار بحيث تتوافر فيهم خصائص الذكاء العام ، والمعرفة بطبائع الأطفال ، والحلم والصبر ، والأصالة ، والشجاعة ، والعطف ، والروح الاجتماعية ، والأمانة ، وتقديس مهنة التدريس ، والمهارة في الادارة والقيادة ، والتنويع ، والابتكار في الأساليب .

الأطفال الموهوبون لهم مشاكلهم

يدرك الذين يعيشون مع موهوبي الأطفال أو المعنيون بدراستهم ، أن هؤلاء النوابغ قلما يجدون الحياة مفروشة بالورود ، فهم يواجهون في الغالب جميع مشكلات الأطفال الآخرين خلال فترة النمو ، وزيادة على ذلك يواجهون مصاعب خاصة لا تواجه الطفل العادي اطلاقا . وليست هذه المشاكل نتيجة

عجب أو تعال ، وإنما هي بسبب نظرة الآخرين لهم .

ومن أخطر مشكلات موهوبي الأطفال مشاعر اللامبالاة التي يبديها آباؤهم ازاء بوادر نجابتهم وعبقريتهم ، وقد يمعن بعض الآباء في تثبيط العبقرية عند أبنائهم . وقد يكون الوالدان في شغل شاغل بمشاكل الحياة عن مجرد التعرف على أحوال الطفل . وقد يكون شعور اللامبالاة عند الوالدين ناجما عن الفقر والجهل . على أن هذه النظرة هي الان في طريق الزوال في مجتمعنا العربي بسبب ايمان الناس بأن العلم سبيل الى تحسين مستوى المعيشة والى العزة القومية .

وعلى نقيض شعور اللامبالاة عند الوالدين ، نجد بعضا منهم يغالي في الاحتفاء بذكاء طفله ويدفعه دفعا نحو ممارسة المسائل العقلية والفنية ، مما يثقل كاهل الطفل ويفسد عليه نموه الطبيعي ، وقد نجد هذا في مجتمعنا العربي أحياناً إلا انه شائع في الطبقات الوسطى في المجتمعات الغربية الصناعية .

وفي غمرة دفع الآباء لأبنائهم الأذكياء نحو التفوق العقلي ، يغفلون عن أن نمو الطفل الاجتماعي والعاطفي قد لا يكون على مستوى نموه العقلي ، ويفوتهم أن النمو المتكامل للطفل الموهوب هو سبيله الى الابداع المنشود .

ومن أهم مشاكل الأطفال الموهوبين أنهم يوضعون في الغالب في مدارس توجه مناهجها لارضاء احتياجات ومستويات الأطفال المتوسطين ، ولذلك يجد بعضهم المدرسة لا تحقق رغائبه ، ولا ترضي احتياجاته ، ولا تتحدى طاقاته العقلية ، فيتكاسل ويحجم عن بذل مزيد من الجهد ، وبهذا لا يتاح له أن يكتسب العادات الجيدة في الدراسة والبحث ، استهانة منه بمستوى منهج مدرسته ، فاذا قدر له في المستقبل أن يدخل الجامعة ، ودراساتها تتطلب منه الانتباه والتركيز ، وجد من الصعب عليه أن يتكيف وفقا لهذا الظرف الجديد .

وأخطر المشكلات التي يتعرض لها الطفل الموهوب تنجم عن استهانة مدرسه به ومعاملته له من غير اكتراث ، دون أن يحاول تحدي ذكائه ، واطلاق طاقاته العقلية كلها من عقالها . وهذا يسبب له خيبة أمل وانطواء .

وهناك مشكلة تكوين الصداقات مع زملاء الفصل ، فالغالب ان زملاء الفصل يستكثرون عليه قدراته العقلية فيعرضون عنه ، فإما أن يفرض نفسه عليهم بشتى الطرق ، أو أن يعتزلهم الى عالم الكتب والنشاطات العقلية الخاصة ، وحتى في حالة تقبل زملاء الفصل له ، فانه لن يكون سعيدا بمناشطهم العادية التي قد تبدو له تافهة .

كيف نربي الطفل الموهوب ؟

الطفل الموهوب ذو طاقة عقلية هائلة يجب استغلالها على أكمل وجه ، وإلا أصيب بخيبة أمل ، وربما أصبح عبئاً على المجتمع ، يمتلىء نقمة وحقدا ، وعندها يصعب علاجه واعادة تسييره في الاتجاه الصحيح . ولهذا يجدر بالاباء اذا أوتوا بعض بسطة في الرزق ، أن يهيئوا الأجواء الملائمة لاطفالهم وتحقيق رغائبهم التي تتمشى مع طاقاتهم الذكائية ، على أننا ننصح لهؤلاء الآباء أن يتحاشوا التفاخر المفرط بذكاء أبنائهم على مرأى ومسمع منهم لئلا يتطور ذلك الى غرور وتعال .

أما المدرسة فانها تتحمل المسئولية العظمى ، فعلى القائمين بشئون التربية أن يتلمسوا أحدث السبل وأنجعها لتربية الموهوبين ، وهناك عدة اتجاهات في تربية هؤلاء الأطفال ، منها نقل الطفل الى فصل دراسي أعلى من عمره الزمني بحيث يلائم عمره العقلي وهي طريقة القفز أو الطريقة التقليدية التي مازالت تتبع في بعض البلاد العربية والأجنبية ، ومضار هذه الطريقة أكثر من منافعها ، بالنظر الى أن الطفل سيحشر مع زمرة من الأطفال تكبره سنا ، وتختلف عنه في الميول والاتجاهات وهذا يسبب له مرارة وانطوائية ، خاصة اذا تصدى له بعض أبناء الفصل بالمضايقات فيصبح ذكاؤه لعنة عليه . وهناك طريقة الفصول الخاصة بالنوابغ ، وهذه تتبع في كثير من البلاد المتقدمة ، على الرغم من

كثرة الاعتراضات عليها ، ومن محاسنها أنها تجمع الطفل على صعيد واحد مع من يقاربونه في الذكاء والعمر ، فيعمل باكتفاء وطمأنينة ، غير أن عيوب هذه الطريقة تكمن فيما قد تخلقه في نفوس هؤلاء الأطفال من غرور وترفع عن غيرهم ، فتضطرهم أن يعتزلوا النشاطات المدرسية المختلفة ، وعندها يجدون أنفسهم منبوذين . أما الطريقة الأكثر شيوعا فهي وضع نوابغ الأطفال في الفصول الدراسية العادية مع العناية بإعداد مناهج خاصة اضافية يكلفون القيام بها في بيوتهم ، وفي ساعات من النهار في المدرسة ، وتعرف هذه بطريقة التقوية للمناهج ، وهنا يجد الطفل النابغة في المناهج الخاصة ما يتحدى ذكاءه ، كما انها لا تسبب له عزلة اجتماعية ، بل ينغمس مع المجموعة ويشارك في نشاطاتها المختلفة ، فاذا لم يبدع في الألعاب فان له من ذكائه وغناه العاطفي ما يملأ نفسه فرحة واغتباطا فينمو شخصية متزنة متكاملة .

ذخر الأمة

نخلص من كل هذا الى القول أن الأطفال الموهوبين هم ذخر الأمة ، وقادة المستقبل ، وعليهم تبنى نهضات وتزدهر حضارات ، فواجب الامة أن تبحث عنهم في كل ركن وأن تأخذ بيدهم ، لأن تربيتهم تربية صحيحة ، هي مسئولية أمة ، أكثر منها مسئولية أفراد ، وليس في هذا ما يغاير مبادىء الديمقراطية روحا ومعنى ، فالمجتمع الديمقراطي يؤمن بمبدأ تكافؤ الفرص لكل انسان حسب اقتداره واستعداده .



لماذا يكذب الأطفال ؟

بقلم : الدكتور ملاك جرجس

لا يولد الأطفال صادقين ، لكنهم يتعلمون الصدق والأمانة شيئا فشيئا من البيئة ، إذا كان المحيطون بهم يراعون الصدق في أقوالهم وأعمالهم ووعودهم ، أما اذا نشأ الطفل في بيئة تتصف بالخداع وعدم المصارحة والتشكك في صدق الآخرين ، فأغلب الظن أنه سيتعلم الاتجاهات والأساليب السلوكية نفسها في مواجهة مواقف الحياة وتحقيق أهدافه .

ومن الخطأ الظن بأن الطفل الصغير لا يفرق بين الكذب والصدق ، فالطفل في مقدوره تماما أن يفرق بين ما هو صادق وما هو كاذب لاسيما المتعلق بالأمور والرغبات الخاصة به .

والطفل الذي يعيش في وسط لا يساعد على تكوين اتجاه الصدق والتدريب عليه ، يسهل عليه الكذب ، خصوصا اذا كان يتمتع بالقدرة الكلامية ولباقة اللسان ، وكان أيضا خصب الخيال . . . فكلا الاستعدادين ـ مع تقليده لمن

العربي العدد ٢٥٨ مايو ـ آيار ١٩٨٠ م

حوله ممن لا يقولون الصدق ويلجأون الى الطرق الملتوية وانتحال المعاذير الواهية ـ يدربانه منذ طفولته على الكذب .

وعلى هذا الأساس فإن الكذب صفة أو سلوك مكتسب ، نتعلمه كما نتعلم الصدق وليس صفة فطرية او سلوكا موروثا .

والكذب ـ عادة ـ عرض ظاهري لدوافع وقوى نفسية تجيش في نفس الفرد سواء كان طفلا أو بالغا ، وقد يظهر الكذب بجانب الأعراض الأخرى كالسرقة أو شدة الحساسية والعصبية ، أو الخوف الى غير ذلك من الأعراض .

أسلوب خاطيء

يلجأ بعض الآباء الى الزج بأبنائهم في مواقف يضطرون فيها الى الكذب ، وهذا أمر لا يتفق مع أصول التربية السليمة ، كأن يطلب من الابن أن يجيب السائل عن أبيه ، كذبا بأنه غير موجود ، او يقول لطارق باب المنزل كذبا أن الأب أو الأخ لم يحضر بعد من الخارج أو ما شابه ذلك ، إن الطفل في هذه المواقف يشعر بأنه أرغم فعلا على الكذب ودرب على أن الكذب أمر مقبول ، وإلا لما لجأ اليه مثله الأعلى وهو الوالد او الوالدة أو الاخ الأكبر ، كما أنه يشعر بالظلم عند عقابه عندما يكذب هو في أمر من أموره كما يشعر بقسوة الكبار الذين يستحلون لأنفسهم سلوكا لا يسمحون له به .

هذا كما أن بعض الآباء يلجأون الى المبالغة في تنشئته على الصدق ، فيضيقون عليه في كل صغيرة وكبيرة وفي كل عبارة يقولها . ويصرون أن تكون صادقة مائة في المائة وفقا لما ينشدونه من صدق.هذا الاسلوب الصارم لا يغرس في الطفل صفة الصدق بل العكس ، قد يدفع الطفل الى الكذب كمحاولة للظهور بالمظهر الذي يطلبه الوالدان ، كما أنه لا يجدي كوسيلة لاقلاع طفل عن الكذب .

ان مثل هؤلاء الآباء ينسون أن كل طفل لا بد أن يمر بفترة من حياته يكذب

فيها ويلفق ، بما قد يوحي له خياله قبل أن يصل في طريقه الشاق الطويل الى مرحلة الصدق ، كما أنه من النادر أن نجد شخصا كاملا في صفة الصدق منذ طفولته .

والكذب عند الأطفال أنواع مختلفة ، باختلاف الأسباب الدافعة اليه ، ومن هذه الأنواع ما يأتي :

الكذب الخيالي

كل الأطفال في صغرهم يمرون بفترة لا يفرقون فيها بين الحقيقة والخيال فيكون الكذب الخيالي وهو أقرب ما يكون الى اللعب ، بل إنه نوع منه ووسيلة للتسلية ، كما أنه احيانا يكون تعبيرا عن أحلام الطفل ، أحلام اليقظة التي تظهر فيها آمال ورغبات الطفل ، تلك الآمال والرغبات التي لا يمكنه أن يفصح عنها بأسلوب واقعي . وواجب الآباء تهيئة الفرصة للأطفال ليعبروا عن أنفسهم بهذا الأسلوب الخيالي ، وفي نفس الوقت يجب عليهم أن يبصروهم ويساعدوهم على التفرقة بين الواقع والخيال .

ولا أدل على أن هذا النوع من الخيال أو الكذب الخيالي - ليس كذبا يبشر بانحراف سلوكي أو اضطراب نفسي - من أن الآباء والأمهات والجدات يقصصن على الاطفال في كل المجتمعات قصصا خيالية أثناء النهار للتسلية أو قبل النوم ليتراخوا ويناموا .

ويعتبر سن الطفل عاملا مهما عند تقدير خطورة أو عدم خطورة ميله الى الكذب ، فالطفل في سن الرابعة مثلا قد يلفق قصة من نسج خياله الواسع ، ولا يمكن أن نعتبرها كذبا بالمعنى المتعارف عليه بين البالغين ، وذلك لأن الطفل الصغير تختلط في ذهنه الافكار ولا يفرق بين الصحيح منها وغير الصحيح ، كما أن خياله يصور له أفكارا بعيدة عن الواقع والحقيقة ، ويتصور أنها واقع

وحقيقة . ولعل هذا هو سبب شغف الاطفال بسماع القصص الإسطورية من الجدات . بل إنهم لا يدركون عدم واقعية القصص الخرافية لدرجة أنهم يعيشون في أجوائها ويتخيلونها بشغف ولذة وسرور ، وقد يتخيلون أنفسهم أبطال هذه القصص .

ولا شك أن ميل الطفل الى القصص الخيالية أو تأليفه لها ، لا يعتبر جنوحا أو ميلا الى الانحراف والكذب المرضي ، بل يدل على أنه ما يزال صغيرا لا يفرق كثيرا بين الواقع والخيال .

ثلاثة أمثلة

ومن نماذج الكذب الخيالي هذه الأمثلة الثلاثة :

- طفل لم يتجاوز الثالثة من عمره ذكر أنه رأى كلبا ذا قرنين وذلك بعد أن احضر والده خروف العيد ، لقد انتزعت مخيلته قرون الخروف وركبتها على رأس الكلب ، وكان يؤكد ما رآه ويصر على أنه حقيقة كلما نهاه والداه عن هذا القول .

لقد كان من واجب الوالدين أن يفطنا الى العلاقة بين احضار خروف العيد والكلب والقرنين ، ويوضحا السر في خلطه صفات الخروف بصفات الكلب ، ويمدا يد العون للطفل ويساعداه ليفهم الفرق بين الكلب والخروف ، وتصبح هذه فرصة طيبة لتعليمه بعض المعلومات ، وذلك بدلا من التصميم على نهي الطفل واتهامه بالكذب والسخرية منه ، الأمر الذي جعله يصر اصرارا شديدا على أن ما رآه كان حقيقة وليس كذبا .

- طفل عمره أربع سنوات ، ذكر أنه رأى ثعبانا تحت مكتب أخيه فارتعبت العائلة كلها وقاموا بتفتيش الحجرة تفتيشا دقيقا ، واخيرا قرر الطفل أن الثعبان

كان في كتاب أخيه ، وهو في الواقع صورة لثعبان في كتاب يدرسه أخوه .

مثل هذا الطفل لا يجب أن نعاقبه أو نؤنبه ، إنما يجب أن نفهمه الأمر برفق وعطف .

ـ ولد عمره ١٢ سنة على درجة كبيرة من الذكاء ، رائع الخيال ، طلق اللسان كان يكتب القصص منذ صغره ، وكان والده مولعا بالعلوم النفسية فساعده على تنمية قدراته ، وبذلك نبغ الابن في كتابة الأدب وفي كتابة القصة ، وقد انقسم مدرسوه قسمين : قسم يشجعه وقسم آخر يعارضه على انتحائه هذه الناحية ، وكانوا يتهمونه بأنه يضيع وقته ، وقد انضمت والدته للقسم الأخير ، بل أخذته إلى اخصائي في الأمراض النفسية ، وشكت له من أن ابنها منذ طفولته كان يسترسل في حديثه ويسرد أشياء خيالية ، وانها لم تزجره وتمنعه ، ولم تكن تدرك ان الأمر سيتطور معه في الكبر ، فما كان من اخصائي الامراض النفسية إلا ان نصح الام بتشجيع ابنها ما دام ناجحا في دراسته ، وبذلك أصبح هذا الولد من كتاب القصص والروايات الناجحة في كبره .

وكلنا يعرف قصة « ساجان » الكاتبة الفرنسية المشهورة ، فهي حالة مماثلة للحالة السابقة وحالات أخرى كثيرة في جميع البلاد .

لذلك يجب على الآباء ألا يقلقوا إذا كان الطفل خصب الخيال ، ولا يحاولوا بكثير من الجهد علاج هذا النوع من الكذب ، بل يجب أن يتركوا الامر للزمن ، فهو كفيل بإلغائه كسلوك عند الطفل . . . هذا إن لم تنم هذه الملكة وتصبح موهبة عند الطفل في الكبر . يكفي أن يؤكد الآباء للطفل بأنهم يدركون أن ما يقوله هو نوع من اللعب ، وانهم يحبون هذه التسلية ، ويؤكدون له في نبرات الصوت ، وفي سلوكهم أنهم يدركون أن ما يقوله ليس صدقا كما أنه ليس كذبا بل إنه دعابة .

الكذب الالتباسي

هذا النوع من الكذب لا يدل على انحراف سلوكي وسببه أن الطفل يلتبس عليه الأمر لتداخل الخيال مع الواقع بحيث لا يفرق بينهما . . . مثال ذلك أن يسمع الطفل قصة خرافية أو قصة واقعية تمتلك مشاعره ، وبعد أيام يتقمص احداث القصة في نفسه أو في غيره .

وكثير من الكذب الالتباسي مرجعه احلام الطفل ، ومثال هذا الكذب أن طفلا عمره خمس سنوات كان يكره الخادم الذي يعمل عندهم لغلظته في معاملته ، وقد صحا من النوم يبكي في الصباح ، ويقول إن الخادم ضربه وسرق منه طعامه ، ورمى له لعبه في الشارع . والواقع أن الطفل حلم حلما بهذا المعنى أثناء الليل ولم يفرق في الصباح بين الحقيقة والحلم ، بل كان من وقت لآخر بعد ذلك يذكر للخادم أنه سبق له أن سرق طعامه وضربه وحطم له لعبه ، والعلاج



لمثل هذه الحالة هو أن نفهم الطفل بأن ما حدث له كان حلما وليس واقعا ، ثم نكرر له ذلك من وقت لآخر .

والواقع أن هذا ليس كذبا بالمعنى المعروف ، لكنه يزول مع مضي الوقت ، فكلما زادت خبرات الطفل وكلما تقدم في السن أمكنه التفريق بين الواقع والخيال .

وكما يحدث هذا الكذب نتيجة الاحلام التي يحلمها الطفل أثناء الليل ، فانه قد يحدث نتيجة أحلام اليقظة . فقد يتصور الطفل أن كلبا هجم عليه ، ويقص قصة يصورها على أنها واقعية ، على الرغم من انه ليس في محيطه كلاب ، وبالرغم من أنه بعيد عن مثل هذه التجربة . . . كما قد يتصور أن شخصا ما تكرهه العائلة ـ وهو يعلم بذلك ـ قد قابله في الطريق أو حضر له في المدرسة وضربه أو شكاه للمدرس أو المدرسة ، وكل هذا مرجعه خيال الطفل الواسع وليس له صلة بالواقع اطلاقا ، وسببه طبعا أحلام اليقظة التي يستغرق فيها الطفل ثم يلتبس عليه الامر بين الواقع والخيال .

ان الطفل في مثل هذه الحالات قد يلجأ الى الكذب دون قصد ، وذلك لأن الحقائق تلتبس عليه ، وتعجز ذاكرته عن أن تعين حادثة معينة بتفاصيلها ، فيلجأ دون أن يدري الى أن يحذف منها بعض التفاصيل ، ويضيف اليها اخرى من عنده ، حتى تصبح مستساغة لعقله الصغير ومنطقه المحدود ، وحتى تصبح مألوفة لديه ، واذا قصها بدت لنا كذبا وهو من الكذب براء .

الكذب الادعائي

يلجأ بعض الاطفال الذين يعانون من الشعور بالنقص الى تغطية هذا الشعور بالمبالغة فيما يملكون أو في صفاتهم ، او صفات ذويهم بهدف الشعور بالمركز

وسط أقرانهم او استجابة لمؤثرات يتعرضون لها في البيئة او بهدف النزوع للسيطرة عليهم .

ومن أمثلة ذلك أن يدعى الطفل أن لديه لعبا كثيرة وكبيرة جدا ، بل قد يتخيل شكل لعبة حجمها غير واقعي ، ويدعى ملكيتها والواقع انه ليس لديه من اللعب شيء يذكر . وقد يدعى أن والده يشغل مركزا مرموقا او انه يعمل في مهنة بعيدة كل البعد عن حقيقة مهنته ، وذلك لمجرد التفاخر وتعظيم الذات ، ذلك لأن الشعور بالنقص يحمل الطفل على تلفيق حقيقة مشاعره بالادعاء والمباهاة .

ومن الامثلة التي صادفتني في العيادة النفسية أن تلميذا في التاسعة من عمره على درجة كبيرة من الذكاء ، متقدم في دراسته وفي مدرسة خاصة من مدارس اللغة الانجليزية ، مستواه مرتفع اقتصاديا وهو ابن لاحد كبار موظفي الدولة ، وكثير من زملائه في الصف ابناء لكبار موظفي الدولة أو رجال السلك السياسي ، كان نظام المدرسة يقتضي أن يحضر والد أو والدة التلميذ كل شهر لاستلام تقرير بنتيجة أعماله ، وليقابل مدرسي الفصل للوقوف على أداء



وسلوك التلميذ بالمدرسة وكان التلميذ من الخمسةالاوائل في أغلب الشهور ، وكان كلما حل موعد استلام الشهادات او التقارير لا يخبر والده ، ويقول لمدرس الفصل أن والده مسافر خارج البلاد وكذلك والدته ، والحقيقة عكس ذلك او السر في ذلك يرجع الى أن بعض آباء الطلبة من زملائه يسافرون للخارج من وقت لآخر في اعمال ومهمات حكومية ، ويحضرون لابنائهم هدايا وملابس .

وهؤلاء التلاميذ يطلعون زملاءهم عليها ويفاخرون بها ، وكان والد التلميذ المذكور ، لا يسافر للخارج على الرغم من مركزه المرموق ، وكان التلميذ رغم نجاحه في المدرسة وتفوقه ، قصير القامة بشكل ملحوظ ويعاني من اعوجاج في اسنانه ، وكان التلاميذ يعيرونه بذلك ، فاخترع قصة سفر والديه مرارا ليفاخر بذلك أمام زملائه الطلبة ، وليشعرهم أنه سيحصل قريبا مثلهم على لعب وملابس وهدايا من الخارج .

والكذب هنا سببه واضح وهو الشعور بالنقص ، ومحاولة الطفل تغطية هذا الشعور بتعظيم نفسه بأمل أن يتحقق له الشعور بالتقدير من أقرانه ومن ثم يشعر بالمركز في وسطهم .

شائع ولا ضرر منه !

وهذا النوع من الكذب شائع بين اغلب الاطفال ولا ضرر منه ، لاسيما بين الاطفال الذين يتواجدون في بيئة أعلى من مستواهم في أي ناحية من نواحي الحياة ولا يمكنهم الوصول اليها .

وكما أن الكذب الادعائي وسيلة لتعظيم الذات والحصول على الشعور بالمركز والاطفال يلجأون اليه لاستدرار العطف وللشعور بالقبول في البيئة ولكي يصبحوا مركز اهتمام الغير .

ويلجأ الاطفال للكـذب الادعائي كـذلك لاستـدرار العطف عن طـريق التمارض والادعاء كذبا بالمرض ، أو بمحاولة ايهام الطفل للغير بأنه مغمى عليه أو أنه أرجع ما أكله ، الى غير ذلك من الوسائل التي يسيطر بها على البيئة ، ويحدث ذلك عادة من الاطفال الذين لم ينالوا درجة معقـولة من العـطف من الوالدين في طفولتهم ، وأيضا للاطفال المدللين في الصغر الذين تغيرت معاملة الوالدين لهم على أساس أنهم لم يعودوا اطفالا صغارا ، بعد ان جاوزوا سن الخامسة مثلا .

هذا كما يلجأ بعض الاطفال الى الكذب الادعائي ، فيتهمون الغير بتعذيبهم او ضربهم أو اضطهادهم . كأن يدعي تلميذ عند والديه أن المدرس أو المدرسة دائمة الاضطهاد له وهو بذلك يحاول أن يستدر عطف الوالدين ويجـد لنفسه مبررا لعدم نجاحه في دروسه .

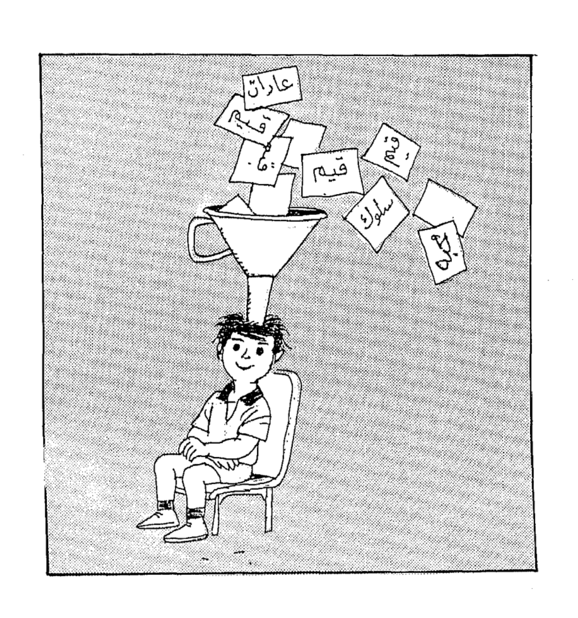
وهذا النوع يجب الاسراع في علاجه بتفهم الحاجات النفسية التي يخدمها ، ومحاولة اشباع هذه الحاجات بالطرق الواقعية المعقولة ، وإلا نشأ الحدث على المبالغة في كل شيء ، واختلاق الأقاويل مما يؤثر على مكانتـه الاجتماعيـة في الكبر .

وقد يكذب الطفل بغرض الاستحواذ على الاشياء المختلفـة كالنقـود ، او الحلوى او اللعب ، كما قد يكذب لأنه يخاف العقاب فيلصق ما يتهم به بطفل آخر بريء وكل هدفه من الكذب الدفاع عن نفسه ، كما قد يكذب الطفل تقليدا للآباء والامهات الذين يكذبون على أطفالهم في كثير من الامور .



الفصل الثاني

آباء وأبناء


عادات
قيم
قيم
سلوك

رسالة إلى ابني !

بقلم : الدكتور فاخر عاقل

بني :

لعلك تذكر الرسالة التى كتبتها الى اختك حين كانت في عمرك ، تلك الرسالة التى طلبت قراءتها وتمنيت علي أن أكتب اليك مثلها ، فوعدتك أن أفعل حين تبلغ عمرا يقارب عمرها ، وها انذا اكتب اليك هذه الرسالة اليوم ما دمت قد ودعت أمس العام الثالث عشر من عمرك المديد السعيد ـ ان شاء الله ـ وتهيأت لاستقبال عامك الرابع عشر .

انك الآن تودع طفولتك وتستعد لاستقبال رجولتك ، وسيدوم استقبالك اياها أعواما لن تقل عن ثلاثة ، وقد تصل الى الخمسة او الستة . انك تبدأ فترة يسميها علماء النفس والتربية فترة المراهقة ، وهى فترة يعتقد الكثيرون انها صعبة عسيرة خطيرة فيقلقون لها ويخشونها ، ولا تنتبه اليها والى شانها الأكثرية الساحقة من الأهل فيتركونها للصدفة فلا يهتمون بها ولايعنون ، واعتقد انا انها فترة مهمة ، وليس من الضرورى ان تكون شاقة

ولا عسيرة إذا تنبه الأهل والمربون الى اهميتها ، واتخذوا منها موقف الجد المتفائل ، والتوجيه الذكي الذي يتسم بالهدوء وسعة الصدر وحسن الفهم ولباقة الاشارة .

وضمن هذا الاطار اكتب اليك اليوم آملا ان أدلك على الطريق السوى ، وان أشير عليك بالنهج القويم ، وافتح عينيك على حقائق الحياة . ثم أتركك لذكائك وعقلك وقدرتك ، ايمانا مني بأن مصير كل انسان إنما يكون من صياغته هو ، فهو حق له وواجب عليه .

تغير الزمان وتطور العمر

بني :

أول ما احب ان افتح عينك عليه حقيقة هامة وأساسية : ألا وهى تغير الزمان وتطور العمر .

والحق أن الزمان كان دائم التغير أبدى التطور ، فليس في هذا ـ اذن ـ جديد . لكني اريدك أن تلاحظ أن تطور زماننا غير تطور الأزمنة السابقة ، وان تغير عصرنا متسارع بشكل يكاد يدير الرأس ويضيع التوازن ، والويل كل الويل لمن لا يدرك هذه الحقيقة ، ولا يتواءم معها .

إننا في هذه الايام نستقبل مع شروق كل شمس تغييرا جديدا ، لا في معارفنا عن الحياة حولنا ، ولا في المخترعات والمكتشفات والتطبيقات العلميةالتي نعيش في نعمائها ، ولا في الحقائق التى نعرفها عن ذواتنا فحسب ، ولكن وبالاضافة الى ذلك كله في المواقف الاجتماعية والمفاهيم الانسانية والعلاقات البشرية ، وهى أمور ـ لو علمت ـ بالغة الخطورة .

ولعلك قد سمعت من يقول : إن ناموس الحياة تنازع البقاء ، وإن البقاء في هذه الحياة الدنيا للأصلح (والأصلح قد لايعنى الأحسن اخلاقيا أو الأنسب مثاليا ، وإنما الأقوى جسدا والأوفر قوة) .

وحقيقة تنازع البقاء هذه واقع لايمكن نكرانه ، وحتم لامجال لتجاهله ، لكنه يبقى ناقصا ومشوها ومرذولا اذا لم تكمله بحقيقة هامة هي الأخرى ، وأعنى بها قدرة الانسان على التكيف ومقدرته على التواؤم مع الحياة ، وليس معنى هذا أن المخلوقات الاخرى - او بعضها على الاقل - عاجزة عن عملية التكيف هذه ، لكن معناه ان الانسان هو أقدر المخلوقات على التكيف ، وأذكاها في التعرف على حقيقة ما يحيط به ، وأبرعها في محاولة التوفيق بين ذاته وبين بيئته او بين بيئته وبين ذاته .

وانى اذ اذكرك بهذه الحقائق احب لك أن تعلم أن سلاح الانسان الأمثل في عملية التكيف هذه هو قدرته على أن يعلم وأن يكتشف وأن يخترع .

ومن هنا كانت الحقيقة البارزة الأساسية الهامة التى تقول : إن العلم والتعلم والتعليم هى الأقانيم الأساسية للحياة الانسانية المتطلعة ابدا الى ما هو أحسن .

ومن هنا ايضا كان سر قوة الانسان الحديث ، وتقدمه السريع في قدرته على التعلم ، وقدرته على التعليم ، وقدرته على دفع العلم الى امام ، يتعلم هو ويعلم اجياله اللاحقة ، ويتقدم بالعلم الى مزيد منه .

وساعود بك الى حديث العلم هذا عما قليل في موضع آخر مختلف بعض الشيء .

لاتتنازل عن حريتك

أى بنى :

وفي بنائك حياتك ورسمك لمصيرك أحب لك ان تكون واعيا ذكيا فلا تقبل ان تساق بالصدفة وان تدفع بالحوادث الطارئة ، وان توجهك تصاريف الزمان .

لقد منحك الخالق - عز وجل - عقلا وأعطاك حرية ، ثم قال لك خض

معركة الحياة فلماذا تتخلى عن هذين السلاحين الماضيين ؟! لماذا تعطل عقلك وتتنازل عن حريتك ، وتترك نفسك ريشة تتقاذفها عواصف الحياة ورياح الصدف ؟ أفد من عقلك في صياغة أهدافك في الحياة ، واحرص على حريتك في اختيار طريقك فيها واجهد في سبيل ذلك ودافع عنه .

صغ اهدافك في الحياة وحددها ، وارسم نهجك إلى هذه الأهداف واتبعه ، وحاذر في هذا كله أن تكون ضيق التفكير جامد النهج ، بل تحل بالمرونة واللباقة اللتين توصلانك الى أهدافك من خير الطرق عائدة ، وأكثرها فائدة ، غير مفرّط في خلق قويم او حق صحيح أو واجب أكيد ، ولا متجمد على طريقة واحدة وقالب ضيق .

واعلم أن صياغة الأهداف علم وفن ، وأن انتقاء الطرق الموصلة للاهداف عملية تحتاج الى قدر كبير من ذكاء وتفكير وتدبير . ثم اعلم ان الاهداف الصحيحة لا يمكن أن تكون جامدة ولا متحجرة ، وان الطرق السليمة لا يمكن ان تكون وحيدة ولا خيالية . ولا تنس أن تعتصم في عملك هذا بالمثل الأعلى والخلق القويم .

ولعلك محتج بأن صياغة الأهداف أمر صعب ، وأن انتقاء الطرق الى هذه الأهداف عمل شاق ، وأنا معك في هذا الاحتجاج لكن من عملي وعمل أمك وعمل مدرستك أن نعينك في هذا ، ثم إن من أهم ما يجب ان تعيه في هذا الخصوص أن الأهداف منها القريب ومنها البعيد ، وإن الطرائق فيها الواضح البسيط ، وفيها المعقد الغامض ، وحسبك من هذا جميعه أن تعتاد تحديد هدف ورسم طريقة ، والجهد في سبيل تحقيق هدفك بطرائق شريفة ، ثم حسبك أن تذكر أن الأهداف تعلو وتهبط ، وأن الطرائق تتغير وتلتوى أو تستقيم ، وأن العاصم من هذا جميعه والمعين فيه كله نية حسنة وضمير حي وخلق قويم .

عصر العمل

ولدى !

لو سألتنى عن أهم صفة من صفات هذا العصر الذى تعيش فيه لقلت لك غير متردد إنه عصر العمل ، ولو سألتنى عن اهم مكتشفات هذا القرن الذى شهد مولدك ، وأرجو ألا يشهد موتك ، لقلت لك إنها قيمة العمل : قيمته في بناء حياة الفرد ، وقيمته في بناء المجتمع ، وقيمته في بناء الانسانية .

ولعلك ملاحظ أننا في زمان لم تعد للوراثة فيه قيمة ، وأعنى بالوراثة الأملاك أو وراثة الثروة او وراثة المصنع أو وراثة اللقب أو غير ذلك من اشكال الوراثة الاجتماعية . إن قيمة الانسان في عصرنا هذا فيما يحسن عمله .

والحق أن العمل هو الطريق الأوحد لتنمية الشخصية البشرية ، وصقل الطبع الانساني ، وإبراز المواهب الفردية وتمتيع الانسان بالسعادة والرضى ، فأول عملك المقبل جل تفكيرك وجماع عزمك . فكر فيما تحب أن تكون في هذا المجتمع وحاول أن ترى طريقك الى المهنة التى تحب أن تمتهن ، وليكن اختيارك لعملك على أساس من (١) قدراتك و (٢) ميولك و (٣) قيمة هذا العمل لمجتمعك .

ولست أرمى أن تختار مهنتك المقبلة منذ الآن فأنا أعلم أن الوقت مازال مبكرا ، وأن إمكاناتك في هذا العمر لمثل هذا الاختيار محدودة . ولكنى قصدت أن انبهك الى هذه المشكلة وأهميتها ، وأن أفتح باصرتك على الأمر منذ هذه اللحظة .

وقد تقول لى إن من المتفق عليه أن اكون مهندسا ، لكني منبهك الى ان هذا الاتفاق كان حديث طفولة ، وانه يحسن بك أن تأخذ الامر منذ الآن مأخذ الجد لئلا تصدم في آمالك فيما بعد .

ومن واجبى ان أفتح بصيرتك على حقيقة هامة جدا فيما يخص عملك ،

إن اتقان العمل لايمكن أن يكون صدفة ، ولما كان اتقان العمل هو سر النجاح فيه والرضى عنه فإن اتقانك لعملك ـ أيا كان هذا العمل ـ يقتضيك جهدا وعرقا وتعبا . وقديما قيل إن ٩٩٪ من النبوغ عرق جبين ، فاجهد اذن في سبيل اتقانك لعملك .

ولا تنس أن عصرك الذى تعيش فيه عصر علم وثقافة وتخصص ، وأن مجتمعك الذى ينتظرك لم يعد ينظر بكثير من الرضى الى أولئك الذين لاتقوم معرفتهم بعملهم على اساس من ثقافة عامة عميقة واسعة وتخصص علمي دقيق . واذن فلا غنى لك في عملك واتقانك اياه عن هذا التخصص الدقيق القائم على أساس واسع من ثقافة صحيحة ، وإنه لعمرى أمر شاق ولذيذ .

وهنا دعنى اكشف لك سرا خطيرا ، سرا طالما بحث الانسان عنه بعيدا وهو في متناول يده وأعني به سر السعادة . السعادة ايها الحبيب في القيام بالعمل الذى تحب على الوجه الأكمل وبالجهد اللازم .

حذار ان تظن أن السعادة تطرق باب الكسلان ، أو تأتى عن طريق الاعمال السهلة أو تنبع من الأعمال الروتينية . وهكذا فاذا أردت سعادة حقيقة وجب عليك : أن تجهد في القيام بعمل محبب وعلى وجه صحيح . وبذلك فقط تكون فنانا وتكون سعيدا وتكون قبل هذا وبعده مواطنا صالحا وانسانا خلوقا .

مثل عليا

وما دام الحديث قد وصل بنا الى الاخلاق فلنقف عندها بعض الوقت ، إنها تستحق الكثير من عنايتك وتفهمك وتدبرك .

ميزة الانسان الكبرى انه يستطيع ان يكون مثاليا ، ولعنة الانسان الكبرى أن يتخلى عن مثاليته . وإنى لا أغشك حين اقول لك إن المدنية الحقة ، وإن الثقافة الصحيحة في التقرب الدائم من المثل العليا والتطلع

السرمدي الى المثل الأعلى . ولعلك تعلم أن المثل الأعلى هو الله عز وجل ، وأنه إذا لم يكن مفروضا في الانسان أن يبلغ مرتبة الإله فإنه مفروض فيه أن يتطلع اليه دواما ، يتطلع اليه في عمله وفي علمه ، في نيته وفي جهده ، في سره وفي علنه .

وما كانت الاخلاق ولا يمكن أن تكون مجرد قواعد وأوامر وزواجر ، وإنما هي قبل كل شيء عقيدة وايمان ونية وموقف . ولا تفهم من كلامي ابدا أن تستهين بالقواعد والأوامر والنواهي ، ولكن افهم أن الاعمال بالنيات ، وأن الخطا في طبيعة الانسان كالصواب ، وأن الخلق الحسن في سلامة النية وحسن الطوية وطيب المعاملة . وكنت قد اشرت على أختك بقاعدة تعصمها من الزلل حين قلت لها ، لا تفعلي في السر ما تستحين منه في العلن ، وعليك أشير بقاعدة أخرى تعينك اذا أضفتها الى سابقتها على التزام الخلق الحسن ، ألا وهي محاسبة النفس .

حاسب نفسك ، انظر في أعمالك واقوالك ، دقق في مواقفك ودوافعك وقف من هذا كله موقفا موضوعيا لايقبل التبرير ولا يلتزم التزمت .

عندي أن ميزة الانسان على كل ماعداه ، وان طريق اتصاله بالله عز وجل هي قدرته على محاسبة ذاته ، استطاعته أن يقول لذاته أخطات ، ومقدرته على ان ينظر في أعماله واقواله فينقدها نقد المتجرد . ولقد قال رسول الله ﷺ حين عودته من غزوة بدر « عدنا من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر » فقيل له « وما الجهاد الاكبر يارسول الله ؟ » قال : « جهاد النفس » .

على أني لا أحب لك ان تقسو على نفسك فتسرف في لومها كما لا أحب لك ان تتراخى معها فتخترع لها المبررات والمسوغات .

وفي حديثي اليك عن الاخلاق اريدك على أن تفهم أني استنكر أشد الاستنكار تفريق بعض الناس بين الاخلاق العامة والاخلاق الخاصة ، إني مؤمن انهما وحدة لا تتجزا ، فلست اقبل اطلاقا أن يكون الانسان كاذبا

ووطنيا في آن معا ، ولست أقبل أن يكون الانسان ممن يقدمون على الاعتداء على الأعراض وفاعل خير .

ولست أنسى أن اشير هاهنا الى أن من صميم الاخلاق الفاضلة أن يتطابق قولك وعملك في حدود الاستطاعة البشرية . وأن بتوازن عدلك ورحمتك ، وان يتعاون حقك وواجبك ، وأن تتناسق حريتك وحرية الآخرين وهكذا . .

ثم إني أحب لك أن تميز بدقة وذكاء بين المفاهيم الاخلاقية والمفاهيم الاجتماعية . صحيح أن الخلق القويم يجب أن يكون جوهر المفهوم الاجتماعي ولكن هذا لا يتم دوما مع الأسف ، وصحيح أن المجتمع السليم هو المجتمع الاخلاقي ، ولكن الواقع يكذب هذا في بعض الأحيان . ومن هنا كانت رغبتي في أن تحدد علاقتك بالمجتمع تحديدا ذكيا واعيا ، لا تخضع للمجتمع خضوعا اعمى ولا تثر عليه ثورة رعناء . إقبل ما فيه من صحيح أو ما تعتقده صحيحا ، واعمل على اصلاح ما فيه من قبيح أو ما تراه قبيحا وتوسل الى ذلك بالموعظة الحسنة والقدوة الصالحة والصبر الطويل .

ابني الحبيب :

هذا الذي قلته عن الاخلاق يوصلني الى الايمان . ذلك بان الايمان جوهر الخلق ودافع العمل ومعيار النجاح .

وحين احدثك عن الايمان اقصد الايمان بمعناه الواسع العميق ، فالذي لا يؤمن لا يعمل . والذي لايؤمن لاينجح ، والذي لايؤمن لايصيب .

والايمان بهذا المعنى يربط بين الانسان وخالقه وبينه وبين أهله ، وبينه ومجتمعه ، وبينه وبني الانسان .

ثم ان الايمان بهذا المعنى يدفع الى العمل ، ويحفز الى النجاح ، ويحض على الثبات ويهون المتاعب ويذيب المصاعب .

واخيرا فان الايمان بهذا المعنى يساعد على التسامح ويمكن من التفهم ، ويقلل من الزلل .

آمن يا بني بالمثل الأعلى وآمن بوطنك وآمن بالانسانية ، آمن بها جميعا مجتمعة فيك ، وآمن بذاتك في خدمتها ومن اجلها جميعا .

آمن بالمثل الأعلى دون تعصب ، وآمن بوطنك دون احتقار لأوطان الآخرين ، وآمن بالانسانية بوصفها محبة وتآخيا وتعاونا ، وآمن بنفسك انسانا تخدم المثل الأعلى وتخدم الوطن وتخدم الانسانية فتخدم نفسك ، واذكر أن الانسانية المشروعة لا تتنافى مع الغيرية المقبولة ، وأن الوطنية الصحيحة هي لب الانسانية الحقة .

آمن بالانسان فيك وآمن بالانسان في غيرك ، امن به قاطعا النظر عن اللون والعرق والجنس والمحتد ، آمن به كائنا اخلاقيا ، رجلاه على الارض وبصره الى المثل الأعلى .

الايمان بالعقل

يا فلذة الكبد :

ومن ايمانك هذا انطلق للايمان بالعقل ، العقل المطلق والعقل البشرى المحدود ، آمن بما وصل اليه هذا العقل من علم ومعارف ، من حضارة وثقافة ، من مكتشفات ومخترعات ، من نظر وتطبيق .

آمن بعقلك بوصفه قبسا من العقل المطلق قادرا على أن يصل بك الى مزيد من المعرفة ومزيد من الاتساق ومزيد من الشغف بهذا الكون والاخلاص لهذا الانسان .

صحيح أن العقل البشرى ما زال يحبو ولكنه سيقف على قدميه وسيركض وقد يرتفع في اجواء الفضاء نحو السماوات العلى .

وصحيح ان علم البشر مازال في بواكيره لكنه في تقدم متسارع وتكامل متزايد .

لكن . . من واجبك ان تضبط المعرفة بالخلق وان توجه العلم بالحكمة .

ثم لا تنس أن العلم الصحيح موقف قبل ان يكون معرفة ، فأنا اريد أن تتخذ من مشاكلك اليومية وقضاياك الكبرى موقفا علمياً ، يتسم بحب الحقيقة أولا ، وبالتواضع ثانيا ، وبالرضوخ للحق ثالثا .

أريدك ان تتخذ من هذا الكون وما فيه ومن فيه موقف المختبر المتعلم ، الباحث عن الحقيقة ، القانع بها ، العامل على نشرها .

واذكر أن خير العلماء المتواضع ، وأن الذى يعرف أنه لا يعرف إنما يعرف كثيرا ، وهو في كل الاحوال على الطريق الصحيح الى المعرفة .

أمور الجسد

ولدى العزيز :

كان الذى حدثتك عنه حتى الآن أمورا مجردة ، أمورا أقرب الى مطالب النفس منها الى مطالب الجسد ، لكننى مؤمن بالقول الماثور : « إن لنفسك عليك حقا ، وإن لجسدك عليك حقا » ، فلأحدثك اذن عن بعض أمور الجسد .

صحتك بابني شرط رئيسي لتحقيق جميع ما حدثتك عنه ودعوتك اليه حتى الآن : المريض يعجز عن تحقيق اهدافه ، والعليل قاصر عن العمل ، وطلب العلم جهد ومشقة ، والتزام أوامر الاخلاق ونواهيها يكلف الجسد أعباء جساما ، وخدمة الوطن والانسانية تقتضى الجسم عرقا وكدا ، فاحرص على التمتع بالصحة الجيدة .

وصدقنى حين أقول لك إني لم أسمع في الأقوال المأثورة أجمل من القول بأن « الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى » . ونصيحتى اليك أن تتلمس هذا التاج بين حين وآخر ، وفي سن الشباب بالذات .

احرص على صحتك منذ هذا السن واعن بها العناية الكافية والمناسبة ، وتطلع منذ الآن الى ما بعد الاربعين وما تجره الاربعون من مشاكل صحية

ولو سالتنى عن سر الصحة الطيبة لقلت لك انه الاعتدال والقصد . الاعتدال في الطعام والشراب ، والقصد في السهر والجهد والتوفيق بين مطالب الجسد ومطالب النفس بحيث لا يطغى جانب على جانب .

ولا يفوتني ان اشير هنا الى أمور هامة جدا في حفظ الصحة ، ألا وهى اللهو واللعب والاستجمام والراحة والرياضة والهوايات .

واذا كنت لا أحب أن أطيل عليك هذا الحديث عن هذه الامور فانى على وجه التأكيد أحب أن اشير الى المفهوم الصحيح للاستجمام ، فالاستجمام ليس كسلا ولا تسكعا وإنما هو لعب منظم مفيد ولهو منشط بريء ، ورياضة منعشة مجددة للعزم ، فهل في حياتك ما يكفى من هذا ؟!

إلعب يا بنى ، العب في كل عمر واستجم في كل مناسبة ، وجدد قواك بالرياضة وإلا فان هذه الآلة الرائعة المسماة جسدك ستفنى وتختل .

انا أعلم أن مجتمعنا يفتقد مجالات اللعب واللهو والاستجمام ولذلك فنصيحتى ان تخلق هذه المجالات لنفسك وان تتعاون مع غيرك في ايجادها .

أما الهوايات فانا اعرف ان لك بعضها من مثل القراءة وجمع الطوابع ولكن دعنى أقول لك إنهما ليسا كافيين . إنهما بعيدان عن صفة الرياضة وهذا نقص كبير فيهما . لا تفهم من كلامى انى أدعوك لتركهما ولكنى أدعوك لتكملتهما بهوايات رياضة منشطة .

هذا ولا تنس ان تتعلم كيف تسترخى ، كيف تتخلص من توترك العصبى وتوترك الجسدى . إن فن الاسترخاء يحتل اليوم في الطب النفسي مكانا هاما جدا .

ولا تنس أن تكون مرحا متفائلا ، فالمرح علاج للهموم والتفاؤل تعويذة ضدها . وحاذر أن تخلط بين المرح والتهريج وبين التفاؤل والعباطة .

النجاح والفشل

ايه بني :

ومن حقك علي أن أعرض في حديثي الطويل هذا اليك لمسالة المال وما يتصل بها من مسالة النجاح والفشل .

المال في الأصل يابنى وسيلة للتعامل بين الناس وتسهيل حصولهم على حاجاتهم دون اللجوء الى نظام المقايضة الذى كان وما زال سائدا في المجتمعات البدائية ، واذا كان المال قد أصبح عند بعض الناس غاية يبتغونها من أجل ذاتها ، واذا كانت بعض المجتمعات قد جعلت من المال رمز القوة ومدار الفخار فإن أمثال هذه المجتمعات وأولئك الناس مرضى . ما في ذلك شك .

هذه واحدة ، والثانية هى ان الغنى في الأصل يحمل معنى الاستغناء عن الناس وعدم الحاجة اليهم . وبديهى ان المقصود بالاستغناء هنا هو عدم الحاجة الى السؤال وليس عدم الحاجة الى تبادل الخدمات والعون .

واذن فأنت غنى حين تحصل على كفايتك ، وأنت غنى حين تستغنى عن سؤال الناس . لكن مسالة الكفاية هذه مسالة نسبية فردية ومتطورة . فقد لا يكفيك إلا ثلاثة أضعاف ما يكفى غيرك ، وقد لا يكفى غيرك الا مائة ضعف ما يكفيك . ولذلك قيل : ان القناعة كنز لا يفنى ! على ألا تفهم من القناعة الخمول والكسل والتقاعس ، وانما تحديد الحاجات والتمييز فيها بين ما هو اساسي ضرورى وما هو أقرب الى الفخفخة والطنطنة منه الى الحاجة الحقيقية .

على انى أحب أن لا تسيىء فهمى فتعتقد انى أريدك أن تحرم نفسك وعيالك الكثير من الرفاه ، لكن بعض الرفاه مشروع ومفيد ولازم ، وبعضه سفه وخيلاء وفراغ عقل ، فاحرص على الرفاه المفيد المشروع ودع سفاسف الامور . وهكذا فانا لا أدعوك للزهد أو الكسل او (الدروشة) وانما أدعوك

الى القاعدة القرآنية الصحيحة التى تدعوك الى ان لا تبسط يدك كل البسط ولا تغللها الى العنق . أدعوك الى موقف منزه عن كل من الافراط والتفريط بعيد عن البخل والاسراف .

أى ولدى :

وبهذه المناسبة أحب أن أعرض لمظهرك ووجوب حرصك عليه بعد أن اشرت في الفقرات السابقة الى مخبرك ووجوب تنقيتك اياه من الشوائب .

ليكن حرصك على مظهرك نابعا من ينابيع ثلاثة هى بالتحديد :

١ ـ النظافة و ٢ ـ البساطة و ٣ ـ الرجولة . وصدقنى حين أقول لك ان النظافة ، النظافة المعقولة غير المهملة ولا المبالغ فيها هى أساس حسن المظهر ، وتاكد من ان الجمال في البساطة ، وآمن بان رجولتك خير ما يزينك . فابتعد اذن عن كل ما ينقص رجولتك واحرص على بساطة المظهر ونظافته ، وتاكد انك بذلك واصل الى الاناقة الحقة .

وبالمناسبة فان هذه الامور على صلة وثيقة بنجاحك وفشلك في الحياة ، وحصولك على المركز اللائق بك وبأمانيك ومطامحك .

وحديث النجاح والفشل يقتضي تحديد معناهما الدقيق لئلا تلتبس عليك الامور ونستبهم عليك الطريق .

بعض الناس يقيسون نجاحهم ، أو نجاح غيرهم ، بما يملكون من مال أو يصيبون من جاه أو يشغلون من مركز أو يحملون من لقب .

ولكنى أجد للأمر معنى آخر ومدلولا مختلفا ، فاسمع عنى ما أرى في النجاح والفشل : أنت ناجح بقدر ما أنت راض عما حققت من أهدافك . فاذا كنت قد أحسنت تحديد اهدافك،وعنيت بانتقاء الوسائل الصحيحة الموصلة اليها وحرصت على ما سبق أن أشرت اليه من وجوب توفر المرونة والسعة في هذه الوسائل وتلك الاهداف ، ثم بذلت ما استطعت من جهد فأنت ناجح وان لم تنجح ، ذلك لأنك ترضى عن نفسك وعملك وجهدك وفي هذا الرضى ـ كما أعتقد ـ غاية النجاح .

على انى أزعم انك اذا قمت بما اشرت اليه من أعمال وعلى النحو الذى وصفته لك فان فرص الفشل تقل الى حد بعيد .

وايا ما كان فانى أحب ان يستقر في ذهنك أن النجاح والفشل موقفان وصفتان عاطفيتان وأمران يتصلان أوثق الصلة بشخصية الانسان .

ثم من ذا الذى يستطيع القول بان الفشل مضر ؟!

الحق ان الفشل مضر في حالة واحدة وهى حالة ذوى النفوس الخائرة والهمم المتقاعسة ، أما ذوو النفوس الكبيرة والهمم العالية فان شيئا من فشل مفيد لهم لأنه يشحذ هممهم ، ويحفز قدراتهم ويتحداهم فيندفعون الى أهدافهم لا يلوون على شيء .

ومهما يكن من امر فاذكر ان اللذة في الجهد ، وان السعادة في التعب ، وان هذه السعادة ما كانت قط من نصيب الكسلان ، وان النجاح المهين نجاح محتقر حتى من صاحبه .

حديث عن الجنس والحب

بنى الحبيب :

كلمة أخيرة عن أمر هام جدا ، أمر يتصل بجسدك كما يتصل بنفسك ، ويتصل بفرديتك كما يتصل بمجتمعك ، ويتصل بحيوانيتك كما يتصل بانسانيتك . وأعنى به مسالة الجنس وما يتصل بها من حب وزواج وتكوين عائلة . فاستمع اليَّ احدثك عنها جميعا حديث الاب الشفيق والناصح الخبير بحكم سنى واختصاصي .

احب لك أن تعلم أولا : أن الجنس حاجة من حاجات الجسد تماما كالحاجة الى الطعام والشراب والراحة وما اليها من حاجات ، لكن بين الجنس وسواه من حاجات الجسد فوارق مهمة يجب أن لا تغيب عن بالك ، منها ان الجنس أضعف الحاجات نسبيا . وكل الدراسات العلمية التى أجريت على هذا الموضوع تؤكد ذلك ، ويكفى لكى تتاكد مما اقول ان تذكر ان الجائع أو

العَطِش أو التَّعِب لايشعرون بالحاجة الجنسية . ولذلك فلا صحة لما يزعمه بعض العلماء وكثير من العوام وجمهرة من المراهقين المغرر بهم من أن الميل الجنسي أصل واساس ، وان كل الميول الاخرى تسير في ركابه .

وأحبك أن تعرف ثانيا : ان الطبيعة بتنظيمها المحكم تستطيع ان تتكفل بالميل الجنسي وارضائه بطرق طبيعية بريئة سليمة بحيث يصل الشاب أو الفتاة ليلة الزفاف بريئين طاهرين نقيين . ولا ضرورة اطلاقا لما يزعم من ضرورة التجربة الجنسية للزواج السعيد .

وأحبك ان تعرف ثالثا : ان ميزة الانسان عن غيره من الحيوانات أنه يستطيع ـ اذا شاء وتوفرت له التربية الطيبة والظروف المناسبة ـ أن يضع الجنس في خدمة الحب وليس العكس . وهذا أمر في منتهى الخطورة والأهمية ، إن الذى لا يفعل ذلك قمين بان ينقلب الى حيوان صرف واعيذك من أن تطغى حيوانيتك على انسانيتك .

وأحبك أن تعرف رابعا : أن الميل الجنسي ممكن التصعيد ، أى أن في امكان الفنون والرياضة والهوايات أن ترفع من الصفة الحيوانية للجنس الى مستوى الصفة الانسانية المثالية . ان الشعر والأدب والرسم والتصوير والرياضة تستطيع أن ترفع ميلك الجنسي من مستوى العزيزة الحيوانية الى مستوى المثل الاعلى الانسانى . .

وأرجو ألا تفهم عنى أنى أدعوك لكبت ميولك الجنسية والقضاء على حنينك الى الجنس الآخر ، ولكنى أدعوك فقط أن تحتفظ لزوجك بما تريدها ان تحتفظ به لك . وهذا أمر ممكن ومفيد ، بل وضرورى .

واسمح لى أن أقف معك وقفة قصيرة عند الحب ، وانا أعلم علم اليقين ان حديث الحب قريب الى نفوس المراهقين وان كان جديرا بان يخيف بعضهم ، وأنا أعلم بعد ذلك أنك خجول تستحى من مثل هذا الحديث ولكنى اعتقد جازما ان من واجبى ان احدثك عن هذا الحب الذى قيل فيه اكثر مما يجب وقيل ما لايجب .

مرة أخرى أنا أومن أن من حقك أن تحب وأن تحب ، وانا أعلم علم اليقين انك باحث يوما عن حب يختلف عن حب أمك وأبيك واختيك لك ، وانك مشوق الى حب يرضي رجولتك ويكمل نفسك وينتهى بك الى ما يجب أن تنتهى اليه من تكوين أسرة تقاسمك اعباءها فتاة احلامك ويزينها لكما بنون وبنات .

لكني أريد أن أقول لك إن الحب شيء مقدس ، إنه الجزء الذى وهبه الله للانسان من ذاته العلية ، ذلك بأن الله محبة . فلا تعبث بالحب ولا تله ، ولا تستعجله ولا تخشه ، ولا تنس أنه مسؤولية كبرى نحو ذاتك ونحو شريكك ونحو أولادك ثم نحو مجتمعك وانسانيتك .

ثم تأكد ان الحب الصحيح لا يتنافى مع العقل الصحيح والوعى الصحيح ، تأكد أن الحب الذى سيكتب له أن يعيش ويزدهر إنما هو الحب الذى يأتلف فيه العقل بالعاطفة والذكاء بالارادة ، والفهم بالاحترام ، وأما ما عدا ذلك فنزوات عابرة قد تخلف من الحسرات اكثر مما تتركه المسرات ، وشهوة خطيرة قد تكون لها من النتائج ما ليس بحسبان الشباب الجموح .

وغاية الحب لا يمكن إلا أن تكون الزواج . الزواج العاقل المتكافىء ، القائم على أساس من ادراك وعاطفة وارادة .

والزواج يا بنى مسؤولية خطيرة : مسؤولية نحو ذاتك ومسؤولية نحو زوجك ومسئولية نحو ابنائك ثم مسئوليه نحو مجتمعك وانسانيتك فانظر من تتزوج وكيف تتزوج ومتى تتزوج .

على أنى مريدك أن تفهم أن نجاح زواجك ، من عملك أنت قبل كل انسان ثم من عمل شريكك وظروفك ، فاذا أردت لزواجك أن ينجح اجهد في سبيل ذلك .

واذكر بعد هذا أن الزواج شركة ، وأن الزواج حب ، وأن الزواج تدبير وتفكير ، وان الزواج عمل دائب صابر على الفهم والتفهم والتفاهم .

فاذا تم كل هذا من جانبك توكل على الله .

بني :

إن المرأة التى سوف تشاركك حياتك مخلوق من نوع خاص يختلف عنك بعض الشيء ، متساو معك في الكرامة الانسانية وفي الحقوق والواجبات فلا تغفل عن ذلك كله لحظة واحدة .

ولست أحب لك أن تعتقد ثانية واحدة بما يزعمه البعض من أن الزواج شر لا بد منه ، بل أؤكد لك أن انسانيتك لا تكمل الا بزواجك ، وأن الأبوة خير متعة في الحياة ، وان الزوجية هى بداية الغيرية ، وان الانسان الذي لا يعيش لسواه ، لبيته ، لعائلته ، لزوجه وأولاده انسان ناقص الانسانية .

وما دام ذلك كذلك فان من واجبك أن تفهم شريكك وأن تحبه وأن تعطف عليه ، وأن تشعر معه ، وأن تعمل على إسعاده .

واذا كان بديهيا أن يبادلك حبا بحب وعطفا بعطف فضروري أن تقوم أنت بما عليك وان تترك له أن يقوم هو بما عليه .

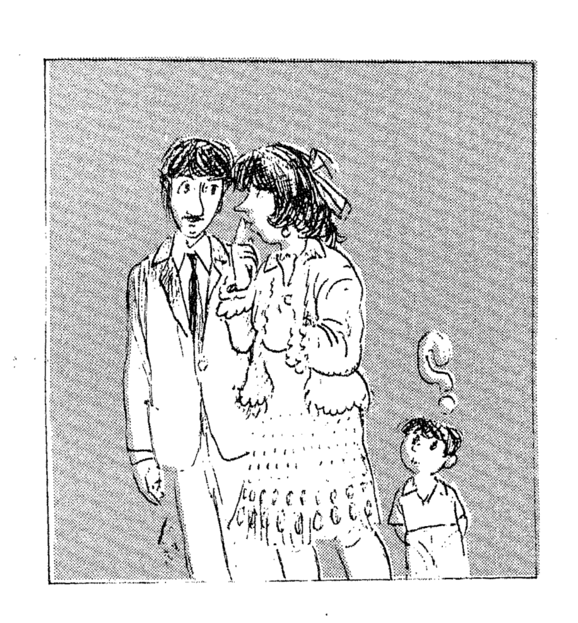
وبعد . . .

وبعد أيها الولد الحبيب :

لقد أطلت عليك ولكنني أحببت ان احدثك عن كل ما اعتقدت ان من واجبى أن أبسطه لك وأن أبصرك به . وإنى لأعلم علم اليقين أن حياتك ملكك وانك أنت الذى ستحياها وبطريقتك ، ولذلك فما أردت قط أن أفرض عليك مفاهيمى وطريقة تفكيرى ونمط حياتى ، معاذ الله .

ولكنى اعتقد أن من واجبى أن أضع خبرتى تحت تصرفك ، وأن أنفض بين يديك آرائى ونظراتى ، فانظر فيها واعمل عقلك وانتق لنفسك ما يتسق مع تفكيرك انت وطريقتك الخاصة في الحياة .

متعك الله بالسعادة ، وجنبك مزالق الحياة ، وعصمك من الزلل ، وجعلك عضوا نافعا لمجتمعك ، لائقا بانسانيتك .



فَهمُ الآبَاءِ أنفسَهُمْ وَفهمُهم أبناءهم

بقلم : الدكتور علي احمد ع!

يعيش الأبناء مرحلة طفولتهم وجزءا من شبابهم مع آبائهم . وغالبا
يكون أثر الآباء عليهم كبيرا . فالطفل يعيش السنوات الأولى من حياته في
البيت قبل التحاقه بالمدرسة ، ويكون معظم اتصاله في هذه السنوات منحصرا
في الوالدين والاخوة والاقارب والجيران والزوار . والطفل في هذه السنوات
وعن طريق التقمص يمتص الكثير من اتجاهات الوالدين وقيمهم ، كما يمتص
الكثير من العادات وأساليب السلوك . وهذه النواحي بعد اكتسابها يكون من
الصعب تعديلها أو تغييرها في المستقبل .

ادراك الطفل لنفسه

والعلاقة بين الطفل ووالديه تؤثر تأثيرا كبيرا على ادراك الطفل لنفسه ،
فمن خلال آراء الوالدين فيه ، ومن خلال ما يسمع من مناقشات في البيت
يذكر فيها اسمه ويكون طرفا دون أن يأخذ جانبا عمليا فيها ، تتكون فكرة
الطفل عن نفسه وعن قيمته ، وهذه الفكرة يحملها الطفل معه لسنوات طويلة

العربي العدد ١٢٠ نوفمبر - تشرين الثاني ١٩٦٦م .

من عمره . فقد يشعر بأنه انسان له قيمة وأنه مطلوب ومرغوب لدى والديه والبيت الذى يعيش فيه ، وقد يشعر على العكس من ذلك بضآلة قيمته وبأنه موجود في بيت ليس له مكان فيه . والأمر يتوقف على آراء الوالدين ووجهة نظرهما وسلوكهما تجاه الطفل . وهذا يحدد مدى شعور الطفل بالأمن ، الأمر الذى يؤثر على سلوك الطفل فى المستقبل ويؤثر على علاقاته بالآخرين .

والطفل يحقق قدرا كبيرا من نموه العقلي والاجتماعي والجسمي والنفسي في السنوات الأولى من حياته . ولا شك أن نواحي النمو السابقة للطفل تتأثر تأثرا كبيرا بسلوك والديه وعلاقتهما به واتجاهاتهما نحوه .

الانسان عند الولادة

من الحكم الالهية البالغة ، أن الانسان لحظة ولادته يكون أضعف المخلوقات . انظر الى دودة الارض وهى من الحشرات الدنيئة تكون ساعة وجودها على ظهر الارض مهياة لكي تقوم بدورها ، كما أن أعضاءها تكون قادرة على القيام بوظائفها . ثم أنظر الى الطائر الصغير حين يخرج من البيضة لاتكاد تمضى على خروجه أيام قليلة حتى يكون قادرا على التقاط الحبوب والطيران وممارسة أعمال القنص والدفاع عن نفسه . وهكذا أينما قلبت وجهك في مخلوقات الله سبحانه وتعالى وجدت أن أضعف المخلوقات عند الولادة غالبا ما يكون الانسان . وفي هذا حكمة ربانية بالغة . فالطفل حين ولادته يكون في حالة عجز تام . وكل ما يستطيع القيام به ، بعض الحركات العشوائية التي يؤديها مستخدما يديه ورجليه . أما حواسه فتكون في حالة من عدم النضج وتحتاج الى وقت طويل حتى تقوم بوظائفها العادية . فمثلا لا يستطيع الطفل بعد ولادته أن يركز نظره على أشياء محدودة ، وهو يعتمد في طعامه وشرابه ونظافته وأمنه وحمايته على والديه وخاصة الأم . كما أن هذا الوليد لا يستطيع المشى الا بعد نهاية العام الاول من عمره . وهكذا يمضي فى عجزه واعتماده على والديه سنوات طويلة .

والطفل عندما يولد على هذه الصورة ، وطالما أنه محتاج الى حماية ورعاية الوالدين ، فانه يكون أكثر استعدادا لتقبل توجيههما وأقل مقاومة لآرائهما . وبذلك يستطيع الوالدان أن ينقلا الى الطفل خبراتهما واتجاهاتهما وقيمهما ، وهكذا تنتقل الخبرة الانسانية من جيل الى جيل يمتصها الأبناء عن الآباء .

مما تقدم نصل الى حقيقة مهمة وهي أن آثر الآباء على الأبناء غالباً ما يكون كبيرا . وقد يكون لعناصر البيئة الاخرى المحيطة بالأبناء أثرها كذلك ، ولكن هذا الأثر لا يعادل فى قوته ما للوالدين من تأثير على الأبناء .

ولهذا فاننا نتوقع أن يخرج الآباء الصالحون الى المجتمع ذرية صالحة وفي هذا يصدق القول : « من شابه أباه فما ظلم » . كما يصدق الشاعر :

الأم مدرسة اذا أعددتها
أعددت شعبا طيب الأعراق

سلوك الآباء وأثره فى الأبناء

نادرا ما نجد بين الآباء من لا يبذل الجهد فى سبيل تربية أبنائه وجعلهم مواطنين صالحين يحققون مصلحة انفسهم وأوطانهم . ولكن فى سبيل تحقيق هذه الغاية قد يضل بعض الآباء السبيل ، ويكون من نتيجة اهتمامهم الزائد بأبنائهم وقلقهم على مستقبل هؤلاء الأبناء أن يدفعوا بهم الى طريق الفشل دون قصد . وقد يسلك الآباء سلوكا شاذا يتعارض مع المبادىء التربوية الحديثة ولكنهم في قرارة أنفسهم يعتقدون بصحة هذا السلوك . وهم بذلك يلحقون الاضرار بأبنائهم دون أن يدروا ، ويحسبون أنهم يحسنون صنعا .

نضرب لذلك مثلا : الأب المستبد . الدكتاتور المتحكم في منزله ، مثل هذا الأب قد تكون أهدافه بالنسبة لأبنائه اهدافا معقولة ومفيدة وصالحة . فهو يريد أن يجعل من أبنائه ذرية صالحة ومتعلمة ومهذبة . ولكنه باستبداده هذا قد يضل الطريق في سعيه نحو تربية أبنائه تربية سليمة فالأب المستبد يعتقد

عادة أنه أكثر معرفة وخبرة من كل فرد في البيت ، وعلى هذا الأساس فانه يرى أن له مطلق الحرية واليد العليا في اتخاذ القرارات الهامة . فهذا الأب هو الذى يقـرر مـا تنفقه الاسرة،كما انه يقرر بنود الإنفاق المختلفة ، كما أنه يقرر كيف تقضى الاسرة اجازاتها . كما يقرر نوع الدراسة التي يلتحق بها أبناؤه دون استشارتهم أو اخذ رايهم ، على الرغم من أهمية هذا القرار وخطورته وأثره الكبير على مستقبل الأبناء . وهذا الأب المستبد عادة ما يقرر متى يتزوج الأبناء ومن يتزوجون . وهو في أى موضوع من هذه الموضوعات لا يقبل مناقشة أو معارضة بل كل ما يقوله يجب أن ينفذ ويطاع .

ولا أحد يستطيع أن ينكر أن الأب عادة ما يكون اكثر خبرة واعمق بصيرة من الأبناء في الكثير من الاحوال ، ولكن يجب أن يكون للأبناء رأى فى كل ما يجرى في المنزل طالما أن لديهم القدرة على ابداء رأى له قيمة . هذا بالاضافة الى أن استبداد الأب بالرأى قد يؤدى الى نتائج خطيرة سيئة يظهر أثرها على الأبناء فى احد الاشكال والصور الآتية للسلوك الشاذ :

أولا : خروج الأبناء على طاعة الآباء ، فكثيرا ما تكون اوامر الآباء وقراراتهم غير منطقية وغير مقبولة بالنسبة للأبناء ، مما يدفعهم الى عدم طاعتها . في حين أن هذه الأوامر والقرارات من الممكن أن تلقى قبول الأبناء وموافقتهم اذا اشتركوا في اصدارها .

ثانيا : الفشل التعليمي للأبناء ، فطالما أن الآباء يتخذون القرارات للأبناء فيما يتعلق باختيار نوع الدراسة دون استشارة الأبناء فقد يؤدى ذلك الى تخلفهم الدراسي وفشلهم فى متابعة التعليم ، وقد يؤدى استبداد الآباء واجبارهم أبناءهم على الدخول في مهنة معينة الى الفشل . فقد أثبتت الدراسات أن الكثير من الآباء يريدون لابنائهم أن يدخلوا نفس مهنهم ويتابعوا نفس أعمالهم اذا كان الآباء ناجحين في هذه المهن . وقد يحول الآباء دون التحاق أبنائهم بمهنهم اذا كانوا غير راضين عنها أو فاشلين فيها . وقد يتساءل القارىء عن ضرر ذلك . والجواب أن قدرة الآباء واستعدادهم وميولهم قد تختلف عن أبنائهم ، لذلك فقد تكون مهنة معينة مناسبة للأب

من ناحية امكاناته العقلية والجسمية واستعداداته المختلفة ولكنها لا تكون مناسبة لأبنائه . وقد يفشل الأب في مهنة معينة فى حين قد ينجح فيها أحد أبنائه .

ثالثا : الثورة فى وجه سلطة الأب . قد يؤدى استبداد الأب برأيه واهماله رأى الأبناء كلية الى ثورة الأبناء على سلطة الأب المستبدة . وقد لا يكون لدى بعض الأبناء القدرة على الثورة ، فيلجأون الى الانطواء والانعزال الذى يعتبر أسلوبا للتعبير الصامت عن السخط أو عدم الرضا .

رابعا : حرمان الأبناء من فرصة التدرب على تحمل المسئولية . فالأب المستبد يتخذ بنفسه جميع القرارات الهامة في البيت ، وبذلك يحرم أبناءه فرصة المشاركة في اتخاذ هذه القرارات ، والتدرب على تحمل المسئولية في البيت ، وهذا يفوت عليهم فرصة كبيرة للنضج الاجتماعي والمشاركة في تحمل المسئولية .

بعض المشكلات السلوكية للأبناء

قد يكون للآباء ـ دون أن يدروا أو يقصدوا ـ دور فى المشكلات السلوكية التي يعاني منها الأبناء . وعادة ما يشكون من سلوك أبنائهم الشاذ في بعض النواحي ، ولا يخطر ببال هؤلاء الآباء أنهم بسلوكهم نحو أبنائهم إنما يدفعونهم لمثل هذا السلوك الشاذ . وسنذكر فيما يلي بعض صور السلوك الشاذ للأبناء ، مع توضيح دور الآباء فى غرس هذا السلوك ، وتزكيته وتدعيمه ، دون وعي أو قصد .

الكـــــذب

والكذب على أنواع فقد يلجأ الابناء الى الكذب خوفا من العقاب . وقد يلجأون الى الكذب للانتقام من غيرهم وإلحاق الضرر بهم . وقد يلجأ الأبناء

الى الكذب لتحقيق غرض معين ، كان يطلب الابن من والده مبلغا من المال لشراء كتاب معين ثم يحصل عليه لينفقه في شراء بعض الحلوى .

وأيا كان نوع الكذب فان للأبوين دورا هاما في المباعدة بين ابنائهم والكذب أو في دفعهم وتشجيعهم عليه .

فالابناء اذا انشأوا في بيئة شعارها الصدق قولا وعملا ، فمن الطبيعي أن ينشأ هؤلاء الابناء أمناء في كل أقوالهم وأفعالهم .

وكثيرا ما يؤدى اسراف الآباء في القسوة في محاسبة ابنائهم على كل خطأ ، أو مخالفة يرتكبونها ، الى الكذب للهرب من العقاب،وقد يكتسب الابناء عادة الكذب من آبائهم الذين كثيرا ما يكذبون في معاملاتهم داخل البيت .

السرقة

وللسرقة دوافع كثيرة . فهناك سرقة لإشباع جوع أو سد رمق ، وهناك سرقة تهدف الى الانتقام وهناك سرقة تهدف الى اشباع ميل أو هواية ، ومن أمثلتها الابن الذي يسرق بعض المال من ابيه لاستئجار دراجة أو شراء فيلم لاشباع هواية التصوير .

ويستطيع الآباء ان يباعدوا بين ابنائهم وبين السرقة اذا دربوا هؤلاء الأبناء منذ صغرهم على احترام ملكية الغير . والآباء الدين يحرمون أبناءهم من الشعور بالملكية قد يدفعونهم للسرقة دون أن يدروا . فبعض الآباء يغلقون بابا على كل شيء في البيت ، كما أن كل شيء في هذا البيت ملك للكبار . وبعض الآباء يشترون لعبة مشتركة لأبنائهم بدلاً من شراء لعبة لكل واحد منهم ظنا منهم أن هذا قد يدربهم على التعاون والايثار بدلاً من تعويدهم على الأنانية والاثرة ، والواقع ان الآباء بسلوكهم هذا يحرمون الابناء من الشعور بالملكية ، والاحساس بها والمحافظة عليها ، والرغبة في الدفاع عنها .

والواقع أن الأبناء الذين يشبون في بيوت لا تخلق فيهم الاحساس بالملكية ، يكونون أكثر من غيرهم استعدادا للسرقة . ولكن من المهم ألا ينقلب تشجيع الشعور بالملكية الى الأنانية والجشع .

الغيرة

والآباء مسئولون عن بث شعور الغيرة في نفوس أبنائهم . والغيرة قد تنتج اذا ما داوم الآباء على مقارنة الأبناء بغيرهم من الافراد . كما ان شعور الغيرة قد يسببه اعطاء الآباء امتيازات معينة لأبنائهم ثم حرمانهم من هذه الامتيازات فجأة ودون سابق انذار . ومن أمثلة ذلك ما يحدث حينما يحرم أحد الأبناء من اهتمام وحب والديه لأن كل اهتمامهما وحبهما قد تحول فجاة الى أخيه الوليد . وقد ينتج شعور الغيرة من تمييز الآباء بين الابناء في المعاملة . فالبنات قد يشعرن بالغيرة من اخوتهن البنين اذا كان الآباء يميزون في المعاملة بين البنين والبنات ، واذا كان هذا التمييز لا يقوم على أساس من العدل أو الامتياز الحقيقي .

الانطواء

والآباء قد يكونون مسئولين عن حالة الانطواء والعزلة التى تصيب أبناءهم . وقد يقلقهم هذه الحالة ولايعرفون أن في سلوكهم ما دفع أبناءهم الى حالة الانطواء هذه فالأبناء قد يلجأون الى الانطواء كاسلوب يدافعون به عن أنفسهم . فاذا شعروا بعدم الأمن والطمانينة ، واذا كانوا دائما يواجهون بالصد والإحباط في علاقاتهم مع ابائهم ، واذا كان جو البيت يسوده الشجار والخلافات ، انطوى الابناء على انفسهم وباعدوا بين انفسهم وبين ما يجرى من حولهم . وهذا الانطواء يعتبر نوعا من الاحتجاج الصامت وعدم الرضا عما يجرى في البيت الذي يعيشون فيه وقد يكون الانطواء نوعا من الهروب من

المواقف الاجتماعية التي تسبب للابناء مشاعر الصد والإحباط والفشل وخيبة الأمل .

نوبات الغضب

وكثيرا ما يأتي الآباء شاكين من نوبات الغضب التي يلجأ اليها أبناؤهم للحصول على مطالبهم او اذا وقف احد امام تحقيق هذه المطالب . وقد لا يعلم الآباء الشاكون أنهم سبب المشكلة التي جاءوا يشكون منها . فالأبناء قد يلجأون لنوبات الغضب لتحقيق مطالبهم في البيت اذا كان هذا الأسلوب هو أسلوب الآباء لمثل هذه الغاية أو اذا كان الأبناء قد تعودوا استخدام هذا الأسلوب منذ طفولتهم لتحقيق رغباتهم . وما داموا قد تعودوا على تحقيق هذه المطالب عن طريق نوبات الغضب ، فان الأمر يصبح عادة من الصعب التخلص منها ، لأن الآباء تعودوا في الماضي مكافأة نوبات الغضب عند طفلهم بتلبية جميع مطالبه .

وقد يلجأ الابناء لنوبات الغضب كتعبير عن عدم رضاهم عن القيود الكثيرة التي يفرضها الآباء على حريتهم في الحركة والقول والعمل .

نصائح تساعد الآباء

فيما يلي عدد من النصائح نوجهها للآباء بهدف مساعدتهم على زيادة فهمهم لأنفسهم ، ويعتبر ذلك من المداخل الأساسية والهامة لزيادة فهمهم لأبنائهم : ـ

١ ـ اذا لاحظ الآباء سلوكا شاذا يأتي به الأبناء فعليهم تحرى أسباب هذا السلوك الشاذ ودوافعه ، وعليهم ايضا أن يراجعوا انفسهم علهم يجدون في تصرفاتهم ما يدفع الأبناء الى هذا السلوك الشاذ .

٢ ـ يجب أن يقتطع كل أب كل يوم عدة دقائق من وقته يخلو فيها الى نفسه بعيدا عن مشكلات البيت ومشاغل العمل ، يراجع فيها نفسه وتصرفاته وسلوكه مع ابنائه ليعرف مدى خطئه أو صوابه .

٣ ـ من المفيد أن يدرك الآباء أنهم آدميون بكل ما يحمل هذا اللفظ من معنى ، لذلك فهم معرضون للخطأ في تصرفاتهم وسلوكهم ، وعلى هذا فليس عيبا أن يعترف الآباء بأخطائهم امام ابنائهم لأن الاعتراف بالخطأ فضيلة كبيرة ، ويجب أن يكون الآباء قدوة للأبناء في هذا المجال .

٤ ـ على الآباء ان يسترجعوا ايام مراهقتهم وطفولتهم لعلهم يجدون في هذه الأيام ما يجعلهم أكثر فهما وتقديرا لظروف ابنائهم وأكثر قدرة على التعامل معهم .

٥ ـ لكي يزيد الآباء من فهمهم لأنفسهم ويزيدوا من فهمهم لأبنائهم نتيجة لذلك ، لا بد للآباء أن يقيموا هذا الفهم على أساس دراسة واعية للنفس البشرية ولمبادىء التربية وعلم النفس حتى يقوم فهمهم لأنفسهم وفهمهم لابنائهم على اساس متين من العلم .

٦ ـ توجيه الآباء لكي يتوقفوا عن الاعتقاد بأن اساليب التربية التي صلحت معهم تصلح لأبنائهم ، وأن يدركوا تغير زمان الابناء عن زمانهم ، وأن الأبناء يختلفون عنهم في نواحي كثيرة لانهم عاشوا فترة تختلف عن الفترة التي يعيش فيها أبناؤهم . والواقع ان محاولة الآباء تطبيق نفس اساليب التربية التي كانت تستخدم معهم على ابنائهم يعرض العلاقة بينهم وبين الأبناء لأخطار شديدة ، كما أن تطبيق هذه الأساليب القديمة على الجيل الجديد يعرضها للفشل المحتم .

٧ ـ على الآباء أن يكونوا واقعيين في مطالبهم بالنسبة لأبنائهم فأكثر ما يسيء للعلاقة بين الآباء والأبناء ويعرض هذه العلاقة للخطر هو محاولة كل أب جعل ابنه « أحسن الناس » ورغبته أن يرى ابنه فوق الجميع بحق أو بغير

حق ، مما قد يصيب الأبناء باضرار بالغة فتوقعات الآباء غير الواقعية كثيرا ما تلقى عبئا ثقيلا على الأبناء خاصة اذا كانت هذه التوقعات أعلى من مستوى قدرات الابناء وامكانياتهم الجسمية والنفسية والعقلية . ولاشك أن معرفة الآباء لحدود قدرات وامكانات ابنائهم تجعلهم أكثر تقديرا لظروف هؤلاء الأبناء وتمكنهم من وضع أهداف واقعية لهؤلاء الأبناء يستطيعون الوصول اليها دون ان يذوقوا مرارة الفشل وخيبة الأمل .

٨ ـ يجب أن تظل خطوط الاتصال قائمة ومفتوحة بين الآباء والأبناء وهذا الاتصال القائم بين الآباء والأبناء يجب ان يكون ذا اتجاهين . فليس من المفروض أن تصدر الأوامر والتوجيهات من الآباء فتصل الى الأبناء ، وتقف عملية الاتصال عند هذا الحد . بل يجب ان تتضمن عملية الاتصال اعطاء الفرصة للأبناء للتعبير عن رايهم في هذه الأوامر والتوجيهات ، وان يصل رأيهم هذا الى الآباء وبذلك يظل الآباء على علم بما يجول بخاطر أبنائهم وما يشغل بالهم ، ويتجنب الآباء بذلك قيام حواجز عازلة رديئة التوصيل بينهم وبين ابنائهم .



كيف يرى الأبناء الصغار آباءهم ؟

بقلم : منير نصيف

قلما يفكر الآباء في الأحداث التي يثيرونها ، والانطباعات التي يحدثونها ، في نفوس صغارهم الأبناء . أو لعلهم يفكرون فلا يجدون فرقا يذكر بين الصورة التي يخالونها ترتسم لهم في أذهان أبنائهم الاطفال ، والصورة التي يحملونها هم لاخوان لهم أو أصدقاء بالغين من الرجال والنساء .

وهم على خطأ في هذا وذاك ، في نظر سائر علماء النفس والأطباء .

وعند هؤلاء العلماء أن إدراك الآباء لما يجول في خاطر صغار الأبناء ، عنهم ، وعما يتصفون به في صغرهم من صفات ، شرط لازم لتفهم طبيعة الأطفال ، وهو بالتالي شرط من شروط إحكام تربيتهم وإحسان تأديبهم .

إن الأطفال ينظرون إلى آبائهم والى سائر من شابههم من الرجال والنساء . وكأنهم مخلوقات تنتمي الى عالم غير عالمهم ، قوامها معدن غير معدنهم . ينظرون اليهم وكأنهم عمالقة أو آلهة كالتي تتحدث عنها الأساطير وينسج معالمها الخيال . فبواعث الآباء في نظر الصغار ضرب من ضروب الغيب والإعجاز ، وأساليبهم غامضة كالأحاجي تمتنع وتلتبس على العقل

العربي ـ العدد ٩٣ أغسطس ـ آب ١٩٦٦

والادراك . والآباء لذلك موضع حب صغارهم الفائق وهم أيضا موضع خوف أطفالهم البالغ .

والجدير بالآباء أن يقفوا على بعض ما توصل إليه الأطباء النفسيون والعلماء في هذا الصدد من نتائج وآراء .

طراز من جنس آخر

يقول أحد علماء النفس ـ المهتمين بشئون طلبة المدارس ـ العاملين كمستشارين للمربين والمعلمين في سائر المعاهد : « ليس من عادة الصغار أن ينظروا الى الكبار وكأنهم كانوا أطفالا من قبل ثم نموا وكبروا ، حتى أصبحوا رجالا بين الرجال . إذ ليس عندهم ما يبعث على اشتباههم بأي تحول طرأ على الآباء ، وحقبة طفولتهم من القصر بحيث تحول دون استدلالهم على ما يمر به آباؤهم من نمو وتغير ، وهو في هذه الفترة ضئيل تفوت ملاحظته الكبار » .

« هذا ولا وجود في نظر الطفل إلا للحاضر . أما الماضي الذي يسبق الحاضر والمستقبل الذي يعقبه ، فلا أثر لهما البتة في مخيلته . لذلك كان النمو والتحول من ماض الى حاضر الى مستقبل غير ذي موضوع بالنسبة الى الطفل ، بل بلا معنى ، ويتجاوز بلا ريب قدرته على التفكير أو الخيال » .

خالدان مدى الدهر

تلك هي الفكرة الثانية التي يحملها طفلكما بفطرته عنكما . فما دمتما بلا ماض وبلا مستقبل فإن الطفل يفترض قدمكما ووجودكما منذ الأزل ، كما يفترض بقاءكما أبد الدهر . وتراه يعجز عن ادراك الشبه بينكما وبينه ، رغم نزولكما الى مستواه في ملاعبته حينا ومداعبته أحيانا ، فلا يرى العرضي العابر من

ذاتكما مع أنه يحس به في ذاته ، ولا يرى فيكما إلا تجسيدا للخلود والبقاء مما لايراه في نفسه .

وتعزى هذه النزعة في الاطفال ، نزعة اسباغ صفة الخلود على الآباء ، الى غريزة الأمن وصون الذات ، على ما يذهب اليه علماء النفس . فخلود هؤلاء ضمان لبقاء أولئك وشرط لاستمرار الرعاية والعناية بهم ، من حيث هم أطفال .

وتتمثل هذه الغريزة في حاجة الطفل الى الأم ، أو من يقوم مقامها ، وهي الحاجة الغالبة على من تراوحت أعمارهم بين السنة الثانية والثالثة من الأطفال . ويسترسل علماء النفس في هذا الصدد ليحددوا تلك الحاجة بوصفها حاجة الى عطف ومحبة لاغنى للطفل عنهما ابدا ، يأتيانه في كل لحظة من لحظات حياته ، من أم عطوف أو أي شخص آخر بوسعه أن يقوم مقام تلك الأم الحنون .

قد لانعير مثل هذا الكلام اهتمامنا الكبير وقد لانرى فيه أي أثر خطير ، وقد سمعناه مرارا وتكرارا فبات في حكم المألوف الذي لايبعث على مزيد من امعان أو تفكير . على أن مستقبل طفلك يعتمد اعتمادا كبيرا على ما ينطوي عليه هذا القول ، حسبما يؤكد لنا الأطباء النفسانيون . فمآله الى الاقبال على الحياة وتوثيق العرى مع غيره من بني الانسان ، بكل ما يترتب على هذا وذلك من تفاؤل واستبشار وتوفيق ونجاح ، إذا هو لم يحرم في طفولته الأولى ما هو بأمس الحاجة اليه من حب وحنان . . ومصيره الى الادبار عن الحياة والانزواء عن المجتمع الذي لا غنى له عن الاسهام فيه استكمالا لمقومات انسانيته ولشروط سعادته ونجاحه ، إذا هو لم يحظ بالأم الحنون العطوف في السنتين أو الثلاث الأولى من حياته .

وحينما يبلغ الطفل الثالثة من العمر ، تكتسب حاجته تلك صفة الازدواج ، كما يقول لنا أطباء النفس ، ولا تعود تكتفي بأحد الأبوين ، بالأم أو من يقوم مقامها ، بل تنزع بالطفل الى كليهما وتتجه الى الاب فضلا عن

الأم ، إن لم يكن على حسابها . يتجلى ذلك في الطفل الذي فقد أباه صغيرا أو الذي حرم حب أبيه لسبب ما . تراه يتخبط في فراغ ويتصيد الأب البديل كان من كان . حتى إذا عثر عليه هدأت ثورته الصامتة وبايعه أبا أو كالأب ، وإذا لم يعثر عليه انتهى أمره الى سد الفراغ بضرب من ضروب الجناح النفسي .

ويضرب الدكتور المذكور لنا مثلا بالطفل « جون » الذي بلغ الثامنة من العمر واصبح مشكلة من مشاكل مدرسته المستعصية ، يأبى التعلم ويقضي وقته في الصف جالسا على نحو من البلادة والغباء ، ويشوب مسلكه نحو رفاقه شيء من الخشونة والوقاحة . ولو تحسسنا طريقنا الى بيئة ذلك الطفل البيتية لوجدنا أنه كان يعيش مع أمه بعيدا عن أبيه وقد فرق بينهما الطلاق .

فالاطفال الذكور جميعا في حاجة إلى أب يمجدونه ويسعون الى اقتفاء أثره ومحاكاته ، ويمثل لهم معارج الرجولة ومسالكها . أما « جون » فقد حرم من ذلك لأنه حرم وجود أبيه في البيت الذي يعيش فيه . ويضيف الدكتور الى ذلك قوله : « ولم يكن الحل الذي عمدنا اليه بصدد مشكلة « جون » هذه ، غير نقله الى فصل من فصول المدرسة كان المشرف عليه معلما ذكرا قام بالنسبة الى « جون » مقام الأب فسد له الفراغ وأصلح حاله دون مشقة أو عناء » .

قوة خارقة تفوق الوصف

وعند الطفل أنك ، أيها الأب ، جبار ، وقوتك تفوق الوصف . وكذلك أنت أيتها الأم .

ذلك لأن الفروق بين قوتيكما وقوة طفلكما هائلة في نظره ، هائلة بحيث يتعذر عليه تحديدها . ولا غرابة في ذلك مادامت احتياجات الطفل كافة إنما يشبعها به ابواه ، كما يقول الدكتور ريتشارد جوردن .

ويردف هذا الطبيب النفساني الواسع الخبرة في شئون الاطفال ، قائلا : «تصور نفسك في ازمة او ضائقة ، وانتصب فجأة امامك مارد من الجان

يخاطبك : لبيّك . . لبيك . . اطلب ما تشاء من مال وثراء تنل كل ماتشاء . . أما كيف يحصل لك على ذلك المال ومن اين يحصل عليه فلا يعنيك في شيء . . وكل ما يهمك هو ان يكون المال في متناول يدك لدى الشعور بحاجتك او التعبير عن ارادتك . وما المارد الجني هذا سواك ، في نظر اطفالك !

لا غرابة اذن في اعتقاد الطفل بقوة أبيه الخارقة وهو الذي رآه بأم عينه يحمل صندوقا كبيرا ثقيلا طالما عجز هو عن مجرد تحريكه . ففي ذلك دليل قاطع على جبروت الأب في نظر ابنه . ولا ينتقص من ذلك الجبروت احتمال تعذر رفع ذلك الصندوق على الأب فيما لو كان الصندوق أثقل وزنا مما هو . فمثل هذا الاحتمال لا يخطر للطفل ببال . وإن وقع الاحتمال ورأى الطفل أباه يحاول حمل الصندوق الثقيل فيفشل ، نسب الطفل ذلك إلى استحالة حمل ذلك الصندوق أصلا ، وبرر لنفسه عجز أبيه بتعذر حمل هذا الصندوق على كل انسان . هذا إذا أعار الطفل فشل تلك المحاولة اي اهتمام .

على أن جبروتكما في نظر ابنكما لا يقف عند حد رفع الصندوق، ولا يقتصر على هذا أو ذاك من الأعمال . أوليست قواك الخارقة تلك أيها الأب ، هي نفسها التي تمكنك من قيادة سيارتك ،أوليست هي التي تمكنك من إنماء الزهور ، وكأنك (تخلق) شيئا من لاشيء ، وتمكنك من استخراج النقود من جيبك بلا قيود او حدود ؟

غير أنكما تتمتعان بقوى وصنوف من القدرة تفوق كل ذلك غرابة وعجبا . فشأنكما في مخيلة ابنكما كشأن الساحر الذي لا يلبث ان يذهلك بمعجزة اخرى غير التي اذهلتك . ومثلكما كمثل تلك الام التي بلغت من القوة الخارقة ـ في نظر ابنتها ـ ما جعلها قادرة على تغيير وجهها وهيئتها كيفما تشاء ، وفي الوقت الذي تشاء . فقد فوجئت الطفلة لدى استيقاظها من النوم ذات ليلة برؤية امها وقد همت بالخروج من البيت ، وظهرت بأبهى مظاهر الهندام والزينة، وهي التي ألفت مشاهدتها في البيت أثناء النهار في ملابس رثة قديمة .

عزت الطفلة ذلك التغير المفاجيء إلى السحر والإعجاز لا إلى المساحيق والثياب ، ولم تملك نفسها عن التعبير عن ردة فعلها بقولها لمعلمتها : في يوم لاحق : «لقد حولت أمي نفسها الى أميرة او ملكة وبدت لي طويلة القامة ، تكاد تنطح برأسها سقف الغرفة» .

اما تجاهل ابنكما مظاهر عجزكما وتأكيده على جبروتكما بالرغم من بوادر فشلكما فمرده ، على مايعتقد اطباء النفس وزملاؤهم العلماء ، الى رغبة طفلك في الاعتقاد بجبروتكما . ذلك لأن قوتك الجبارة هذه ، ايها الاب ، انما تعني امنه ، وتكفل له سلامته ، وهي تبعث على ارتياحه واطمئنانه ، وان كانت تشعره ، في كثير من الاحيان ، بعجزه هو وتلهب في قلبه ثورة من الغضب والنقمة عليك . فقوتك هي حماه ووجودك بقربه يشعره باليقين بأنه في منأى عن كل ما قد يسيء اليه .

وغني عن البيان أن شعور الاطفال بالأمن والاطمئنان ، لدى تعرضهم للمخاطر ، يزداد تبعا لوجود آبائهم الى جانبهم ويفوق ما يشعرون به من هذا القبيل في حالة بعد هؤلاء عنهم . كذلك يشعر اولئك الاطفال المهددون ، كما لا يخفى ، بقدر من الطمأنينة في حالة وجود كلا الابوين الى جانبهم يفوق كثيرا جداً ذلك القدر الذي يشعرون به فيما لو كان احد الابوين وحده حاضرا . على ان ذلك الشعور بالاطمئنان او بمزيد منه ، انما يعزى لكيان الاسرة من حيث هي اسرة . لهذا تراه يتقلص اذا ابتعد الطفل عن عائلته ، ويعود من بعد تقلص اذا كان بصحبة بعض اهله ، ويبلغ الذورة اذا احاط به كل ذويه ، وخاصة ابوه وامه .

وتجدر الاشارة هنا الى حادث غرق الباخرة « اندريا دوريا » قبل نحو عشر سنين . فقد تبين ان الاطفال الذين بقوا مع ابائهم وامهاتهم على ظهر تلك الباخرة ، وهي تغرق ، كانوا اقل تأثرا من اولئك الذين خلصوا منها بركوب قوارب النجاة بصحبة امهاتهم دون ابائهم . ومنذ ذلك الحين والريبة

تحيط بالقاعدة المألوفة والمعمول بها في عرض البحار بأن تعطى الأولوية الى النساء والاطفال فيما يتصل باعمال الغوث وركوب قوارب النجاة .

مراحل في حياة الطفل

فالاعتقاد الشائع بين صغار الأطفال هو اعتقاد بأن العالم من صنعكما ، وصنع بعض الكبار الآخرين امثالكما ، وانه خاضع دوما لقيادتكما وزعامتكما بكل ما فيه من حوادث وأحداث .

يتجلى ذلك في المراحل التي يمر بها الطفل على صعيد النمو النفسي ، حسبما يذهب اليه كثير من علماء النفس والاطباء . ففي المرحلة الاولى اي في غضون الاشهر الاولى التي تلي الولادة ، لا يميز الطفل ذاته عن العالم الخارجي الذي يحيط به ، ثم يبدأ تدريجيا في تحسس وجوه هذا الشيء الآخر ـ اي العالم الخارجي ـ في المرحلة الثانية من مراحل نموه . تراه يتحسس مغايرة ذلك العالم لذاته هو ، ولكنك تراه يشعر في الوقت نفسه وكأن الغاية التي وجد من اجلها ذلك العالم انما هي ارضاؤه هو وسد حاجاته . فالعالم موجود لكي يضع الاكل في فمه ، والكون قائم يستبدل النظيف الجاف بالقذر المبتل من ثيابه وفراشه .

من ثم يتقدم الطفل قليلا على صعيد نموه النفسي ، فيتعرف الى كيان ثالث هو كيان امه . يراها تتميز عما سواها من العالم الخارجي الذي تحسسه ، بقدر ما تنحصر فيها مهمة اطعامه والعمل على راحته . فهي اذن صانعة ذلك العالم وهي التي تدير شؤونه حرصا على مصلحته .

ولا يلبث الطفل ان يتحسس وجود « امينً » له لا ام واحدة . تتصف الأولى باللطف والنعومة والرائحة الزكية كما تتصف الثانية بشيء من القسوة والخشونة . وليس هذا الكيان الرابع سواك انت ايها الاب ، يتعرف اليك اول ما يتعرف وكأنك ام ثانية مختلفة .

وإن هي إلا فترة وجيزة حتى يصطدم الطفل الصغير بأولى حقائق الواقع

المرير . إذ سرعان مايكتشف ان العالم الخارجي لم يوجد خصيصا لنفعه وارضائه ، وان امه واباه لا يتركان الحبل له على غاربه . فثمة اشياء يأمرانه بفعلها وثمة اشياء اخرى ينهيانه عنها ، ان لم يزجراه او يضرباه لفعلها .
بذلك تبدأ في حياة الطفل مرحلة اخرى من نموه . فامه وابوه اللذان خلقا عالمه ، لم يوجدا عالمه هذا من اجله . ثمة غاية اخرى ولا ريب ، وان كان ادراكها يتجاوز وعيه وشعوره . ومهما يكن من امر ، فادارة شؤون هذا العالم منوطة بهما لا به .

قراءة المستقبل

وأنت أيها الأب ، وأنت أيتها الأم ، كلاكما عند الطفل قادر على قراءة المستقبل .
لا فرق بالنسبة الى طفلك بين ما هو مفتعل . كذلك لا فرق في نظره بين ما يحدث صدفة وما يحدث تبعا لارادة . وهو فوق هذا وذلك لا يميز الأشياء والأفعال الماضية عن تلك الحاضرة ولا يفرق بين هذه أو تلك وبين أفعال أخرى مقبلة . ولا يبدأ التحسس لهذه الفروق والمميزات إلا بعد أن يألف على لسان ابويه عبارات لهما متكررة ، كالقول حينا « سيأتي النجار غدا » والقول حينا آخر « شاهدنا الحلقة الاولى من مسلسلة (كذا) على شاشة التلفاز البارحة ، وسنشاهد حلقات اخرى منها في غضون الاسابيع القادمة » .
وإذا ما صدقت هذه التنبؤات يوما بعد يوم ، ساعده صدقها على تحسس المقصود بالماضي والحاضر والمستقبل تحسسا عمليا واقعيا، وحمله ايضا على الشعور بأن ابويه يحيطان بما يختفي عنه في ثنايا ذلك المستقبل .
وإذا كان ابنكما في السنة السادسة أو السابعة من عمره ، افترض في الغالب انكما بصيران بكل ما يجول في خاطره . وتذكر في هذا الصدد قصة يرويها احد المعلمين عن تلميذ صغير طالما ابدى التردد في العودة الى بيته لدى

فراغه من مدرسته . هذا على الرغم مما دلت عليه تحقيقات ذلك المعلم من ان التلميذ ينعم ببيئة عائلية سعيدة وابوين يحبانه ويتصفان بالحكمة .

وتبين بعد ذلك أن سبب تردده إنما هو شقيقته الطفلة . فقد شعر بالغيرة منها ، وراودت نفسه بالتالي اخيلة صبيانية ترمي الى النيل منها وإلحاق الأذى بها . ولكنه واثق من ان ابويه قد نفذا الى اعماقه ، واكتشفا ما يبيته لاخته في مخيلته ، فهما اذن ينتظران الوقت المناسب لمعاقبته . وما تردده في العودة الى البيت إلا نتيجة لتخوفه من عقاب أبيه وأمه . .

فوق الإدراك !

يبقى العالم في نظر الطفل نسيجا حافلا بعجائب وغرائب تتخطى حدود العقل ، حتى يدخل الفصل الثالث أو الرابع من دراسته الابتدائية . ذلك ما يقوله علماء النفس وما يؤيدونه بالقرائن والأمثلة .

فالصغير يرقب أمه ، على سبيل المثال ، وهي تدير أرقام الهاتف لتتحدث مع أبيه ، وهو بعيد عنها في مقر عمله . وذلك في نظره لغز لايدري له تفسيرا ، وأمه بالتالي ساحرة أو كالسحرة . ويزداد يقينا حينما يحاول ادارة الجهاز والتحدث الى أبيه على نحو ما فعلت أمه فتنتهي محاولته بالفشل . والانطباع الذي يرسو في نفسه من جراء ذلك كله هو أن أمه وأباه يستطيعان فعل المعجزات التي يستحيل تقليدها كما يتعذر فهمها .

لايخفى أن المجتمع الانساني المتحضر الذي نعيش فيه يتطلب منا التضحية بعدد كبير من غرائزنا ونوازعنا الجسدية الحيوية الطبيعية . ولا يخفى أيضا أن تخطي هذه النوازع وتجاوزها ينطوي على قدر لايستهان به من العذاب الأليم للطفل . فهو يشعر بالعجز عن فهم الاسباب التي تحملنا على الخروج على ما هو طبيعي مألوف فينا ، وتسوغ لنا تقييد انفسنا وحصرها داخل قفص معقد متشابك من النظم الغريبة والتقاليد العجيبة .

تراه يرقب ويعاني من التسامي على تلك النوازع القوية التي فطر عليها منذ ولادته ، ويعمد من حيث لايعي طبعا ، الى تفسير البواعث التي تدفع بأبويه إلى إقامة العراقيل في سبيله ، وكبح غرائزه ، ونوازعه ، تفسيرات تتمثل فيها طفولته .

رمز الفضيلة

فابنكما يقدسكما وقد لاتدريان ذلك . بل إنه ينظر إليكما مثلا أعلى لفعل الخير والفضيلة ، منزها عن فعل الشر أو الرذيلة . وتبلغ به هذه النزعة حدا ـ على ما يعتقد عالم النفس السويسري الدكتور جين بياجيه ـ يؤثر معه ادانة نفسه عن غير حق على إدانة أبيه أو أمه بحق ، في تلك الحالات التي يتعرض فيها لعقوبة على ذنب لم يقترفه ، وذلك حفظا على ما يعتمر به قلبه من إكبار لهما وتقديس .

وقد لاتدريان أن حرص طفلكما على الظفر بمحبتكما وتقديركما هو أقوى البواعث التي تجيش في صدره . وقد تبلغ به حاجته الماسة هذه مبلغا يجعله يتجاهل بعض غرائزه الأساسية لصالحها . فهو لايتردد في كبح جماح نزعته الفطرية السليمة نحو الاستقلال الذاتي مثلا ، تبعا لشعوره بأن نزوعه الى الاستقلال مقرون بجنوحه الى تخطي تعليماتكما وخرق أوامركما ، ويؤدي بالتالي الى حرمانه محبتكما وتقديركما .

ولا يغرنك أيتها الأم صراخ طفلك في وجهك أحيانا مرددا القول « أكرهك . . أكرهك ! » . فقد لاتكون هذه الثورة الا تعبيرا عن حاجته الملحةالى حبك وعطفك . كما قد تكون انعكاسا للمأزق الذي قد يتورط فيه الطفل ، أو لشعوره بتورطه في هذا المأزق الذي يعانيه ، باليأس الذي يغلب عليه بصدد تخطيه . وما كان ليتورط على هذا النحو لولا حاجة في نفسه الى حبك مشبعة ، وما كان ليثور عليك على نحو ما ثار لولا يقينه بأن خلاصه من

ذلك المأزق انما يعتمد على حبك له وتقديرك . فأنت سبب ورطته ومأزقه وأنت الكفيلة بنجاته وخلاصه ، وبيت القصيد في هذه الحالة وتلك إنما هو حبك وتقديرك . لاغرابة والحالة هذه إن خضع طفلك لك وأذعن لارادتك . فنزعته الى حبك وحاجته الى عطفك هما من القوة والإلحاح بحيث تجعلانه يستطيب ذلك الخضوع ويستعذب هذا الإذعان .

حيرة نفسية

وللدكتور سبلفربرغ رأي خاص في هذا الصدد قد لاينسجم تماما مع ما أخذنا به ، ، إلا أنه لا ينفيه . فهو يرى في حيرة الطفل بين استقلاله عنك وطاعته لأوامرك أزمة نفسية بل مأساة ، بقدر ما يحرمه كل من هذين الاحتمالين المتناقضين مما يصبو إليه بفطرته من سعادة كاملة غير منقوصة . فإذا سلبه الاستقلال حب أبيه وتقديره وما يترتب عليهما في حياته هو من رضى وطمأنينة ، فإن من شأن الاذعان والخضوع لأوامر أبيه وتعليماته أن ينال من حبه لنفسه و يحرمه الشعور بالثقة بالنفس واحترامها ويبعث على شعوره بشيء من الجبن عوضا عن الشعور بالاعتزاز والشجاعة .

وإن صح هذا الرأي فلا مفر من الإقرار بأن السواد الأعظم من الأطفال يختارون السبيل الذي يشوبه الجبن في معظم الأوقات . فهل من دليل أقوى من هذا على مدى قوتك وخطورة أثرك في حياة ابنك ! ولكنه دليل أيضا على أن ما يضحيه ابنك في سبيل الفوز بحبك ، ليتضاءل قيمة ويتقلص قدرا اذا ما ظفر بمحبتك وتقديرك !





حَذارِ من تدليل طفلك

بقلم : الدكتور عبد العلي الجسماني

طفلي المدلل يطلب كل شيء بالبكاء : فماذا أفعل ؟

هكذا يتساءل الآباء أو يسألون . وما دروا أن بكاء الطفل في هذه الحالة وعلى هذا النحو هو نتيجة التدليل . وما عرف الآباء أن التدليل عواقبه التربوية وخيمة كعواقب القسوة ، وكلاهما خطأ فادح بحق الطفل . وما اختلافهما في نتائجهما إلا من حيث الظواهر السلوكية التي تظهر على الشخصية فيما بعد .

تغيب عن أذهان كثير من الآباء والأمهات حقائق هي في الواقع من بدهيات الحياة اليومية منها مثلا التفريق بين الحاجة والرغبة .

الرغبات ما أكثرها . فهي تمثل نوازع نفسية عند الطفل ولا تخضع عنده لأي معيار . فهو لم يتشبع بعد بقيم المجتمع التي تبدأ من الأسرة ولم يتطبع بقواعد التحكم بجموح الذات .

العربي العدد ٣٠٥ ابريل ـ نيسان ١٩٨٤

الرغبات تجري مع الطفل كجريه في ساحات اللعب ، حيث لايتوقف عن الجري إلا عندما يحول دونه حائل .

المنبهات والرغبات

وفي عالمنا اليوم ما أكثر المنبهات التي تستثير عند الطفل كوامن الرغبات ، والرغبة لديه قد تأتي مقرونة مع حاجة ضرورية ، ولعلها تصدر تعبيرا عن تماديه في الإلحاح من غير مبرر . فهو حينما يطلب مثلا لعبة شاهدها عند طفل آخر وتذكره أمه أو أبوه بأنه يمتلك واحدة مثلها ، فإنه يعزز طلبه بالبكاء مع شيء مما يسمى بـ (التبرير الطفلي) وهو أن اللعبة التي رآها حمراء أو صفراء وأنه يريد أخرى من نفس اللون الذي شاهده . ويتمادى في الصراخ .

إزاء هذا لايجد الوالدان سبيلا إلا إسكاته بأحد أمرين : الضرب وما يتبعه من زيادة في الصراخ ، أو اقتناء اللعبة ليكف عن الصراخ والزعيق ، وهنا يتحسس الطفل مكانته أكثر ، ويدرك (باحساس الطفل) أنه انتصر . وكلما تقدم به العمر وعرف حقيقة موقفه وأنه مدلل ، تمادى في الطلبات الناجمة عن الرغبات التي لا علاقة لها البتة بالحاجات الضرورية .

ويتمكن الآباء من مواجهة تربية الطفل على نحو يرتضونه عندما يميزون بين رغبات الطفل اللامتناهية وحاجاته الضرورية . فله حاجاته الجسمانية كحاجته إلى الغذاء الصحي حسب العمر الذي يكون عليه ، لأن لكل عمر طعاما يناسبه ، فالرضيع مثلا يجب أن يتغذى بحليب الأم مباشرة لأسباب جمة إلا في الحالات القسرية . وحاجة الطفل الى الهواء النقي ، وحاجته الى الرداء المناسب حسب الفصول والمواسم ، وحاجته إلى النوم الكافي . . . . الخ .

وللطفل أيضا حاجاته النفسية منها مثلا ، حاجته الى الحنان ، وحاجته

إلى الأمان والطمأنينة ، وحاجته إلى الشعور بالانتماء إلى الأسرة وأنه محبوب ، وحاجته إلى أنه يتمكن من عمل ما يطلب منه ، وحاجته إلى الحرية في الحركة والتمتع بمباهج الحياة ، وحاجته الى اللعب ، وحاجته الى الارتياد والاستكشاف مدفوعا بدافع حب الاستطلاع ... الخ .

وإذا ما أدرك الوالدان تلك الضرورات اللازمة لنموه وتطوره ، تمكنا من التعرف على مواطن الأخذ بيد الطفل إلى مواقف الإيجاب مع الدراية ، وتجنبا الانقياد لرغباته ونزواته دونما اعتساف . وفي الحالين يعطيانه الحنان والاعتراف بمكانته ولكن بتوجيه سديد .

المنطلق : تهذيب السلوك

وتنشأ المتاعب التي يواجهها الآباء في تربية الأبناء من التباين بين عقلية الأطفال وعقلية الراشدين . إن نمو الطفل يحصل على مراحل متتابعة ومتداخلة ، وقد تكون متسارعة تارة ، ومتباطئة تارة أخرى ، كل هذه تجعل من العسير على الآباء الإلمام بمتطلبات كل فترة من حيث خصائصها واهتماماتها وسبل الالتفات الى دقائقها . وإن نصيحة روسّو التي وجهها في حينها الى المعلمين كان أحرى به أن يتوجه بها أو بمثلها إلى الآباء فيخاطبهم : (تعلموا كيف تعرفون أبناءكم) . والمعرفة هنا ليس المقصود بها حقيقة المظاهر كما تبدو ، وإنما يراد بها حقائق التكوين النفسي والتطور الاجتماعي الملازم للنمو البيولوجي .

فمن المبادىء المقررة في علم نفس الطفولة أن تتم دراسة تطور نفسية الطفل بالارتكاز الى ارتباط نفسيته بمكونات محيطه الاجتماعي والطبيعي . فالوالدان والأخوة والأقارب هم أول من يتولى تعريفه بحقائق المجتمع . وبيئته البيتية وما تحتويه ، وما يراه في الشارع وفي الأسواق هي أساسيات منبهاته المادية . ولما كان ادراك الطفل في سنوات حياته الأولى وبخاصة في

السنوات العشر الأولى منها يقترن بالمحسوسات أساسا ، فإن تفكيره يوحي إليه بأن ما تقع عليه عينه إنما هو في متناوله ولا يرى خلاف ذلك ، لأن رؤيته البصرية هي باتجاه واحد ، وهي التي تحدد له ما يرى ويشاهد . لهذا فهو يجرب مختلف السبل مع أبويه لبلوغ رغباته . بالصراخ أحيانا ، وبالغيرة اطوارا ، وبالتحبب تارة ، وبالطاعة أو العناد أو التمرد في فترات أخرى .

ولكن لما كان البكاء من سمات الطفولة ، وهو أول رد فعل يصدر عنه لحظةالولادة ، فإنه بالنسبة اليه الملتجأ المناسب له . وحينما يجد الاستجابة المباشرة لبكائه هذا ، فانه يكرره وبشكل أشد بحكم اكتساب عادة البكاء ، وإذا ما اقترنت هذه العادة السلبية بإحساسه بأنه مدلل فانه لن يقلع عما اعتاده إلا بتلمس عادة تحل محل ما نريده أن يقلع عنه . وقد تطول الفترة أو تقصر ، وإذا ما استحكمت فإنها قد تستوجب الاستعانة باختصاصي بعلم نفس الطفل . وهكذا نرى أن عدم صبر يبدر من الأبوين أول الأمر قد يجر في أعقابه سلسلة من المتاعب .

قصاص أم عقاب

يذهب كثير من الآباء في أيامنا هذه إلى أنهم يربون أبناءهم تربية لايشوبها قصاص . وعندما تسألهم لماذا ، فإنهم يجيبون بدعوى التحرر من آثار الماضي . وكأن الماضي ما انطوى على فضائل ، بل امتلأ بالقصاص فقط ، وكأن التحرر من الماضي يعني الانفلات من التزامات التربية وتهذيب التصرف ، والتنشئة على القيم الأخلاقية والسلوكية المحببة اجتماعيا ، وإن مفهومهم يرتبط بإطلاق العنان لنزعات الطفل الفجة ومنها التدليل ، دون التمييز بينه وبين التربية بالتطبيق

وحين يسألهم المرء ماذا يعنون بالقصاص ، يجيبون على الفور أنهم

لايتذكرون أنهم ضربوا أبناءهم ويردفون أنهم يتحاشون ذلك حتى لا يعقدوهم . وهنا نجد لدى التدقيق أن أولئك الآباء لم يميزوا بين تربية أبنائهم دون قصاص ، وتربيتهم دون ضرب . وان هذا الطراز من الآباء ينسى بأن الطفل حينما يطلق له العنان فإنه يشب على فكرة تترسخ في عقله بأن كل سلوك كان قد أتاه وقام به هو سلوك صحيح . وأن القصاص يجب ألا يقرن بالضرب الجسمي .

فلنعد الى المثال الذي ذكرناه في مستهل حديثنا هذا ـ مثال اللعبة المماثلة ـ فلو سمع الطفل كلمة (لا) بلهجة حاسمة تنم عن عزم وتصميم، متبوعة بتذكير الطفل بعبارة موجزة بأنه يمتلك مثلها ولا عبرة للون وان يقال له هذا بلغة مبسطة مشفوعة بتعابير وارشادات توضيحية أو كما نسميها في علم النفس (تعبيرية) فإن الطفل يرتدع . وإذا كرر طلبات مماثلة فإن الخيار يترك للوالدين حسب تقديرهما للضرورة وللموقف ، وبهذا يزايل الطفل اللجوء الى البكاء ، وينشأ وهو يتقبل التوجيه والنقد فيما بعد .

مبدأ التلاؤم

إن ما أسماه بياجيه بـ (مبدأ التلاؤم) إنما أراد به التوازن بين التمثل والتطابق ، وهذا معناه أن نتدرج مع الطفل حسب نموه الجسمي والنفسي في اكسابه معطيات بيئته . فلا يجوز ، مثلا ، التغاضي عن كل مايرتكبه الطفل على أساس صغر سنه أو أن نبتسم له ونشجعه على أعمال لو ارتكبها طفل في العاشرة أو الحادية عشرة أو حتى في السادسة من عمره لعاقبناه . أو أن نلبي كل مطلب له بمجرد أن يصرخ ، لأن الصراخ يستتبع الصراخ وهكذا الحال .

فالتلاؤم ، من أحد جوانبه ، معناه أن يستقي الطفل بالقدوة والتوجيه الواضح ، ومنذ نعومة أظفاره ، سلوكا قوامه الاشارات المعبرة والالفاظ

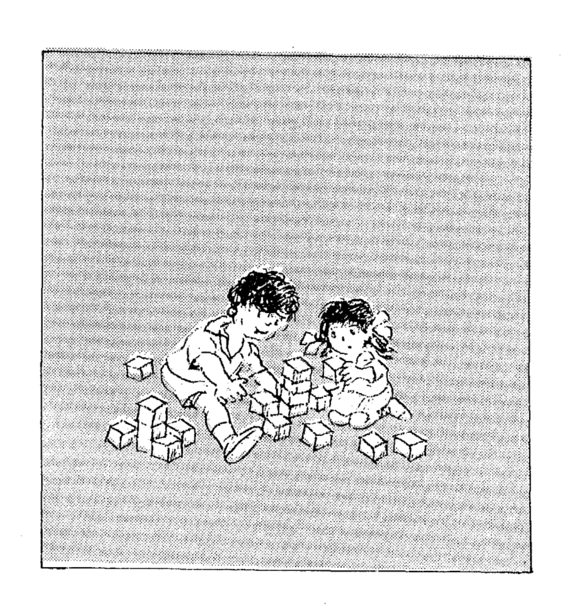
المفهومة ، والحركات الدالة بحيث عندما يبلغ مرحلة السيطرة الارادية على الذات يكون قد تشرب وتمثل جميع التوجيهات والقيم ومظاهر السلوك .
فلكل مرحلة من مراحل العمر في حياة الطفل خصائص ينبغي أن نعرفها .
ولا يجدر بالآباء أن ينسوا حقيقة هي :

أن للطفل رغبات لاتنتهي ، وإرادة كالريح ، لايصدها شيء ، وإنما بالتربية تتكيف وبالصبر تتهذب ، وبالتوجيه تتوافق مع المجتمع .



الفصل الثالث

خبرات وتجارب



اللّعِبُ في حيَاةِ الأطفال

بقلم : الدكتور محيي الدين توق

من خلآل اللعب يعبر الطفل عن ذاته ويتعلم الاتصال مع الأشياء والآخرين . ومن الصعب أن يُعرَّف اللعب تعريفا دقيقا . ولكن غالبا ما ينظر الى اللعب على أنه نشاط يقوم به الانسان من أجل المتعة المرتبطة به دون اعتبار ما قد يترتب عليه من نتائج . ويمكن أن يكون اللعب فعالا نشيطا كما يمكن أن يكون هادئا . وفي اللعب النشيط تأتي المتعة من الشيء الذي يجربه الفرد سواء كان ذلك الركض أو تكوين شيء من الألوان أو الصلصال . وكمبدأ عام يقل لجوء الأطفال الى اللعب النشيط مع اقترابهم من فترة المراهقة ومع ازدياد واجباتهم المدرسية والبيتية ، أما اللعب الهادىء الذي يسمى عادة بالتسلية فمتعته تأتي من النشاط الذي يجريه الآخرون . أما الفرد نفسه فهو لا يبذل إلا القليل من الجهد ، مثل الطفل الذي يستمتع بمراقبة الأطفال الآخرين وهم يلعبون ، أو يستمتع بمراقبة الناس والحيوانات على شاشة التلفاز ، أو يستمتع بالنظر الى (الكاريكاتير) أو قراءة الكتب .

العربي العدد ٢٣٤ مايو - أيار ١٩٧٨م

خصائص مميزة

ينغمس الأطفال في كلا النوعين من اللعب في كل الأعمار ، وإن مقدار الوقت المخصص لأي من النوعين لا يعتمد على عمر الطفل فقط ، بل ويعتمد على صحته العامة والمتعة التي يستشعرها من كلا النوعين . فاذا استشعر الطفل متعة أكبر من مشاهدة التلفاز فإنه يفضل المشاهدة على اللعب مع أطفال آخرين في مثل عمره . وعلى العموم فان الأطفال الأصحاء والمتكيفين تكيفا جيدا يميلون الى اللعب النشيط في سنوات طفولتهم الأولى بينما يتزايد لديهم اللعب الهادىء مع التقدم في العمر . هذا ويتصف لعب الأطفال بجملة خصائص تميزه عن لعب الكبار نذكر منها :

ـ ان لعب الأطفال يتأثر بالتقاليد الشائعة في المجتمع . وغالبا ما يقوم الصغار بتقليد من هم أكبر منهم سنا في ألعابهم وهكذا تنتقل الألعاب الشعبية في مجتمع ما من جيل الى آخر .

ـ يتبع اللعب نمطا من التطور يمكن التنبؤ به . فمنذ الطفولة الباكرة وحتى سنوات الرشد تكون بعض أنواع اللعب أكثر شيوعا في بعض الأعمار دون الأعمار الأخرى بغض النظر عن البيئة التي يعيش فيها الطفل وجنسيته ومستواه الاقتصادي والاجتماعي وجنسه . فالمرحلة الاكتشافية تكون في السنة الأولى من العمر ، ومرحلة الالعاب تبدأ في السنة الثانية وتصل القمة في حدود السابعة أو الثامنة ولا تلبث أن تتناقص بعد ذلك ، ومرحلة اللعب الجماعي تبدأ مع دخوله المدرسة ، ومع اقتراب المراهقة يتناقص اللعب لينغمس المراهق في مرحلة أحلام اليقظة .

ـ تتناقص نشاطات اللعب مع التقدم في العمر . فعدد النشاطات التي ينغمس الطفل فيها تتناقص كلما ازداد عمرا ، ويعود ذلك لجملة أسباب ، منها ان للطفل الآن وقتا أقل ليمضيه في اللعب ، وبنفس الوقت لديه عدد آخر من الواجبات البيتية والمدرسية ، كما تظهر لديه اهتمامات معينة فيركز انتباهه على نشاط معين وليس على عدد من النشاطات .

ـ يتناقص عدد رفقاء اللعب بازدياد عمر الطفل ويعود ذلك الى أنه يصبح أكثر انتقائية كلما أصبح أكبر سنا وخاصة عندما يصبح عضوا في جماعة الرفاق .

ـ تزداد الفروق بين لعب الذكور ولعب الاناث مع ازدياد العمر ، ويعود ذلك الى الأسباب الاجتماعية والثقافية العامة التي تضع قيودا مختلفة على الذكور والاناث ، وتوقعات مختلفة من كليهما .

ـ يتناقص النشاط البدني في اللعب مع تقدم الطفل في العمر ، ذلك أن طاقة الطفل في البداية تكون كبيرة وتصرف أثناء اللعب ، ولكن كلما تقدم الطفل في العمر واقترب من مرحلة البلوغ أصبح بحاجة أكبر لهذه الطاقة لتصرف في عملية النضوج الكبيرة التي تحدث في هذه المرحلة ، وبذلك تصبح ألعابه أهدأ ، بالاضافة الى أن قدراته التفكيرية تكون قد نمت بشكل جيد ويصبح أقدر على استعمالها .

ليس مضيعة للوقت

ويشغل اللعب كل وقت الطفل الذي لا يكون فيه نائما أو مشغولا بالأعمال الروتينية كالأكل . وعلى الرغم من أن اللعب هو ـ بالنسبة للراشد ـ لملء وقت الفراغ ، الا أنه بالنسبة للطفل عبارة عن عمل هام جدا . ومن خلال انغماسه في اللعب يطور الطفل عقله وجسده ويحقق التكامل بين وظائفه الاجتماعية والانفعالية والعقلية التي تتضمن التفكير والمحاكمات وحل المشكلات والحديث والتخيل . وتلعب البيئة الطبيعية وتوجيه الآباء أدوارا حاسمة في تطور الطفل من خلال اللعب . ان فترة ما قبل المدرسة فترة مهمة جدا للنمو العقلي للطفل ، ومن خلال اللعب يصل الطفل الى تحقيق أقصى طاقات النضوج . ومن خلال اللعب أيضا يكرر الطفل خبراته السابقة حتى يستطيع أن يستوعبها وتصبح جزءا من شخصيته ، كما أن اللعب يهيىء الطفل للتكيف في المستقبل من خلال الاستجابات الجديدة التي يقوم بها أثناء لعبه .

لا ينظر الى اللعب الآن على أنه مضيعة للوقت ولكن على أساس أنه ضروري لنمو الطفل . والوالدان اللذان يحرمان طفلهما من اللعب في البيت أو مع أولاد الجيران إنما يحرمانه من حاجاته الأساسية للنمو ، فعن طريق اللعب يكتشف الطفل ذاته ويكتشف البيئة التي يعيش فيها ، وليس ذلك فحسب فللعب عدد من الفوائد والقيم منها :

- القيمة الجسدية : إن اللعب الحركي النشيط ضروري لنمو عضلات الطفل من ناحية ، وضروري أيضا لتنمية مهارات الاكتشاف ، وتجميع الأشيـاء التي اذا تراكمت جعلت من الطفل شخصا متوترا عصبيا حاد المزاج .

- القيمة التربوية : ان اللعب يفسح المجال أمام الطفل لكي يتعلم الشيء الكثير من خلال أدوات اللعب المختلفة ، كمعرفة الطفل للأشكال المختلفة والألوان والأحجام والملابس . كما يتعلم الطفل من خلال اللعب مهارات الاكتشاف وتجميع الأشياء وتصنيفها . وفي كثير من الأحيان يحصل الطفل على معلومات من خلال اللعب لا يستطيع الحصول عليها من مصادر أخرى .

- القيمة الاجتماعية : يتعلم الطفل من خلال اللعب كيف يبني علاقات اجتماعية جيدة مع الآخرين ويتعلم كيفية التعامل معهم بنجاح ، كما أنه يتعلم من خلال اللعب التعاوني واللعب مع الكبار الأخذ والعطاء والأدوار الحياتية المناسبة .

- القيمة الخلقية : يتعلم الطفل من خلال اللعب بدايات مفاهيم الخطأ والصواب كما يتعلم بشكل مبدئي بعض المعايير الخلقية كالعدل والصدق والأمانة وضبط النفس والروح الرياضية .

- القيمة الابداعية : يستطيع الطفل عن طريق اللعب أن يعبر عن طاقاته الخلاقة وأن يجرب الأفكار التي يحملها . ومن خلال التمثيل والرسم يستطيع الطفل أن يطور خياله الابداعي .

ـ القيمة الذاتية : يكتشف الطفل عن طريق اللعب الشيء الكثير عن نفسه كمعرفة قدراته ومهاراته من خلال تعامله مع زملائه ومقارنة نفسه بهم ، كما أنه يتعرف على مشاكله وكيف يمكن مواجهتها .

ـ القيمة العلاجية : يصرف الطفل عن طريق اللعب التوتر الذي يتولد نتيجة القيود المختلفة التي تفرض عليه ، ولذا نجد الأطفال الذين يأتون من بيوت تكثر فيها القيود والأوامر والنواهي يلعبون أكثر من غيرهم من الأطفال . كما أنه من أحسن الوسائل لتصريف العدوان المكبوت .

اللعب مع الرفاق

لا يصل الطفل الى مرحلة اللعب الجماعي المتعاون فجأة وإنما يسير في تسلسل منتظم قبل أن يبلغها . ولذلك يصبح اللعب وسيلة جيدة لدراسة تطور علاقات الطفل الاجتماعية. يكون الطفل في البداية عبارة عن مخلوق متركز حول ذاته ، ووجود الآخرين لا يعني لديه الشيء الكثير عدى عن كونهم يلبون له حاجاته عندما يشاء .

إن أول نوع من اللعب في حياة الطفل يسمى اللعب المنفرد فهو يلعب وحده ولا يستطيع أن يتشارك أو يتعاون مع أي شخص آخر ، وغالبا ما يكون هذا النوع من اللعب موجها نحو اكتشاف الأشياء من حوله . وهذا النوع من اللعب هو الذي يميز ابن السنة الأولى . وعند انتقال الطفل الى السنة الثانية من العمر فانه يستطيع أن يلعب مع طفل آخر في نفس المكان ، لكن دون أن يتشارك الاثنان في نفس الألعاب ، وهذا ما يسمى عادة باللعب المتوازي . أما في السنة الثالثة من العمر فيظهر اللعب المشترك الذي يستطيع فيه الطفل أن يتشارك مع طفل آخر في نفس الألعاب ولكن لفترة قصيرة من الوقت ، فسرعان ما تظهر الخلافات بين الطفلين وخاصة اذا تدخل شخص ثالث بينهما .

وفي عمر الرابعة يظهر اللعب المتعاون ، أي اللعب الجماعي بمعنى الكلمة ، حيث تقوم مجموعة من الأطفال بالتعاون معا في لعبة جماعية . ثم

• ما يلبث أن يظهر اللعب مع فريق منظم في السنوات الخامسة والسادسة من العمر . ومن خلاله يتعلم الطفل كيف يصبح فردا في جماعة ، وكيف يتخذ دورا محددا فيها ، وكيف يستمتع مع الآخرين في القيام بمهمة ما . ومن خلال هذا النوع من اللعب تتطور صداقات الأطفال وتنعكس هذه الصداقات على اختيارات رفقاء اللعب .

وتمثل ألعاب الأطفال جانبا مهمًا من جوانب محاولات الطفل فهم البيئة التي يعيش فيها . ويبدأ هذا الجانب أساسا عندما يتمكن الطفل من الامساك بالأشياء بيديه وتقليبها للتعرف على مظاهرها المختلفة . ويبدأ ذلك عادة عندما يتمكن الطفل من الامساك (بالخشخيشة) في حوالي الشهر الثالث أو الرابع من العمر . وفي الشهر الخامس يتمكن الطفل من الوصول الى مكعب وتحريكه براحة يده . أما في الشهر الثامن فيستطيع أن يمسك بمكعبين كل واحد بيد ، وفي الشهر التاسع يتحسن امساك الطفل للأشياء . وعندما يتمكن الطفل من المشي فانه يبدأ بتفضيل الألعاب التي يمكن أن تسحب أو تجر أو تدفع ، وهذه الالعاب تصبح مهمة جدا لنمو عضلات الطفل . وفي بداية السنة الثانية تبدأ المرحلة الفعلية للعب بالألعاب وتصل ذروتها في حوالي السنة السابعة أو الثامنة . وفيما بين السنة الثانية والسادسة تصبح السيارات والعربات من أكثر اللُعب تفضيلا للأطفال الذكور بشكل خاص بينما تفضل الاناث الدمى والأدوات المنزلية الأخرى . وأيا كانت ألعاب الأطفال فانها يجب أن تكون بسيطة بقدر الامكان ، ذلك لأن التناسق العضلي عند الطفل لا يزال غير مكتمل .

اعتبارات عند الاختيار

ان هناك عددا من الاعتبارات التي يجب أن توضع في الحسبان عند اختيار اللعب للاطفال نذكر منها :

● ان الأطفال يكتشفون العالم من خلال ألعابهم ويقومون بهذا

الاكتشاف عن طريق الرؤية والسمع واللمس والذوق ، ولذا يجب أن تكون لُعب الأطفال من ألوان براقة وأوزان خفيفة وملامس مختلفة ، كما أنها يجب أن تكون من النوع الذي يمكن غسله وتنظيفه ، ومن أحجام لا يمكن ابتلاعها وأن لا تكون حادة الأطراف كي لا تؤذي الأطفال .

● يجب أن تتناسب الألعاب مع أعمار الأطفال فاللعبة المعقدة لطفل صغير لن تؤدي الغرض التربوي المنشود . ان قطارا خشبيا بسيطا يمكن أن يسحبه الطفل أو يدفعه كما يشاء أفضل بكثير من قطار كهربائي لا يستطيع الطفل أن يلعب به متى يشاء .

● ان الألعاب التي تعتبر أعلى من مستوى الطفل قد تسبب له بعض الاضطراب الانفعالي ، فاللعبة الغالية التي يجب أن يعتنى بها الطفل دوما لا تؤدي غرضا تربويا . ومن هذه الناحية فان اللعبة الرخيصة التي يستطيع أن يلعب بها كما يشاء بدون أن يحسب أي حساب لما يمكن أن يحدث لها لهي أفيد بكثير .

● أن يراعى في الألعاب أن تكون من نوع يتيح ويشجع تقليد سلوك الكبار ، ومن هذه الناحية تصبح الأدوات المنزلية وأدوات العمل ألعابا نافعة جدا .

ومن هنا تبرز الأهمية الحقيقية لألعاب الأطفال ،ولذلك لا بد عند اختيارها من مراعاة كل هذه النقاط ولذا يجب أن يسأل الفرد نفسه الأسئلة التالية قبل أن يقوم بشراء الألعاب :

هل اللعبة التي سأقوم بشرائها من النوع الذي يستثير نشاطا جسديا صحيا ومفيدا للطفل ؟ هل هي من النوع الذي يرضي الحاجة للاكتشاف والتحكم في الأشياء ؟ هل هي من النوع الذي يتيح التفكيك والتركيب ؟ هل هي من النوع الذي يشجع على تقليد سلوك الكبار وطرائق تفكيرهم ؟ فاذا كانت الاجابة على هذه الأسئلة بنعم فان اللعبة التي يتم شراؤها هي لعبة مناسبة ومفيدة تربويا .

الموسيقا والرقص والرسوم

وتظهر النزعة الابداعية عند الأطفال من خلال الأداء الموسيقي والرقص من جهة ومن خلال الاستمتاع بهما من جهة ثانية . إن البيئة الغنية تربويا تزود أطفالها بفرص للتعامل مع الصوت والحركة ومزجهما معا . إن الأطفال يستمتعون بالأغاني ويستجيبون لها أيضا . ان طفل السنتين الذي توجد له خبرة سابقة مع الغناء يستمع للآخرين وهم يغنون ويقوم هو تلقائيا بالغناء أثناء لعبه . انه يحب الأغاني الحركية التي يستجيب فيها للكلمات بحركات معينة . كما انه يتمكن من أن يشارك بعدد من الكلمات عندما يغني الآخرون ، ولكن هذه المهارة لا تلبث أن تتطور سريعا بحيث يصبح قادرا على طلب بعض الأغنيات الخاصة وأن يميز بعض القطع الموسيقية .

ان هذا التعبير الابداعي لا يمكن أن يتم الا بتوفير تسهيلات ضرورية نذكر منها :

أن يعطى الطفل فرصة حقيقية للاستماع والغناء ـ كأن يزود بأدوات موسيقية بسيطة ليستعملها والكثير منها يمكن أن يحضر من أدوات بسيطة للغاية،وأن تتوافر مجموعة من الأطفال يلعب معها ويستمع معها وأن يزود بخبرات لتصبح محور لعبه وغنائه واستماعه . وهنا تخدم القصص البسيطة هذا الغرض بشكل جيد .

ان الرقص والموسيقا يزودان الأطفال بامكانات هائلة للتعبير والاستمتاع ، ولربما أكثر مما هو الحال مع الكبار . إن الموسيقا تؤدي لتنمية استجابات عاطفية انفعالية عند الناس وبشكل خاص عند الأطفال .

إن ما يقال عن الرقص والغناء يقال أيضا عن تعبير الأطفال الصغار من خلال الرسوم والمكعبات والمعجون فهي توفر نفس الفرص التي توفرها الألعاب الدرامية والنشاطات الابداعية الأخرى ، فهي تؤدي الى ازدياد فهم الطفل للعالم الذي يعيش فيه وعلاقته بهذا العالم ، كما أنها تؤدي الى التعبير عن أسئلته

وأشكالها وفهمها ، كما أنها تنفس عن توتراته الانفعالية ، وتعطيه شعورا بالرضى نتيجة ما أبدعه من جمال ونظام . ان أول تعامل للطفل مع الألوان أو الصلصال أو أي مادة جديدة يكون على شكل محاولة الطفل اكتشاف هذا الشيء ، كيف يبدو ؟ وماذا يمكن أن يعمل به ؟ كاكتشاف أن الألوان هي للاستخدام على الورق والمكعبات هي للعب وليس لقذف الناس بها . أما بالنسبة للرسم بشكل خاص فان هناك عددا من المراحل التي يمكن التعرف عليها والتي يمر الأطفال فيها عادة خلال سنوات تقريبية :

● المرحلة الأولى هي مرحلة « الخربشة » وتمتد من السنة الأولى الى الثالثة من العمر على وجه التقريب . يتمكن الطفل في حدود النصف الأول من السنة الثانية أن يضع بعض الخطوط على ورقة بواسطة قلم عريض ، لاسيما عندما يرى شخصا آخر يقوم بذلك أو عندما يشجع على القيام بذلك . وفي النصف الثاني من هذه السنة تصبح الخربشة حركة تلقائية حتى لو لم توجد ورقة . فابن السنتين يقوم بعمل خطوط على التراب في الشارع أو على جدران المنازل . وفي أثناء ذلك يبدي الطفل اهتماما ما بعمل ويقوم بتنويع خطوطه .

● المرحلة الثانية تعرف بمرحلة الأشكال والتصاميم وتمتد من نهاية السنة الثانية الى الخامسة . في هذه المرحلة يطور الطفل من الخطوط التي تعلمها في المرحلة السابقة بحيث يصنع منها أشكالا وتصاميم معينة . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه الأشكال والتصاميم لا تعبر عن شيء وانما هي من أجل المتعة فقط . وغالبا ما يكون للطفل نمط خاص به ومجموعة من الألوان يختارها هو ، وليس من الحكمة التدخل لتغيير أسلوبه أو جلب ألوانه الى الواقع الذي يراه الكبير .

● المرحلة الثالثة تعرف بمرحلة الصورة وهي تبدأ في العادة مع نهاية السنة الرابعة أو بداية الخامسة وتمتد الى ما بعد ذلك . وفي هذه المرحلة يستعمل الطفل خطوطه وأشكاله ، وتصاميمه لتمثيل الواقع . وأول ما يمكن

تمييزه من رسوم الأطفال هو رسم الأشخاص . وفي كل أرجاء العالم ، يقوم الأطفال الصغار برسومهم بنفس الطريقة . ان صور الأشخاص والبيوت والأشجار والشمس والمراكب والقطارات والسيارات التي يرسمها الأطفال لا تعطي إلا دلالة بسيطة لأي البلدان ينتمون .

رسوم خلاقة

وعلى العموم فان رسوم الأطفال خلاقة ، فهي ليست نسخا مباشرة للأشياء والأشخاص . فالطفل يرسم الأشياء كما يتذكرها أو كما يحب هذه الأشياء أن تكون . وهو بنفس الوقت لا يهتم بالأبعاد والنسب والعلاقات . فهو يضع التفاصيل التي يهتم بها ، فهو مثلا قد يبالغ بوضع الشعر على الرأس ولكنه ينسى بنفس الوقت أن يضع الأرجل . وعندما يدخل الطفل المدرسة تظهر رسومه اتجاها نحو الأبعاد والنسب والعلاقات الصحيحة ، وتظهر تفاصيل دقيقة . ولسوء الحظ فان رسوم الأطفال تفقد الكثير من أصالتها نتيجة التدريب على الرسم الذي يتم في المدرسة سنة بعد سنة . فغالبا ما يركز المعلمون في تدريبهم على العالم الواقعي الذي يجب أن يراه الطفل وليس على تطوير خياله وقدراته الابداعية .



أسئلة الأطفال .. نافذة مغلقة أم مفتوحة على مُستقبلِهم ؟

بقلم : كمال زاخر لطيف

أيهما يعبر أكثر عن درجة ذكاء الطفل ، ومدى نموه العقلي : هل هو ما يرد به من اجابات صحيحة على أسئلة الكبار . . ؟ أم ما يطرحه من أسئلة واستفسارات ، يطلب بها إجابات من الكبار ؟

اعتاد الكبار من آباء ومعلمين ، أن يسعدوا باجابات الاطفال التي تدل ـ من وجهة نظرهم ـ على أن اطفالهم قد اكتسبوا القدر اللازم من المعرفة بالحقائق والمعلومات ، ولكنهم تعودوا في نفس الوقت على عدم الاهتمام بأسئلتهم ، أو تجاوزها ، أو على الأقل الإجابة عليها اجابات متسرعة غير متأنية ، دون التأمل فيها ، أو التعرف على عناصرها الفكرية وأصولها العقلية .

وقد وضع أصحاب اختبارات الذكاء شروطا ومحاذير ينبغي أن تجري في ظلها مثل هذه الاختبارات ، لكنهم جميعا أصروا على أن الوسيلة المثلى لتقدير مستوى الطفل العقلي هي قدرته على التوصل الى الإجابة المطلوبة نفسها .

لهذا السبب أهمل الكبار أسئلة الصغار . إن إهمال أسئلة الصغار والتبرم

العربي العدد ٣٤٧ أكتوبر ـ تشرين الاول ١٩٨٧م

منها أحيانا ليس بسبب عدم معرفة أهميتها وجهل دورها النفسي والتربوي فحسب ، بل ولأسباب أخرى ، أهمها :

١ ـ شعور الكبير بغرابة سؤال الصغير ، أو بتفاهته أو عدم جديته ، مما يجعله لا يهتم به أو يعيره التفاتا .

فيقع الكبار بذلك في مطب تجاوز حقوق الصغار في التفكير بطرائقهم الخاصة التي تتميز بالبساطة ، والوضوح ، والمنطق العقلي البحت أحيانا ، والمنطق الواقعي البحت أحيانا أخرى ، وهذا التجاوز يمثل شكلا من أشكال « الديكتاتورية » العقلية التي يتمسك بها الكبار ناسين أو متناسين أن الطفل يطلق سؤاله البسيط الساذج عن رغبة صادقة في المعرفة ، أو اكتشاف العالم الذي يحيط به بدافع من مثيرات خارجية في مواقف معينة ، فضلا عن الهدف النفسي العاجل لسؤاله ، وهو إعادة التوازن النفسى الذي يفقده في موقف ما .

٢ ـ ادراك الكبار صعوبة السؤال الذي يطرحه الطفل حين يكون السؤال متصلا بجانب من جوانب المحرمات الاجتماعية أو الأخلاقية ضمن اطار ثقافي معين ، لا يسمح بتناوله في سن معينة .

وحيرة الكبار أو عجزهم ازاء مثل هذه الأسئلة التي يلقيها الصغار هما مشكلتا الكبار ، ومن هنا وجب على الكبار أن يعدوا أنفسهم الاعداد الجدي الذي يساهم في الاجابة السليمة عن مثل هذه الأسئلة ، حتى لا يسقطوا في الامتحان ، ويظهروا بالمظهر الذي لا يتوقعه منهم الصغار .

٣ ـ أحيانا تشكل كثرة أسئلة الأطفال ، وتلاحقها ، أو عدم انتظار الاجابة عنها سببا آخر من أسباب الاهمال الذي يبدو من الكبار .

ولو أدرك الكبار أهمية أسئلة الأطفال من الناحية النفسية لكان لهم موقف آخر ، وهو التشجيع حتى يستمر الأطفال في طرح أسئلتهم وكأنهم يفكرون بصوت مسموع .

٤ ـ وكذلك فان من بين الأسباب التي تجعل الكبار لا يعيرون أسئلة الأطفال

القدر الواجب من الالتفات والاهتمام أن بعض هذه الأسئلة يأتي بصورة ضمنية ولا يأتي بشكل مباشر .

قيمة تربوية

إلا أنه على الرغم مما تلقاه أسئلة الأطفال من أهمال في حياتهم اليومية فان الدراسات « الأكاديمية » بصفة عامة قد أولتها اهتماما كبيرا منذ فترة طويلة ، ويمكننا أن نجد بحوثا ودراسات تنشرها المجلات العلمية بين حين وآخر ، غير أن هذه الدراسات لم تجد طريقها الى التطبيق العملي في حياة الأطفال ، سواء في البيت أو في المدرسة ، وبقيت هذه الأسئلة كقيمة تعليمية وتربوية مهدورة ، وليس أدل على ذلك من أن العاملين في الحقل التعليمي يلاحظون أن أسئلة الأطفال تتضاءل كما وكيفا كلما تقدموا في السن ، فاذا ما التحقوا بالمدرسة ألفيناهم يتسابقون الى الاجابة على أسئلة مدرسيهم التي لا تتوقف طيلة الدراسة ، ولا يفكرون كثيرا في أن يسألوهم أسئلة قد تخطر ببالهم أو تعن لهم أثناء الشرح ، ولعلهم نسوا أو تناسوا أن من حق الأطفال أن يفكروا بالطريقة التي تروق لهم ، لا بالطريقة التي تروق للكبار .

أسئلة الأطفال صيغها ووظائفها

نستطيع أن نميز بين نوعين من الأسئلة :

النوع الأول عقلي (لغوي) ، والنوع الثاني نفسي . وفي النوع الأول (العقلي) يحاول الطفل أن يستخبر عن شيء ، أو أن يخبر عنه ، وهي تبدأ عادة بلماذا ، أو كيف ، أو ما ، أو الهمزة ، الخ .

أما النوع النفسي فيعبر عنه الطفل بسؤال يأتي في شكل خبر يلقيه على السامع ، لكنه في حقيقته سؤال يريد أن يتعرف على اجابته ، كأن يقول طفل :

« بابا سيحضر لي لعبة » ، وهو يقصد « هل سيحضر لي بابا معه لعبة ؟ » ومن الضروري أن نؤكد حقيقة أساسية ونحن بصدد تحليل أسئلة الأطفال بقصد فهم دورها في تنمية ذكائهم وقدراتهم العقلية ، وهي أن للاسئلة دلالة موقفية قاطعة ، فنحن لا نستطيع أن نقدر قيمة السؤال أو أن نفهمه ونحدد معناه إلا من خلال الموقف المعين الذي دفع الطفل الى السؤال ، فليس للسؤال قيمة في ذاته ، لكنه يستمد قيمته ودلالته وأهميته من طبيعة الموقف الذي يحيط به وظروفه .

ولأسئلة الأطفال ثلاث وظائف تكوينية هامة هي :

١ ـ تحقيق التوازن النفسي لدى الطفل .

٢ ـ التفكير الاستنباطي ، للتعرف على البيئة المحيطة به .

٣ ـ التعرف على القيم الخلقية والسلوكية التي تقع داخل الإطار الثقافي والاجتماعي الذي يعيش فيه الطفل .

موقف الوالدين من أسئلة الأطفال

يعتمد الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة الابتدائية اعتمادا كليا على الوالدين ، وعلى الأم بوجه خاص ، فعن طريقهما يتعرفون على كثير من الحقائق والمعارف والمعلومات ، وهم بهذا يحملونهما مسئولية أساسية نحو نموهم العقلي ونموهم الاجتماعي ، كما يحملونهما المسئولية نحو نموهم الجسمي والصحي .

ونود أن نخلص من عرضنا هذا الى بعض المبادىء الاساسية التي ينبغي على الآباء والأمهات مراعاتها . ولنبدأ بأهم هذه المبادىء ، وهو مبدأ عدم الاهتمام بأسئلة الأطفال :

فالوالدان اللذان يصغيان لأسئلة أحد أطفالهما يشعرانه بمشاركته همومه ، وباحترامها وتقديرها ، وهذه المشاركة تعيد الى الطفل ـ في موقف التساؤل نفسه ـ توازنه النفسي ، واطمئنانه ، وسرعان ما نلمس نبرة الثقة بالنفس ،

والدقة في طرح السؤال ، والتتابع المنطقي في مسار الحوار ، والتوقف عنه في الوقت المناسب له ، والاكتفاء بالقدر اللازم منه .

اما ثاني هذه المبادىء فيتمثل في مبدأ الصدق في الاجابة ، ونعني بالصدق في الاجابة أن يتحرى الآباء والأمهات الدقة في الحقائق العلمية التي يقدمونها لأطفالهم من خلال مفردات لغوية معروفة ومألوفة لهم ، وتبسيط هذه المعلومات في إطارها العلمي الصحيح ، والمحافظة على إطار المفردات التي تعـود عليها الأطفال ، ولا بأس من اضافة المفردات الجديدة ، لكن بحساب .

من المألوف عادة ـ أن يسأل الأطفال أسئلة تدور حـول مسائـل جنسية فليس من الغريب أو الشاذ أن يبحـث الـكائن الحي العاقل عن أسباب حياته ، ومقوماتها ، بل العكس هو الغريب والشاذ ، وقد أصبحت الآن هذه الأسئلة شائعة ، ومألوفة ، وبسبب ما تردده أجهزة الاعلام كالتلفاز والاذاعة وغيرهما . وصدق الاجابة على هذه الأسئلة في اطار المفردات اللغوية المقبولة المألوفة لدى الأطفال ـ كما سبق أن ذكرنا ـ يعني في نهاية الأمر تحقق حالة الاستقرار والتوازن النفسي والأمن .

ويأتي بعد ذلك ثالث المبادىء اللازمة ، وهو مبدأ معالجة الدوافع الخاصة للأطفال ، أي تلك الدوافع الناشئة من سياق الموقف الـذي يعيشون فيه ، فالطفل الذي يشعر بالقلق والانزعاج من جراء مولد طفل جـديد في الأسـرة فيسـأل : من أين يأتي الأطفـال ؟ لا يمكن أن تحل مشكلتـه بمجـرد الاجـابـة العلمية ، لكنه في حاجة الى معالجة الدافع الحقيقي الذي دفعه الى طرح هذا السؤال ، والاهتمام به اهتماما خاصا .

موقف المدرسين والمدرسات في المدرسة :

من الملاحظ بصفة عـامة أن الأطفـال يفقدون اهتمـامهم بالأسئلة التي يطرحونها على مدرسيهم ومدرساتهم بمـرو ر سنوات الـدراسة ، ويـركزون

اهتماماتهم حول الاجابات التي يتدربون عليها ، استجلابا لرضا مدرسيهم ، فالحياة المدرسية الآن بصفة عامة تعتمد على مسلمة غريبة ، هي أن السؤال حق موقوف على المدرس أو المدرسة ، وأن الاجابة واجب مقصور على التلميذ ، سواء كان صغيرا أو كبيرا ولا يمكن أن يكون الأمر على عكس ذلك !

وحين يطرح هذا الموضوع على بساط البحث والمناقشة في اجتماعات المعلمين ولقاءاتهم في برامج التدريب سرعان ما يتصايحون متعللين بالمناهج المقررة التي لا تسمح بالأسئلة الخارجة عنها ، وبأن الوقت والحصص المحددة لا تفسح المجال لمثل هذه الأسئلة .

ان الأمر هنا يصبح أسلوبا مباشرا لتدمير عقل الطفل ، والوقوف في طريق نموه كإنسان يتعايش مع مكونات مجتمع معين . كيف يمكن لنا أن نتوقع اكتشاف الطفل لذاته ، وفهمه لمجتمعه ، والشعور بالانتماء اليه دون أن نفتح له القلب والعقل بالاجابة على كل ما يدور في خلده من تساؤلات ؟

ان التقليل من مبدأ حق الطفل في أن يسأل عن كل ما يعن له اثناء الدرس يعني في نهاية الأمر إلغاء حق الطفل في النمو ، ووضعه تحت تأثير أسلوب غير « ديموقراطي » في التعليم .

نود أو نوجز أخيرا بعض السمات الأساسية لهذا التغيير اللازم فيما يلي :

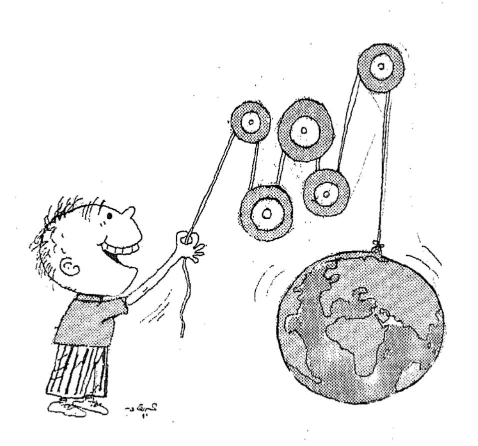
١ ـ ضرورة أن يكون للمناهج بصفة عامة طابعها المحلي ، بالاضافة الى أهدافها العامة الشاملة .

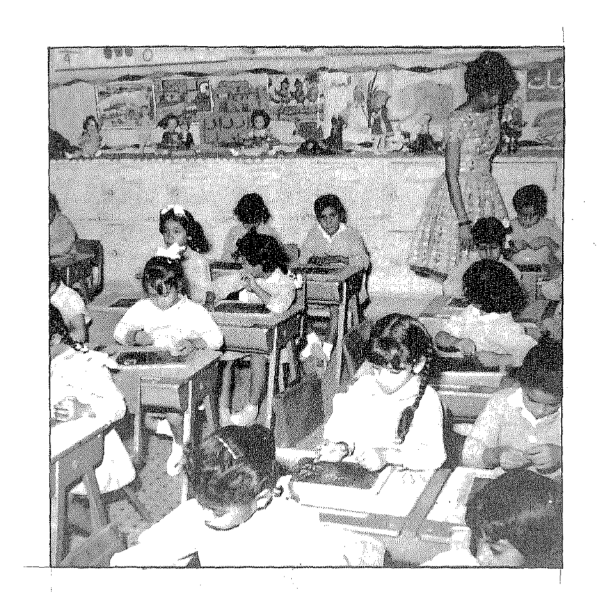
٢ ـ حق التلاميذ في اختيار مواد معينة من ضمن مجموعات نوعية من المواد الدراسية .

٣ ـ تعديل النظم الادارية التقليدية الموجودة حاليا في شكل حصص وجداول دراسية صارمة المواعيد .

٤ ـ تدريب المدرسين والمدرسات في مراحل التعليم المبكرة على الاهتمام بأسئلة الأطفال ، وطرق الاجابة عليها ، وتشجيع الأطفال على طرحها دون خوف ، أو تحسب شديد .

٥ ـ الاقلاع عن طرق الامتحانات والاختبارات السائدة الآن ، لا سيما في سنوات الطفولة المدرسية المبكرة ، واستبدالها بأساسيب حديثة ، تقوم على احترام حركة النمو ، كنشاط طبيعي نلمسه حين يلعب الأطفال منفردين أو مع غيرهم ، وحين يرسمون بالقلم أو الفرشاة مع غيرهم ، وحين يعلقون على أحداث أو وقائع معينة .





عندما يتعثر الأطفال في التعليم

بقلم : الدكتور غسان حتاحت

مشاكل التعليم عند الأطفال كثيرة ، منها ما يتمثل في عدم قدرة الطفل على القراءة والكتابة بصورة جيدة ، أو عدم قدرته على القيام بالعمليات الحسابية المختلفة المناسبة لسنه ، ومنها ما ينجم عن عدم استطاعته التركيز ، أو عن قصر فترة الانتباه لديه ، أو عن زيادة غير طبيعية في حركاته .

وتنجم هذه المشاكل غالباً عن عوامل نحصرها في الآتي :

١ ـ عوامل البيئة أو المحيط وتشمل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية .

٢ ـ العوامل النفسية والعاطفية .

٣ ـ العوامل الجسمية مثل وجود بعض الأمراض الخاصة أو وجود اضطرابات في النمو والتطور .

وسأقتصر في الكلام هنا عن الأطفال الذين يعجزون عن الوصول الى مستوى مقبول في دراستهم يتناسب مع أعمارهم عندما تكون ظروف الدراسة جيدة وامكانيات التعليم متوفرة .

العربي العدد ٢٧١ يونيو ـ حزيران ١٩٨١ م .

وسأتجاوز عن مناقشة حالة قسم من الأطفال الذين يتخلفون بسبب الاضطرابات العاطفية أو النفسية أو الاجتماعية ، لأتكلم فقط على حالة الأطفال الذين لا يبدو لديهم أي مظهر مرضي جسميا كان أم نفسيا .

ان اضطرابات التعلم في الظاهر هي مشكلة عجز الطفل على الوصول الى المستوى الذي يتوقعه منه المعلمون أو الأهل ، وهذا يتفاوت طبعا حسب الأشخاص . أما التحديد الدقيق للاضطرابات الحقيقية بصورة علمية فانه يتطلب اجراء فحوص خاصة ، ليتبين مدى قصور الطفل ونوعية هذا القصور ، وهل هو في القراءة أم الكتابة مثلا أو في الحساب أو في التعبير أو في التكييف مع رفاقه ومعلمه . وإن نتائج اختبارات الذكاء التقليدية وتقدير (I.Q.) التي تجري للأطفال بشكل جماعي لا تعطي فكرة دقيقة وصحيحة ، بل يجب اجراء مثل هذه الاختبارات بصورة فردية .

وسأحاول فيما يلي تحليل بعض أسباب ومظاهر اضطرابات التعلم :

نضج الجهاز العصبي

عندما يصاب جزء من الجهاز العصبي الناضج تظهر اضطرابات في الوظائف المرتبطة بهذا الجزء . أما عند الأطفال حيث ما يزال الجهاز العصبي في طور النمو فقد لا تؤدي الاصابة الى اضطراب آني بل قد تتجلى فيما بعد بظهور هذه الوظائف متأخرة وتطورها ببطء ، مثال ذلك المشي : فالطفل الصغير ـ كما نعلم ـ لا يبدأ بالمشي إلا في سن معينة (تتراوح ضمن حدود العام ونصف العام) فإذا أصيب الجهاز العصبي لديه لسبب أو لآخر بحيث أثر على وظيفة المشي فان اضطراب المشي لا يظهر لديه إلا عندما يبلغ الطفل تلك السن .

وكذلك الأمر في التعلم ، فإصابة الجملة العصبية خلال الفترة الاولى من الطفولة قد تؤدي الى تأخر ظهور القدرة على التعلم لدى الطفل بحيث تماثل

حالته حالة طفل أصغر منه سنا . وما يعانيه المعلم في تدريس هذا الطفل هو نفس ما نعانيه اذا جربنا أن نعلم القراءة لطفل عمره أربعة أعوام مثلا . وهؤلاء الأطفال يتحسنون عادة مع مرور الوقت ومع نضج الجملة العصبية .

وأحب أن أشير هنا الى ناحية عملية هي أن هؤلاء الأطفال الذين تأخر نضج الجملة العصبية لديهم أصبحوا بالتالي ذوي طاقة محدودة لا يستطيعون أن يستفيدوا من طاقتهم هذه اذا وضعوا في مستوى أعلى من المستوى الذي يناسبهم فعلا فلا هم يتعلمون حسب المستوى الأعلى ولا هم يتعلمون حسب مستواهم .

وان التحسن الذي يطرأ على هؤلاء الأطفال ينشأ عادة عن سببين :

١ ـ التحسن العفوي الذي يحصل تلقائيا ويؤدي لنضج الجملة العصبية . وقد يتم ذلك أحيانا بشكل طفرات .

٢ ـ التحسن الذي يظهر عندما نزيل عن الطفل صفة التقصير وذلك بوضعه في المستوى المناسب له .

وان استعمال اليد اليسرى عوضا عن اليمنى في الكتابة لا ينجم عادة عن عدم نضج الجهاز العصبي وإنما هو حالة غريزية تظهر بصورة طبيعية لدى بعض الناس ، ومحاولة اجبار الطفل على استعمال اليد اليمنى هو الذي يضر بحالته النفسية . ذلك أن استعمال أي من اليدين ذو علاقة بالدماغ وكل محاولة محيطية للتغيير لن تؤدي حتما الى أي تغيير في الدماغ .

اختبارات الذكاء

ان اختبارات الذكاء بصورة عامة كقياس (I.Q.) لا تعطي فكرة دقيقة عن حالة الطفل . والمهم هو اختبار العناصر المكونة للذكاء كل على حدة . وقد لا يبدو واضحا عدم نضج أحد هذه العناصر إلا بعد الالتحاق بالمدرسة .

وأضرب مثالا على ذلك ، فبعض الناس لا يهتمون على الاطلاق بالموسيقا أو الرسم ، وهؤلاء يستطيعون أن يعيشوا حياة كاملة طبيعية دون أن يؤدي هذا الأمر الى أية مشكلة . أما خلال الدراسة فهم مجبرون على الاهتمام بهذه الأمور مما يظهر قصورهم فيها . ذلك أننا خلال الدراسة نفعل ما يطلب منا أما عندما نترك المدرسة فاننا نفعل ما نحب ، اذا أسعدنا الحظ ! ولذلك فان الاختبارات التي تعطي فكرة دقيقة عن حالة الطفل يجب أن تشمل اختبارات خاصة بالكلام واللفظ واختبارات القدرة على استعمال العدد والحساب ، والقدرة على الفهم والاستيعاب ، والقدرة على الانتباه والتركيز . . . الخ ، كل على حدة . وبمعرفة مواضع الضعف يمكن ايجاد العلاج الملائم .

تمييز طبيعة الأشكال والحروف

عندما نطلب من طفل عمره ثلاثة أو أربعة أعوام أن ينسخ شكلا ما فإنه قد يفعل ذلك بشكل مقلوب . وهذا طبيعي بالنسبة لسنه ، وسببه أن الطفل لا يرى فارقا بين الشكل الأصلي والشكل الذي نسخه هو بصورة مقلوبة . بل إنه يستغرب كيف أن المعلم قصير النظر ، محدود القدرة على ابتكار الأشكال حتى انه يسمي نفس الشكل بأسماء مختلفة . كالحروف التالية : b, p, g, d أو ب و ن .

ان فكرة كون الأشياء تتميز بوضعيتها هي فكرة لا يعرفها الطفل الصغير . فهو يعلم أنه أينما وجدت أمه فهي أمه نفسها ، وكيفما رأى زجاجة الحليب فهي زجاجة الحليب . واذا به يفاجأ أن الحروف والأرقام غير ذلك ، ثم تزول هذه المفاجأة عندما يكبر الطفل . وبعض الأطفال الذين يستطيعون نسخ الأحرف بصورة صحيحة قد لا يستطيعون تذكر وضعية الحرف عن ظهر قلب خاصة اذا كان هذا الحرف ضمن كلمة ، حيث تصبح عملية التذكر ذات شقين

هما : ما هي هذه الأحرف وما هي وضعيتها .

ان تعليم الأطفال الذين يعكسون الحروف والأشكال يستلزم طريقة بسيطة وهي نفسها الطريقة التي يجب أن تتبع في التعليم من المهد الى اللحد ، وتعتمد على تحليل عناصر الفكرة ثم معرفة أي هذه العناصر هو غير المفهوم ، ثم محاولة تبسيط ذلك العنصر . فلا يكفي أن نقول ان هذا الحرف b يلفظ هكذا وهذا الحرف d يلفظ هكذا لأننا قد حاولنا أن نعلم الطفل الشكل والصوت والارتباط بينهما في وقت واحد . في حين يجب أن نبين أولا أن أشكال هذه الحروف مختلفة عن بعضها مع بيان أوجه الاختلاف . ثم يجب أن نوضح لفظ كل منها ثم نربط بين اللفظ والشكل . دون أن ننتقل من خطوة الى أخرى إلا بعد أن يفهمها الطفل جيدا .

وترتيب الحروف والأرقام

ما بين السنة السادسة والسابعة يمكن للطفل أن يميز بين الأشياء حسب ترتيبها كأن يعرف الفرق بين الجهة اليمنى واليسرى ، وعدم نضج هذه المقدرة يؤدي الى عدم استطاعة الطفل التهجئة وترتيب الأرقام . فهو لا يستطيع أن يعرف الفرق بين ٧٥ و ٥٧ مثلا ، ويمكن فحص هذا الأمر ببساطة بأن نمسك أصبعين غير متجاورين من أصابع الطفل ونطلب منه أن يخبرنا بعدد الأصابع بينهما . والطفل الذي يستطيع أن يعرف ذلك هو الطفل القادر على فهم أهمية الترتيب والوضعية .

ان القراءة والكتابة بصورة عامة تتطلبان أولا التمييز بين أشكال الحروف واتجاهاتها وترتيبها ، ومعرفة لفظها وتمكن الطفل من تذكر ذلك كله ، كي يستطيع أن يحلل الكلمة الى عناصر لفظية أو يحول الألفاظ الى كلمات مكتوبة ولابد قبل ذلك وخلاله من الانتباه والاصغاء،فبعض الأطفال يتوقفون عن

الانتباه والاصغاء قبل انتهاء المعلم من كلامه ، وقد ينجم هذا عن نقص القدرة على التركيز وقصر فترة الانتباه وفرط الحركة لدى الطفل .

ولابد من الاشارة هنا الى أن عدم تمكن الطفل من القراءة والكتابة هو اضطراب مستقل عن عدم تمكن الطفل من الحساب ومعالجة الأرقام . وليس هذان الاضطرابان متلازمين بالضرورة .

الحركة الزائدة

هذه الحالة غير شائعة لكنها سبب هام من أسباب اضطرابات التعلم . وتنجم عن أحد ثلاثة أمور :

١ ـ قد لا يكون الطفل على درجة كافية من الذكاء ليفهم ما يقال (أو قد يكون ما يقوله المعلم غير مفهوم أصلا) . مما يؤدي لتململ الطفل في مقعده وانشغاله بأمور أخرى . ويلاحظ هذا أيضا عند الكبار عندما تكون المحاضرة غير مفهومة !! .

لذلك فإن الأطفال مفرطي الحركة في الصف يجب ألا يكونوا أصلا في ذلك الصف لأنهم لا يفهمون ما يقال .

٢ ـ قد يكون فرط الحركة ناجما عن القلق ويشاهد هذا لدى الأطفال المشغولين بمشاكلهم النفسية والعاطفية التي تمنعهم من التركيز والانتباه .

٣ ـ أما القسم الثالث فهم الأطفال المصابون بفرط الحركة . وهم الوحيدون الذين قد يستفيدون من المعالجة الدوائية . ويمتاز هؤلاء عمن سواهم بأن فرط حركتهم دائم وليس في المدرسة فقط كالحالتين السابقتين . وهم يبدون سعداء على الرغم من فرط الحركة ، بينما يبدو الآخرون مهمومين قلقين .

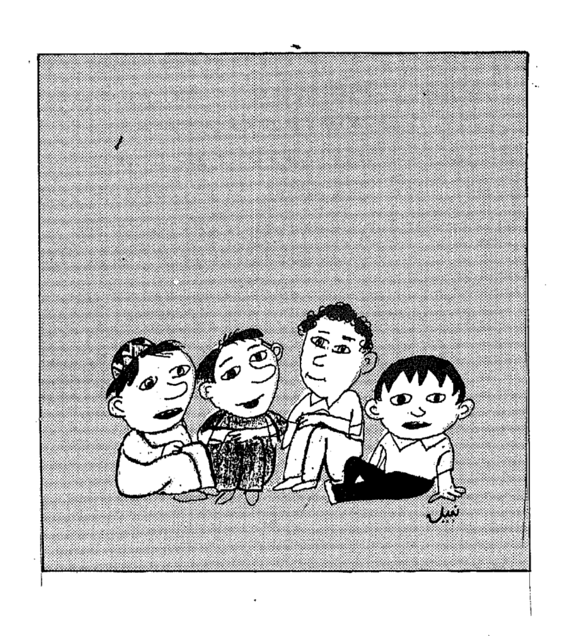
وفي العادة يراجع هؤلاء الأطفال الطبيب بين السنتين والثلاث من العمر بالنسبة لأطفال العائلات المتوسطة والغنية . وبين السادسة والسابعة من العمر

بالنسبة لأطفال العائلات الفقيرة ، وسبب ذلك أنه في العائلات المتوسطة لا ترضى الأم بأصوات التكسير والتخريب الناجمين عن فرط الحركة لدى الطفل . بينما يقضي أطفال العائلات الأخرى بعض وقتهم في الشارع بحيث يشبعون فرط حركتهم هناك ولا تعرف حالتهم إلا عند التحاقهم بالمدرسة . ناهيك عن أن القسم الأول من العائلات يراجع الأطباء عادة أكثر من القسم الثاني .

وسبب فرط الحركة هو عدم السيطرة الدماغية الكاملة ، ربما بسبب عدم نضج الدماغ فهو اذن مظهر لاصابة مرضية . ويؤدي ذلك الى نقص في الانتباه وقصر في مدته وضعف في التركيز . وان العقوبة لهؤلاء الأطفال لا تفيد ، بل قد تزيد الحالة سوءا بينما يمكن أن يعالجوا ببعض الأدوية الخاصة ذات الفائدة الجلية ، اضافة الى البرامج التعليمية المعدة خصيصا لهم .

وفي ختام الموضوع يتبين أن كل طفل يعاني من مشكلات الدراسة والتعلم يكون لديه نمط خاص متميز من سواه ، وبالتالي يتطلب اهتماما خاصا وأحيانا علاجا موجها . ويجب دائما مواجهة مثل هذه الأمور قبل استفحالها ، ودرهم وقاية خير من قنطار علاج .




نبيل

الفَلسَفةُ والطِّفلُ والوَطنُ العَرَبيّ

بقلم : الدكتور زياد القبانى

من السؤال بدأت الفلسفة ، وبالسؤال تطورت . وليس هناك من يطرح أسئلة أكثر من الأطفال ، فهل يمكن إدراج أسئلتهم ضمن إطار الفلسفة ؟

« الفلسفة والطفل والوطن العربى » عنوان الموضوع الذى نحن بصدده ، ونصف هذا العنوان ليس من اختراع كاتب هذه السطور ، إنما هو عنوان كتاب علمى فلسفى ، صدر فى لندن بالانكليزية ، لمؤلف وعالم فلسفى معروف هو ج . ماتيوز . إن الاستغراب رد فعل طبيعى لدى الإنسان عندما يجد كلمة « فلسفة » تجاور كلمة « طفل » ، وسوف يزداد الاستغراب مع وجود كلمة « الوطن العربى » إلى جوارهما ، ولدى التأكد من أن الحديث سيدور حول الأطفال فى عمر يتراوح بين سنة ونصف حتى العاشرة ، وحول الفلسفة بمعناها العلمى الذى يستخدمه الكبار .

العربي العدد ٣٥٨ ـ سبتمبر ـ أيلول ١٩٨٨ م

السذاجة المشروعة

وبالمناسبة فإن التفلسف عند الأطفال ، كما يعتقد بعض العلماء ، ظاهرة عادية وطبيعية ، إذ أن خواص انفتاح التفكير على عملية اكتشاف العالم المحيط من قبل الأطفال تتشابه إلى حد كبير بخواص الفكر الفلسفى الجدي . وانطلاقا من هذه الفكرة ، وبالارتباط معها ، يؤكد الأستاذ ماتيوز بأن الفلسفة ليست سوى « السذاجة المشروعة » ، أي أنها تقوم ، كنسق اجتماعي ، بتشجيع طرح الأسئلة ، خصوصا تلك الأسئلة الجوهرية ، العميقة في مدلولاتها إلى ذلك الحد الذي يبدو فيه أن محاولات إيجاد الجواب على هذه الأسئلة هو ضرب من السذاجة . يقول الاستاذ ماتيوز : إن « المجتمع يحتاج إلى سقراط عاري القدمين لكي يطرح الأسئلة البسيطة والمعقدة في نفس الوقت ، كما هى الحال في الأسئلة التي يطرحها الأطفال على الكبار ، ولكى يجبر الناس على إعادة النظر والتفكير فى كل ما يقبلون به دون تفكير » . إن سذاجة الأطفال وبساطتهم وانفتاحهم على معرفة العالم المحيط بهم لاتحتاج الى تثقيف وتعليم خاص ولذلك من الممكن كما يقول البرفسور ماتيوز أن نتوقع أن يصبح التفلسف واحدا من المظاهر الطبيعية للطفولة . وفي الحقيقة أن هذا هو ما تؤكد عليه كل المواد المعروضة في هذا الكتاب المثير للدهشة .

يبدأ التفلسف عادة بالشك بأكثر الظواهر اعتيادية وبديهية بالنسبة للإنسان ، وغالبا ما يقود هذا الشك ليس إلى معرفة هذه الظواهر وكشفها على حقيقتها وبالتالى إلى إلغاء الشك الحاصل والوصول إلى اليقين الراسخ المريح للنفس البشرية ، بل إلى زيادة حدة هذا الشك وتعقيده أكثر . ويذكر هاوي الاطلاع على الفلسفة الفكرة الشهيرة التى قال بها الفيلسوف الانكليزي المعروف برتراندراسل : « إذا كانت الفلسفة عاجزة عن الإجابة عن كل تلك

الأسئلة التي نرغب في الحصول على جواب لها ، فإنها على كل حال قادرة ، في الحد الأدنى ، على طرح الأسئلة التي تكشف عن الشيء الجديد ، غير المعروف سابقا ، أو الشيء المستتر ، المختبيء في الجوانب الاعتيادية من الحياة اليومية المعتادة ». إن عملية امتلاك الطفل للعالم المحيط به ليست تقليدا أعمى ، بل هي عملية جدية ، تستحوذ على مجمل نشاط الطفل . وكما لاحظنا من خلال مطالعة الكتاب الممتع فإن المؤلف يركز انتباهه على عملية صياغة الأسئلة لدى الأطفال ، كيف ولماذا يسأل الطفل حول هذه النقطة المحددة ؟ أما الأجوبة التي يتفوه بها الكبار والصغار فلم تهمه كثيرا ، ونادرا ما أتى على ذكرها في كتابه . لكن الاستاذ ماتيوز يقوم في تلك الحالات ـ أي عندما يتصدى لتحليل الأجوبة ـ بالتأكيد على نسبية هذه الأجوبة وقابليتها للبحث العلمي اللاحق ، ولا يحاول أن يحلل عملية التفكير عند الأطفال ، أو يتناولها من « الأعلى » ، أي من موقع « فلسفة الكبار » ، بل العكس ، فهو ينطلق من خصائص التفكير عند الأطفال ، هذا التفكير الذي يشكل هنا ذات المعرفة .

بداية التفلسف

بيدأ التفلسف عند الأطفال ، كما يؤكد الأستاذ ماتيوز ، من التعجب والدهشة بكل ما يحيط بهم ، ثم يستمر عبر مختلف الألعاب العقلية التي يحبها الأطفال ، مثل « لعبة المفاهيم » . ويعالج المؤلف بعض الأشكال الملموسة من « الألعاب العقلية » عند الأطفال . فمثلا عن سؤال حول ما إذا كان من الممكن للإنسان أن ينسى اسمه ، يأتي جواب العقل السليم (عند الكبار) بأن هذا أمر غير ممكن ، لكن أحد الأطفال (من الذين عرفهم المؤلف وأجرى عليهم دراساته) يسأل : « لكن ماذا يحدث إذا نسى الإنسان اسمه ؟ » ، ويتقدم بالجواب طفل آخر قائلا : « في هذه الحالة من الممكن له أن يسأل أخاه ، لكن ماذا يحدث إذا نسى الأخ أيضا اسم أخيه ؟ وماذا لو . . . . وماذا

إذا . . . . . يفتح هذا السؤال أمام الفيلسوف الصغير مجالا واسعا للعمليات الذهنية الحرة واللعب بالإمكانيات المختلفة . وعلى أساس الأمثلة الأخرى الواردة فى الكتاب يمكن للباحث أن يرى أن العقل المتفلسف عند الطفل يسعى ليس إلى إغلاق المسألة كما يفعل العقل السليم عند الكبار ، وإنما إلى فتحها أكثر ، وذلك عبر وضعه للأسئلة الجديدة التى تجر بدورها إلى حقول جديدة ، ومتناقضة ، غير معروفة سابقا . ولذلك يصعب برأينا أن لانتفق مع المؤلف عندما يلاحظ بأن « الآباء والمعلمين الذين غالبا ما يرفضون هذه اللعبة (الفلسفية) مع الأطفال يقومون في الواقع بإفقار حياتهم العقلية نفسها من جهة ، ويفقرون علاقاتهم مع الأطفال من جهة أخرى ، ويقتلون روح البحث العلمى المستقل التى يمكن أن تكون قد بدأت بالتكون عند الأطفال » لكن هل الممكن أن نقبل فكرة المؤلف القائلة : بأن « الفلسفة يمكن أن تكون لعبة بحد ذاتها » ؟

اللعب والفلسفة

إن الألعاب العقلية والتفكير الفلسفي كلحظات في التطور الفردي ليست هدفا بحد ذاتها ، بل وسيلة يستخدمها الانسان لمعرفة العالم المحيط به الموجود فعليا ، فالعالم المحيط بنا ليس نقطة انطلاق فقط في عملية المعرفة ، بل وهدف لها ، ولذلك فإن اللعبة أيضاتبدو وسيلة من وسائل معرفة العالم ، وكذلك فإن فلسفة الأطفال تبدو ليس لعبة عقلية منغلقة على ذاتها ، بل وسيلة للمعرفة النشيطة التي يحققها الإنسان في العالم المحيط به ، وفي ذاته كجزء من هذا العالم : ولا يستطيع الاستاذ ماتيوز ـ مثله في ذلك مثل كل باحث جاد في حقل الحياة الذهنية عند الأطفال ـ أن يتجاوز تراث العالم السويسري الشهير ج . بياجيه الذي قال بتطور الذهن على مراحل . وبالفعل ففي أعمال

ج . بياجه يوجد ما يتعلق بشكل مباشر بحقل التفكير الفلسفي عند الأطفال ، ففي أحد أوائل أعماله المبكرة يتكلم ج . بياجيه حول « الميول الدائمة التي تتخلل الأقوال العفوية التلقائية التى يتفوه بها الأطفال حول ظواهر الطبيعة والتفكير وطبيعة الأشياء » ، وبغض النظر عن الملاحظات التى يمكن أن يتوجه بها المرء إلى نظرات ج . بياجيه وأفكاره ، فإنه على كل حال كان قد استخدم « فلسفة الأطفال » ، وذلك كما يؤكد البروفسور ماتيوز الذي يبدو له أن طريقة تعامل ج . بياجيه مع التفلسف عند الأطفال لا تنسجم أبدا مع هذا التفلسف ، بوصفه خاصاً بالأطفال . فالطفل جون الذي يبلغ من العمر فقط ست سنوات ، يبدأ بالتفكير حول الحياة والموت ، وذلك بعد موت كلبه ، ويتعمق بالفكر والتأمل ، وذلك حول تفرده في الوجود . فهو يمتلك فكريا كل شيء مما يملكه : الكتب والألعاب والألبسة والمجلات وغيرها ، وفي نفس الوقت فهو يفكر بأن لديه يدين ، وقدمين ورأساً . . . . إلخ ، ويتسائل جون : « أي من اقسام جسدي يمكن اعتباره أنا ؟ » وهذا سؤال محير جدا ، يتناول مسألة أصالة الإنسان : فما هي الأعضاء التى يمكن أن يفقدها فرد من الناس على أن يبقى محتفظا بأصالته ، أي أن يبقى هذا الفرد هو نفسه ؟

خوف الكبار

إن محاولات أن يلهو الصغار دون الاستغراق في مثل هذه الأفكار والأسئلة حول الموت تخفى وراءها الخوف العميق ، خوف الكبار أنفسهم من التفكير بهذه المسائل . وباختصار لابد من الانتباه إلى أن المؤلف يعالج ظاهرة التفلسف عند الأطفال الانكليز والأوروبيين عموما ، منطلقا من نوع التفلسف الذي يتوافق مع التقاليد الفلسفية العقلانية الأوروبية . لكن ماذا عن الطفل العربي ؟ كيف يطرح الطفل العربي أسئلته الفلسفية الأولى ؟ من

يهتم بذلك من العلماء والفلاسفة العرب ؟ ما هي الدراسات العلمية التي تمت حول هذا الموضوع ؟ وكيف نتعامل نحن الكبار العرب مع الأطفال العرب ؟ وهل ترتبط هذه القضايا بمستقبل الوطن العربي وازدهاره ؟ وكيف ؟ كل واحد منا كان طفلا صغيرا في الماضي ، ويستطيع أن يتذكر كيف كان يطرح الأسئلة الأولى ، وكيف كانت الأجوبة ، وبعضنا قد وجد العناية والتفهم مع الأجوبة المقبولة منطقيا ، وهؤلاء قلة معدودة ، والأكثرية كانت تجد تجاهلا وقمعاً وعدم احترام ، وربما اعتبرت مرتكبة كذبا أبيض كما يقال . إن الطفل العربي اليوم هو ذلك الإنسان العربي الكبير في القرن الواحد والعشرين ، والطفل العربي الذي لا يجد العناية اللازمة له من الكبار ، لن يستطيع بعد عدة عقود أن يعطي ما سوف يكون مطلوبا منه .

وما نود التوكيد عليه هو العلاقة القوية بين التربية التي يتلقاها الطفل ومجمل الظروف التي يعيش فيها منذ الأشهر الأولى بعد ولادته ــ سواء كان في الأسرة أم في المجتمع بشكل عام ــ وبين الطريقة التي سيتعامل بها هذا الطفل مع الواقع ومع نفسه والآخرين بعد أن يصبح شابا أو شابة ، أي أن الحديث هنا يدور حول الجيل بكامله ، وطريقته في التعامل مع الأحداث المهمة ، كالخطر الصهيوني ، وخطر الحرب النووية ، وخطر تلوث البيئة ، وخطر الأمية والجوع إلخ . . . .

جيل للمستقبل

ليس لدينا الآن حلول سريعة وتلقائية للمشاكل في كل المجتمعات الإنسانية على اختلافها ، لكن مع هذا يمكننا أن نؤكد بان التعامل الصحيح من قبل الآباء والمعلمين ، ومن قبل كل الكبار مع الأطفال اليوم يشكل أحد الطرق الرئيسية لتربية جيل جديد ، يستطيع أن ينهض في القرن القادم بالحمل

الثقيل جدا الذي سيرثه عنا . وهنا لابد لنا من لفت نظر القاريء الكريم إلى الأبحاث والدراسات النفسية التي أجريت في الثمانينيات في العديد من المدارس الابتدائية الأمريكية ، فقد تم القيام بتدريس مادة الفلسفة التي حوت على مباديء مبسطة في علم المنطق وعلم الأخلاق ، وذلك على أساس الأمثلة الواقعية المأخوذة من حياة الأطفال أنفسهم ، أما البرنامج التفصيلي فقد أعده معهد التعليم الفلسفي للأطفال ، وقد بينت نتائج البحث الذي أجري على ٢٠٠ تلميذ (من الصف الخامس حتى الصف الثامن) أن إجراء هذا الدرس بمعدل (٢,٥) حصتين ونصف حصة في الأسبوع قد ترافق مع تحسن ملحوظ في درجة استيعاب الأطفال في مواد اللغة والرياضيات . وفي الاتحاد السوفيتي أيضايجري البحث الآن،ومنذ فترة ، عن طرق مناسبة لإدخال الفلسفة في بنية المعرفة عند الأطفال .

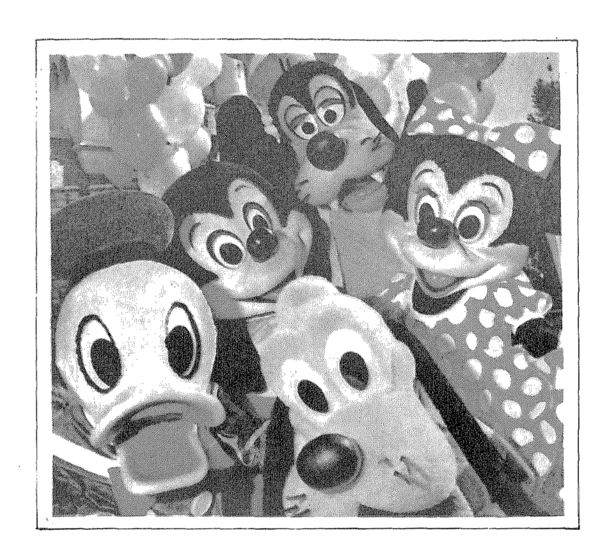
ولا يسعنا الآن إلا أن نتساءل : ألا يجدر بنا أن نلعب مع أطفالنا ألعابا فكرية فلسفية ؟ أليس اللعب مع الأطفال بكل أشكاله ممتع ومفيد للكبار كما للصغار ؟ إذا كنتم لاتدركون الجواب الصحيح فما عليكم إلا أن تجربوا اللعب مع أطفالكم ، وسترون بأنفسكم !





الفصل الرابع

آداب وفنون في حياة الأطفال



أفلام الصُّوَر المتحركة ودَوْرُها في حَيَاةِ الأطفالِ

بقلم : الدكتور عماد زكي

تلعب الرسوم المتحركة دورا مهما في تكوين شخصية الطفل ، وهي تحتل مكانة مرموقة في أعماقه لأنها تقدم له المعلومات في قالب قصة جذابة ، أو حكاية مثيرة تجري أحداثها في تلك العوالم التي طالما سأل عنها وتمنى رؤيتها . . .

نشعر ـ نحن الكبار ـ أحيانا بالسخرية من أنفسنا عندما نجدنا مشدودين الى فيلم من أفلام الكرتون ، أو إلى مسلسل شيق من مسلسلات الصورة المتحركة المصممة للأطفال ، فاذا ما حانت منا التفاتة طارئة لأطفالنا الأعزاء ، ألفيناهم محدقين بأعينهم في الشاشة الصغيرة ، يلتهمون كل ما يشاهدونه من صور وأحداث بمتعة وتركيز وانفعال ، هائمين في عوالم خاصة بهم ، لا يربطها بعالمنا إلا تلك النافذة السحرية المضيئة التي ندعوها (التلفزيون) . .

فلأفلام الرسوم المتحركة سحر خاص ، وجاذبية فائقة ، تشد الكبير والصغير ، لأنها رسوم حية أنيقة ، مرسومة بريشة الخيال المبدع ، تستمد عناصرها الأساسية من واقع الانسان والحيوان والجماد ، لتحركها حركة جذابة رشيقة ساحرة ، فيها خروج عن المألوف ، وحرية واسعة في التعبير ، وتلاعب

العربي العدد ٣١٣ ديسمبر ـ كانون الأول ١٩٨٤م .

مدهش بالألوان ، وقدرة خارقة على تصوير الأشياء والأشخاص والمخلوقات والأحداث ، لا تستطيع السينما العادية امتلاكها ، مهما تطورت وتقدمت ، ومهما أوتي صانعوها من عبقرية التعبير والأداء .

إن سينما الصور المتحركة تشكل فرعا مستقلا في فن (الفيلم) ، وقد ولدت عام (١٩٠٧) على يد تقني مبتكر مجهول ، يعمل في مشاغل (فيتاغراف) في نيويورك ، وأطلق على ذلك الابتكار آنذاك طريقة (دورة المقبض المحرك) ، التي بفضلها استطاعت المصورة أن تأخذ لقطاتها صورة فصورة ، ثم جاء السينمائي (ستيوارت بلاكتون) فاستخدم هذه الطريقة في (فلمه) (الفندق المسكون) الذي شوهدت فيه الأشياء تتحرك من تلقاء نفسها ، دون الاستعانة بأي خيط . ولكي تظهر سكين مثلا ، وهي تقطع شيئا أو تهدد شخصا ، أخضعت لتحويلات متلاحقة في حركتها ، وعرضت صورة فصورة ، بسرعة تفوق سرعة العين على تمييز الانتقالات المتدرجة في الحركة ، وسرعان ما انتشرت هذه الطريقة التي أطلق عليها اسم (الحركة الأمريكية) في أوروبا وأمريكا ، واستخدمت في انتاج الأفلام التعليمية والهزلية والخيالية والترفيهية والإخبارية ، كما استخدمت في أفلام الدعاية التجارية . وما شخصية (باباي) البحار التي اشتهرت في أنحاء العالم ، إلا شخصية ابتكرها (أ . س ز سيفر) لاستخدامها في الدعاية (للسبانخ) المعلبة ، التي أصبحت فيما بعد في أفلام (باباي) مصدر قوته الخارقة ، التي يواجه بها عدوه التقليدي اللدود (بلوتو) . . هذا ويعتبر (والت دزني) الامريكي الايرلندي الأصل ، أشهر محرك للصور في العالم ، حيث أطلق وطور العديد من الشخصيات الكرتونية الخالدة ، مثل شخصية (ميكي ماوس) الشهيرة ، و (دونالد) ذكر البط الأخرق السيء الطالع ، و (بلوتو) الكلب الأكول الجاحد الغيور الأحمق ، وغيرها من الشخصيات التي تنتمي الى عالم (والت ديزني) الذي أصبح مرجعا هاما في فن التحريك للأطفال . وقد صمم الكثير من شخصياته على شكل لعب مسلية للأطفال .

رسوم متحركة للكبار

لقد أدرك المنتج الغربي في أوروبا وأمريكا قيمة الأفلام المتحركة وشعبيتها ، فراح ينتج أفلاما طويلة من الرسوم المتحركة للكبار ، لتعرض في صالات العرض الفخمة ، فيقصدها المشاهدون من كل الأنحاء . كما أدخلت الصور المتحركة بشكل واسع في البرامج الثقافية والرياضية والتعليمية ، فضلا عن برامج الأطفال التي استثمرت فن التحريك أروع استثمار . ويلاحظ الآن أن التلفاز العربي بدأ يهتم باستثمار هذا الفن في البرامج التعليمية والثقافية ، مثل برنامج الأطفال (افتح يا سمسم) وبرنامج التوعية الصحية (درهم وقاية) ، كما تلجأ شركات الانتاج الفني العربية الآن الى دبلجة مسلسلات الصور المتحركة العالمية لتسد النقص الكبير في هذا الفن الشيق الجميل .

ومهما تكن شعبية أفلام الرسوم المتحركة بالنسبة للكبار ، ومهما استخدموها في برامجهم وفنونهم ، فإنها تبقى الفن الرئيسي في تلفاز الأطفال ، لأنها المادة المفضلة التي تناسب سنهم وتفكيرهم وميولهم ونفسياتهم .

فالطفل يحب بطبعه الصورة المعبرة ، ويجذبه اللون الجميل ، ويتفاعل مع قصص الخيال الشيقة ، وحكايات البطولة الخارقة ، وأحداث المغامرات المثيرة ، ولا نستطيع أن نصف متعة الطفل وسعادته ، وهو يرى تلك الأحداث والأشخاص التي كان يراها جامدة على صفحات مجلات الأطفال ، وقد دبت فيها الحياة على الشاشة الصغيرة ، وتحولت الى قصص وحكايات ومغامرات حية ناطقة متحركة ، تنقله الى عوالم لذيذة ساحرة ، تأخذ بلبه الغض الصغير . !

والطفل أيضا فضولي بطبعه ، يبحث عن معارف وخبرات جديدة . وتزدحم في خاطره أسئلة شتى عن الكون والحياة والأحياء والعوالم الغامضة التي قد يسمع بها ولا يراها ، كعالم الفضاء ، وعالم البحار ، وعالم الغابات ، وعالم الطيور ، وعالم الحيوانات ، وغير ذلك من العوالم والظواهر والمخلوقات .

وعندما تأتي أفلام الرسوم المتحركة لتنقل له تلك العوالم والمعارف بصورة زاهية مبسطة مثيرة تناسب نفسيته وادراكه ، فإنها تحتل في أعماق الطفل التواق للمعرفة مكانة مرموقة كمصدر للمعلومات المقدمة في قالب قصة جذابة أو حكاية مثيرة ، تجري أحداثها وسط تلك العوالم التي كان يسأل عنها ، أو يتمنى رؤيتها بإلحاح .

وسيلة تربوية .

أما من الناحية التربوية ، فإن أفلام الرسوم المتحركة مرشحة لتقوم بدور فعال في صياغة الملامح التربوية لشخصية الطفل الذي يتفاعل مع هذه الأفلام الى حد التقليد في كثير من الأحيان ، لذلك فهي تعتبر وسيلة رائعة لغرس المفاهيم التربوية والاخلاقية والاجتماعية في أعماق الطفل الذي يستسلم لهذه الأفلام لتنقش في نفسه وذهنه ما تريد من قيم ومفاهيم . ولعل العلاقة الوطيدة بين فن (الرسوم المتحركة) وفن (الكاريكاتير) تساهم الى حد كبير في قدرة هذه الأفلام على تجسيد المعاني وابراز المطلوب منها ، وتعميقه في وعي المشاهد .

ولأفلام الرسوم المتحركة ميزة خاصة ، تفتقر اليها الأعمال الفنية السينمائية والتلفازية ، فالشخصيات الكرتونية المتحركة شخصيات فريدة ثابتة لا تتكرر من مسلسل الى آخر ، (فالسندباد) في مسلسل (السندباد) مثلا شخصية متميزة لا نراها في المسلسلات الكرتونية الأخرى ، والفنان الذي رسمها ، صممها لتكون صورة (السندباد البحري) التي يراد للطفل أن يتفاعل معها ، بينما نجد في الأعمال السينمائية والتلفازية أن الممثل الواحد يتقمص أدوارا مختلفة متناقضة متباينة ، مما يقلل في كثير من الأحيان من تفاعلنا مع قصة (الفيلم) أو المسلسل ، لإحساسنا المتزايد بأن هذا الذي نراه محض تمثيل ، فالممثل الذي رأيناه بالأمس القريب في دور بطل نبيل ، نجده اليوم في

دور نذل خسيس ، والممثلة التي رأيناها في المسلسل الماضي في دور أم طاهرة رؤوم نفاجأ بها في (فيلم) أو مسلسل آخر وقد أخذت دور امرأة خاطئة أو راقصة مبتذلة تضحي بأمومتها في سبيل نزواتها وأهوائها وهكذا . . . فإذا أضفنا الى هذه الظاهرة ما درجت عليه المحطات التلفازية العربية من عرض المسلسلات يوميا أدركنا ما يعانيه المشاهد من شعوره بأن هذه الشخصيات التمثيلية شخصيات مكررة تتكلف الأدوار ، وهو شعور تفرضه طبيعة التمثيل ولا ذنب للممثل فيه ، أما (أفلام الرسوم المتحركة) فإنها تريح الطفل من هذا الشعور ، بل على العكس من ذلك نجد أن هذه (الأفلام) بالرغم من اغراقها في الخيال ، تستطيع أن تستحوذ على عقل الطفل ، وتقنعه بأحداثها ، وتضفي على شخصياتها المزيد من الصدق الفني الذي يضاعف من تفاعل الطفل مع قصة (الفيلم) المتحرك ، لذلك نرى أن شخصية (السندباد) التي يتفاعل الاطفال معها بشدة ، مازالت شخصية خالدة في أذهانهم ، وصورة لا تزاحمها صورة أخرى ، ومازالت تحتفظ بمذاقها الخاص . !

زيادة برامج الأطفال

بعد هذه الفكرة الموجزة البسيطة عن عالم الرسوم المتحركة ، أود أن أطرح قضية هامة تتناول واقع الطفل في الوطن العربي والعالم الاسلامي . فاذا كان الاهتمام بالطفل من أهم العلامات الحضارية في حياة الأمم المتقدمة ، والأمم التي تصبو الى التقدم ، وجب أن تشهد بلادنا اهتماما متزايدا ونهضة كبيرة في برامج الأطفال ، وما دمنا نطمح للخروج من واقع الانحطاط والتخلف الى دنيا الحضارة والتقدم . واذا كان إعلام الأطفال من أهم دعائم نمو الطفل ، فمن الضروري جدا أن تكثف الجهود وتوجه بإلحاح وتصميم لايجاد إعلام قوي متطور ناجح لأطفالنا الأعزاء ، إعلام مدروس يقوم على أنجح

الأسس والأصول والتجارب النفسية والتربوية والفنية ، ويعمل على بنائهم البناء السوي القويم ، الذي يؤهلهم لمتابعة مسيرة النهوض والبناء في بلادنا ، وتحقيق الآمال الكبيرة التي عاش آباؤهم وأجدادهم من أجلها .

ولما كان (التلفاز) أعظم وأخطر وسيلة إعلامية على الاطلاق ، فقد بات (تلفاز) الأطفال ضرورة لابد منها ، والرسوم المتحركة ـ بصفتها أكثر الألوان التلفازية جاذبية وتشويقا للأطفال ـ باتت فنا مطلوبا بالحاح ليقوم بدوره في توعية الطفل وتثقيفه وتوسيع آفاقه الفكرية والعلمية ، وبلورة شخصيته الثقافية والاجتماعية ، ولو أتيح لي إبداء الرأي لأشرت بزيادة رقعة برامج الأطفال ، وتشجيع أو إحداث جهاز كامل لفن الرسوم المتحركة ، ورفده بكادر مبدع من الرسامين والفنانين والتقنيين والمنفذين ، حتى يقوم بدوره الخطير في نهضة أطفالنا الأعزاء .

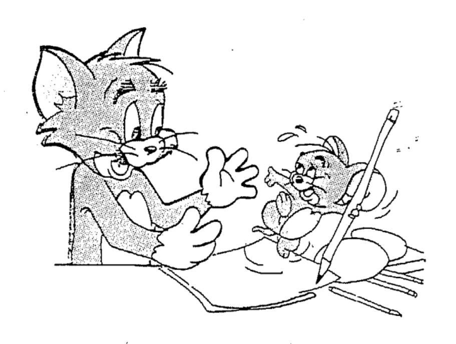
رسوم عربية الهوية والغاية

إن نظرة متفحصة للرسوم المتحركة المقدمة للأطفال في بلادنا ، تقودنا الى اكتشاف التقصير البالغ في استخدام هذا الفن الخطير . فمعظم أفلام الكرتون والصور المتحركة المقدمة لأطفالنا أفلام أمريكية أو غربية الصنع والهوية ، قد صممت لأطفال غير أطفالنا ، وبعقلية غير عقليتنا ، وتشجع عادات وأخلاقا لا نقر الكثير منها ، ويكفي أن نتذكر الساعات الطوال التي يقضيها أبناؤنا وهم يتابعون مسلسل (باباي) البحار القائم على الصراع بين (باباي) و (بلوتو) الذي يسعى دائما الى اختطاف وامتلاك الحسناء الجميلة (أوليف أويل) زوجة (باباي) ، والذي مازال يلاحقها ويشاكسها حتى ساعة كتابة هذه السطور !! . .

وعلى الرغم من الازدياد الكبير في عدد شركات الانتاج الفني العربية ،

والتضخم الهائل في حجم انتاجها ، فإننا لا نكاد نجد شركة عربية متخصصة بفن الرسوم المتحركة تخطط لبرامج هادفة للأطفال ، بعقلية عربية ملتزمة بقضايا الأمة وتراثها وعقيدتها وتاريخها المجيد الغني بمواقف البطولة والنبل ، والمآثر الانسانية العلمية والحضارية ، والمليء بالشخصيات الخالدة التي تركت بصمات لا تمحى في تاريخ البشرية . .

صحيح أن هناك نقصا كبيرا في الفنيين والتقنيين والرسامين في مجال الرسوم المتحركة ، لكن أطفالنا أهم بكثير من المرافق والمنشآت والمشاريع الضرورية أو الكمالية التي يستقدم لها خبراء متخصصون من الخارج ، فلماذا لا تستورد التقنيات الحديثة والخبرات الفنية الماهرة لصناعة سينما متخصصة في فن الرسوم المتحركة ؟!! . . سينما حديثة متطورة تنفذ نصوصا عربية مدروسة ، باشراف عربي فني تربوي علمي رفيع ، لا تجاري رديء ليس له من هم إلا الربح والثراء !



مشكلة النص

وهنا تبرز مشكلة النص ، فكّتاب النصوص التلفازية والسينمائية للأطفال قليلون جدا ، وليس من المعقول أن نستورد نصوصا جاهزة وإلا كان استيراد الأفلام والمسلسلات الأجنبية أفضل وأوفر ! .

ولمعالجة هذه النقطة أحب أن أذكر حقيقة هامة وهي أن الغالبية العظمى من أفلام رعاة البقر الامريكية (أفلام الكابوي) التي غزت تلفازات العالم ودور السينما فيه ، واستحوذت على اعجاب الجماهير العريضة من المشاهدين ، ما هي الا أفلام استوحيت قصصها من فترة قصيرة جدا من التاريخ الامريكي لا تتجاوز العشرين عاما ، وهي فترة غاب فيها القانون وشاعت الفوضى ، وسادت القوة ، وانتشرت فيها عصابات المجرمين وقطاع الطرق لتقتل وتسلب وتنهب ، أفلا يوحي لنا تاريخ ألف عام من الفتوح المظفرة ، والمعارك العادلة ، والمنجزات العلمية والحضارية الخالدة ، والحياة الاجتماعية الغنية بالنوادر والحكايات والطرائف والمعاني . . أفلا يوحي تراثنا الأدبي العريق الذي يقتبس منه الغرب لأدبه وفنه ويترجمه الى لغاته ، أفلا يوحي تاريخ كفاحنا الطويل ضد الاستعمار القديم والحديث ، أفلا توحي كل هذه المصادر الثرة الغنية لكتابنا ـ على قلتهم ـ بأعمال جديدة أصيلة تأخذ مكانها بدل الأعمال الغربية الوافدة ؟

يصعب على المرء أن يصدق أن أمة هذا تاريخها ، لا تجد ما تقوله أو تكتبه أو ترويه لاطفالها !

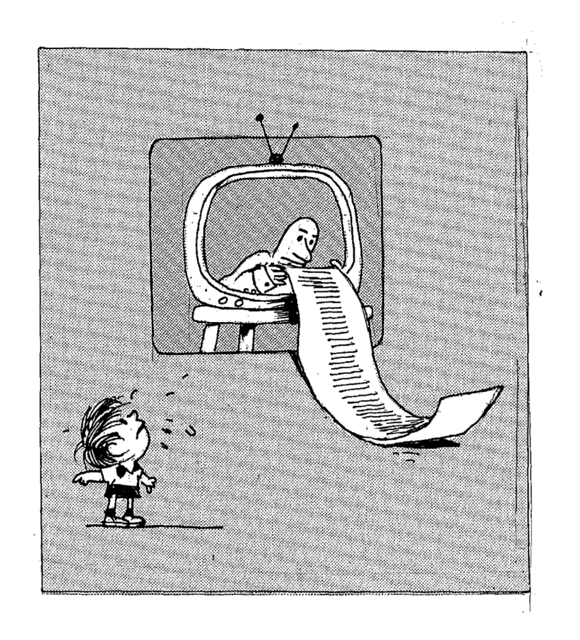
ضرورة التشجيع

شيء واحد فقط يستطيع أن يقنعنا بهذا الزهد والعزوف والإعراض عن الكتابة للأطفال ، إنه التشجيع . فالتشجيع والدعم مبذولان لأفلام

ومسلسلات الكبار الذين أدمنوا القصص التقليدية المكررة بشكل ممل لا جديد فيه إلا فيما ندر ، وشركات الانتاج الخاصة تستقطب كتاب النص التلفازي بما تدفعه لهم من أجور مغرية ، والحقيقة المفجعة تبقى فاغرة فاها لتبتلع كل تفاؤل بولادة تلفاز جاد ملتزم للأطفال إلا اذا انبرت لهذا الأمل الكبير مجموعة من الكتاب والفنانين والمخرجين والمنتجين الذين يتطلعون الى فجر مشرق جديد يصنعه لنا أطفالنا الأعزاء عندما يكبرون .

إن فن الرسوم المتحركة مجال رحب وواسع جدا لتنفيذ خطة تربوية وتثقيفية رائعة مفيدة ، تساهم في نهضة الطفل العربي والمسلم ، وتصنع من أطفال اليوم رجال ونساء الغد الواعد الذي نحلم به .





الأخبار وجمهور الأطفال

بقلم : الدكتور زكي الجابر

كيف يتلقى الطفل نشرات الأخبار التي تبثها الإذاعات المرئية والمسموعة ؟ وما هي خصائص الخبر الذي يستثيره ويؤثر فيه ؟ وماذا تبين نتائج البحث الميداني حول مدى استجابة الأطفال للأخبار ؟

يشمل الاطار الخلفي لهذه المقالة جانبين ، يتمثل الاول في الطفل وخصائصه ، ويتمثل الثاني في الخبر ومميزاته . وتحاول هذه المقالة بعد ذلك الربط بين الجانبين ، مستعرضة الجديد في البحث الاعلامي ، مما له صلة بالأخبار وجمهور الأطفال ، وكذلك تقديم المقترحات .

أولا : في الطفل وخصائصه

أ ـ اذا كان للطفل رصيد محدود من الكلمات والرموز ، فان له ثروة كبيرة من لغة « الاحساس » ويتحمل التلفاز مسؤولية حمل الأطفال على العيش في عالم الكبار ، بآلامه وأفراحه وتعقيداته ، دون مراعاة ان الطفل اكثر « عاطفية » من

العربي العدد ٣٠٩ أغسطس ـ آب ١٩٨٤ م

الكبير . فالتجارب المعتدلة فكريا أو عاطفيا لدى الكبير يتلقاها الصغير بالعميق من الفرح أو الحزن ، وربما مررت بطفل يشارك الكرسي المكسور أحزانه ، فهو يصفه بالمسكين مثلا ، ويعبر عما يحس به تجاهه .

ومشاهدة الإذاعة المرئية ما هي الا عملية تعلم ، وحيوية التلفاز وعاطفيته تجعل منه سلاحا هاما في تكييف مدركات الطفل .

ب ـ ونظرا لحساسية الطفل ، فان إثارة الفرح والغضب والخوف لديه أكثر سهولة من اثارتها لدى الكبير ، وتتميز حالاته الانفعالية بقصر أمدها ، فهو لا يستطيع أن يحمل حسدا أو يخفي شكا لمدة طويلة ، وتبدو مشاعره هادئة أو غاضبة ، ولاتكون الا نادرا ضعيفة الهياج ، وكلما تقدم به العمر تشتد سيطرته على مشاعره ويغدو أكثر قدرة على « ارخاء الستائر » عليها .

ج ـ وتشتد رغبة الطفل في برامج التلفاز حين تثير هذه البرامج مشاعره ، ولتحقيق هذا الغرض يتبع التلفاز طريقتين :

الاولى : تقديم المواقف المثيرة من غير عرض قصصي حيث ان منظر الأسد الضخم المزمجر يجعل الطفل خائفا بصورة مباشرة .

الثانية : اظهار البطل قصصيا في مواقف تثير العواطف .

د ـ وتختلف القصة التي تثير رغبة الطفل فيها اختلافا بينا ، فهي مختلفة لأطفال مختلفين ، ولكن الطفل بشكل عام يميل الى الموضوعات التي يواجهها في حياته ، ويمزج فيها الخيال بالحقيقة .

ثانيا في الخبر ومميزاته

أ ـ من أهم مبررات انتقال الأخبار ، هو هذا التعطش للمعلومات . فالبشر تواقون لمعرفة ما يجري حولهم بسرعة وبدقة .

ب ـ كما أن الناس لا يتناولون الطعام كله في آن واحد ، فإن التعطش

للمعلومات لايمكن ارواؤه في وقت واحد ، ومن هنا فقد بات من المفضل اتباع اسلوب « الانعاش » وذلك بتمكين المشاهد من متابعة الأخبار على فترات قصيرة نسبيا .

ج ـ إن درجة استيعاب المستمع للمعلومات ليست كبيرة ، وكثرة الأخبار لا تساعد على تذكرها جميعا ، ولذا فمن المفضل تقديم المواد الخبرية على شكل جرعات على مدى اليوم وباسلوب يختلف عن اسلوب التقديم الرتيب للنشرات المطولة بتفاصيل متشعبة ، وتتشكل هذه الجرعات من فقرات اخبارية قصيرة وتعليقات وتحقيقات ومناقشات عن اهم ما يجري في العالم .

د ـ وتقديم الاخبار للجمهور يقتضي معرفة جيدة بالجمهور وخصائصه ومتابعة لا تنقطع لمواقفه .

هـ ـ والخبر قصة ، ولكنه ليس بالقصة المعروفة بين فنون الأدب الأُخرى من شعر ومقالة ، إن الخبر قد تمت صياغته بصورة تجعله مفهوما عند الانسان العادي في قدراته الادراكية .

و ـ والقول بتعريف الخبر على أنه قصة تحدد الحدث وتعرف به ، قد يتضمن الايحاء بان القصة الخبرية يمكن أن تكون غير حقيقية وليست بموضوعية ويضاف الى ذلك ما يتصف به الخبر من « خبرة »

ثالثا : في الخبر والطفل

إن العديد من الدراسات التي دارت عن مشاهدة الأطفال لبرامج التلفاز ،ومدى تأثير هذه البرامج في سلوكهم قد تركزت في البرامج الترفيهية ، أما الدراسات المتعلقة باستجابة الأطفال للأخبار فهي قليلة نسبيا ، وقد تم معظمها في الولايات المتحدة الاميركية . من هذه الدراسات البحث الذي قام به (ماكلود وأتكن وجافي) على عينة من طلبة الصف السادس ، وقد توصلوا الى

أن ثلث العينة كانوا يشاهدون اخبار التلفاز ، وأن عدد البنين المشاهدين كان اكثر من عدد البنات المشاهدات .

ومن هذه الدراسات البحث الذي نهض به (ماكينتر وتينان) اللذان وجدا أن نصف عينتهما من طلبة الدراسة المتوسطة يشاهدون أخبار التلفاز مرتين أو ثلاث مرات في الاسبوع ، وقد وجدا أيضا أن عدد البنين المشاهدين أكثر من عدد البنات المشاهدات ، والسود منهم أكثر من البيض .

وقد توصل (ماكلود واتكن وجافي) في دراستهم الى أن سلوك الأبوين في المشاهدة له أثر فعال في نمط مشاهدة الأبناء للأخبار ، ولقد وجدوا ارتباطا متوسطا بين كمية الاخبار التي يشاهدها الآباء ، والكمية التي شاهدها أبناؤهم ممن هم في الصف السادس والسنة الاولى من الدراسة المتوسطة .

نتائج الاستطلاع

وتعتبر دراسة أتكن (١٩٧٣) أوسع هذه الدراسات وأشملها ، فقد استخدم طريقة الاستطلاع على عينة واسعة من الأطفال ، وأجرى مقابلات مع ثلث أمهات الأطفال الذين تم استطلاعهم ، كذلك قامت العينة من الاطفال بتدوين مذكراتهم اليومية عن مشاهدة الأخبار . وقد بلغ مجموع الاطفال الذين تمت دراستهم ٧٠٣ ، تقع سنهم الدراسية بين الروضة والصف الخامس الابتدائي .

وقد كشفت النتائج عما يلي :

اختلفت الاجابة حول مشاهدة النشرات الاخبارية وفقا للمصدر وطريقة القياس ، وقد بينت الاجابات عن السؤال العام « كم مرة تشاهد نشرات الاخبار ؟ » ان الاطفال يشاهدون هذه النشرات كثيرا ، ولكن حين تحدد الاسئلة أحداثا معينة تكشف الاجابات عن نسبة أقل في المشاهدة ، كما أن اجابات الأمهات قد كشفت عن نسبة أقل مما سبق .

أعرب الثلث من العينة أنهم يشاهدون نشرات الاخبار الموجهة للكبار كل يوم تقريبا ، وأجاب ثلث آخر بانهم يشاهدونها أحيانا ، وكلما تقدم الاطفال في السن ازدادت نسبة مشاهداتهم .

- وهناك القليلات من الأمهات اللواتي أجبن بأن اطفالهن يشاهدون التلفاز يوميا ، وقد اعرب نصف عددهن عن ان المشاهدة تقع في بعض الاحيان .

وعند التساؤل عن شدة الانتباه كشف الربع من الأمهات عن أن أطفالهن يمنحون انتباها شديدا ، والنصف منهن قلن ان أولادهن ينتبهون بعض الانتباه .

وقد تبين أن تغطية الأحداث المحلية تلقى اهتماما من الصغار ، لقد أجاب ثلث الذين تم استطلاع اجابتهم بنعم عندما وجه اليهم السؤال العام حول مشاهدة الاخبار التي تشمل البيئة المحلية اكثر من تلك التي تشمل أخبار الوطن ، وقد ازدادت مشاهدة الاخبار المحلية بشكل طفيف مع تقدم العمر .

وقد أعرب نصف الامهات عن ان اطفالهن يشاهدون الأخبار المحلية وقالت ١٣٪ منهن ان المشاهدة تقع يوميا .

وكان اهتمام الأطفال بالأخبار التي تخص الطقس والرياضة ، ملحوظا ، وقد أجاب ٣٩٪ منهم بأنهم يشاهدونها كل يوم ، و ٣٩٪ أجابوا بانهم يشاهدونها احيانا ، أما عن أخبار الرياضة فقد أجاب ٣١٪ منهم بانهم يتابعونها يوميا ، و٤٣٪ يشاهدونها بعض الأحيان .

أما عن نشرات الأخبار المخصصة للصغار والتي تبث صباح السبت بصورة متقطعة - على أن لاتزيد النشرة الواحدة عن دقيقتين - فقد أعرب نصف العينة عن مشاهدتها ، ويزداد ذلك الاهتمام بتقدم المستوى الدراسي .

وقد أعربت ثلاثة أرباع الأمهات عن أن صغارهن يشاهدون تلك النشرات . أما عن درجة الانتباه فان ٥٦٪ أجبن بان درجة انتباه أولادهن عالية في حين ان ٣٤٪ منهن قلن بأن اولادهن ينتبهون بعض الانتباه

وعند التساؤل عن مدى ادراك هذه الاخبار فان ثلاثة أربـاع الامهات أجبن بان أطفالهن يفهمون النشرة ، وتزداد نسبة إدراك هذه الأخبار وفهمها مع تقدم السن .

ولقد أجاب ٤٣٪ من الأطفال بأنهم يحبون تلك النشرات كثيرا ، و٤٤٪ منهم أجابوا بانهم يحبونها قليلا ، وأظهر المتقدمون بالسن من أولئك الاطفال حبا أكثر لتلك النشرات من الأطفال الأصغر منهم .

الاستماع للإذاعة

وقد حاولت الدراسة أن تستطلع عن مدى الاستماع لأخبار المذياع وكان هنـاك سؤال واحد يدور حـول ما اذا كـان الطفـل يستمع الى نشـرات أخبار الاذاعة ، وقد أجاب ٦٦٪ منهم بنعم ، و٣٤٪ أجابـوا بلا ، وفي المـذكرات اليومية أجاب ٦٠٪ بأنهم لم يستمعوا الى نشرة أخبار اذاعية يـوم أمس ، وقد أجاب ١٤٪ منهم بأنهم استمعوا الى نشرة واحدة ، ٧٪ أجابوا بأنهم استمعوا الى اثنتين ، و٦٪ اجابوا بالاستماع الى ثلاث ، و٧٪ الى اربع ، و٦٪ الى خمس او اكثر ، وكانت هذه النسب تزداد بتقدم العمر .

وقد كشفت الدراسة أن اقوى مؤثر لمشاهدة اخبار التلفاز هو الميل الشخصي للأخبار ، أما المؤثر الثاني فهو مناقشة الأخبار مع الآباء والزملاء ، وقد اعرب ثلثا المشاهدين بأنهم يشاهدون الأخبار مع آبائهم

- وقد لاحظت الدراسة أن الأولاد يشاهدون الأخبـار أكثر من البنـات ، كما لاحظت أيضا أن الذين يشاهدون برامج التلفاز أكثر من غيرهم ، وأن الذين يشاهدون الاخبار أكثر من أولئك الذين يشاهدون برامج التلفاز بقلة .
- وقد أشارت الدلائل حول تدفق المستمعين الى أن ٣٣٪ من الاطفال الذين شاهدوا برامج ترفيهية قبل نشرة الأخبار واصلوا مشاهدة الأخبار ، كما أن ٥٤٪

من الأطفال الذين شاهدوا الأخبار المحلية التي تتصدر نشرات الاخبار استمروا على المشاهدة ، ليراقبوا الأخبار الوطنية .

وفي المذكرات اليومية كشفت الدراسة أن مشاهدة أفلام الكارتون السابقة لفقرات الاخبار التي يجري بثها صباح السبت تقود الى مشاهدة تلك الفقرات ، لقد لوحظ أن ٤٢٪ من مشاهدي أفلام الكارتون استمروا في مشاهدة فقرات الأخبار .

ـ وقد كشفت الدراسة ضعف الارتباط بين استماع الاخبار الاذاعية وجملة من خصائص الطفل ، مثل الدرجات المدرسية والجنس والمكانة الاجتماعية ، أما أقوى ارتباط فيبدو بين قراءة الاخبار الجادة المنشورة في الصحف ، وبين الاستماع الى الاخبار الاذاعية ، كما كشفت الدراسة عن ارتباط معتدل بين الاستماع الى نشرات الاخبار الاذاعية ونقاش الأخبار مع الآباء والزملاء .

خلاصة ومقترحات

تعتبر دراسة (اتكن) التي استعرضناها أول دراسة شاملة لقياس أنماط التعرض الى برامج الأخبار عند الصغار .

ولعل اهم ما ذهبت اليه الدراسة هو اعتبار المذكرات اليومية أدق مؤشر للسماع والمشاهدة ولقد لوحظ ميل النتائج المبنية على الاسئلة العامة الى التطرف . ان الذين شاهدوا البرامج بصورة نادرة جدا يختارون عبارة « بعض الوقت » بدلا من « لاشيء تقريبا » ، والطفل الذي يشاهد الأخبار غالبا ما يقول إنه يراها « كل يوم تقريبا »

وقد عللت الدراسة اعتبار حب الأخبار ونقاشها ما قبل النشرات أهم المؤشرات لمشاهدة الاخبار ، وبما ذهبت اليه الدراسات من أن الاهتمام بالرسالة الاعلامية ما هو الا حصيلة قيمة الثواب على الجهد المبذول . إن تقديم أخبار

صباح السبت بشكل مبسط ومشوق تسبقه برامج ترفيهية ، يجعل الجهد قليلا والثواب كبيرا .

وكللت الدراسة ميل البنين الى مشاهدة الأخبار اكثر من البنات ، الا أن الأخبار اكثر تسلية للبنين ، وانها تساعد على تأهيلهم ليمارسوا دورهم كرجال في صنع الأحداث ، ومن ثم صنع العملية الاخبارية .

واذا كانت نشرات الأخبار في التلفاز لم تلق اهتماما من الصغار ، فلا بد من وجود خطأ فيها ولعل أهم ما يمكن عمله هو تقديم فقرات اخبارية خاصة بالصغار في أيام العطل ، على أن هذه الفقرات تبقى في نطاق محدود من المشاهدين اذا لم تكن جيدة العرض والصياغة بما يناسب جمهور الاطفال . وفي العملية طرفان : المرسل والمتسلم ، ولن تتحقق بغياب أي منهما ، والانصراف عن تقبل الرسالة قد يرتبط بالرغبات أو طريقة الأداء أو الوقت ، اذن لابد من سبب يمكن اكتشافه بالمتابعة والدراسة .

المساعدة في تكوين السلوك الاجتماعي

يعتبر التلفاز مصدرا من مصادر المعلومات عن العالم والعلاقات القائمة فيه وعن بنائه الاجتماعي ، ولكنه كأي مصدر آخر للأنباء لا يكون مرآة وانما مؤشر يختار ويركز الانتباه حول قيم واتجاهات معينة ، وهو في عرضه الدرامي يعكس رموزا لما تم اختياره من الواقع ، فالأخبار التي تختار وتنقل عن قطر أو شخص معين ، وهي تسم هذا القطر أو ذلك الشخص بالعدوان إنما تضعها في اطار العدوان وتطبع في الأذهان صورة غير محببة عنها .

ولقد تركزت أبحاث كثيرة تتعلق بالتلفاز حول أثر أفلام العنف في نفوس الأطفال في حين أغفلت جوانب عديدة أخرى من السلوك الاجتماعي التي يتم

تعلمها عن طريق التلفاز ، والحاجة قائمة لدراسة أنماط الاتجاهات التي كونتها التلفزة والاذاعة تجاه ما يجري في العالم .

لقد كشفت الدراسات المتوفرة لدينا أن الأطفال قد تعلموا كثيرا من الأفكار عن طريق البرامج الاجتماعية ، وأشارت دراسة (فريدريك وستاين)(١٩٧٥) أن الأطفال الذين شاهدوا برنامجا محبذا للعلاقات الاجتماعية الايجابية اظهروا اتجاهات ايجابية ايضا مثل التعاون والمساعدة . ان تلك الدراسة وغيرها من التي عنيت بدراسة اثر البرامج الاجتماعية دلت على ان هذه البرامج لها اثر في تكوين سلوك اجتماعي ايجابي وفي ضبط النفس والتخيل .

ان البرامج الاخبارية المصححة والموجهة لجمهور الأطفال يمكن عن طريق عرضها الدرامي أن تؤدي دورا في عملية تطوير الاتجاهات الايجابية بما يخدم سير الانسانية نحو المستقبل الأفضل ، ويصبح عرض الفقرات الإخبارية القصيرة أيام العطل أمرا محبذا .





محنة أدب الأطفال العرب !

بقلم : الدكتور علي الحديدي

على الرغم من اتساع خريطة الاحتفالات بعام الطفل العربي عام ١٩٧٩ في الوطن العربي وتعدد مجالاتها ، وتنوع مظاهرها ، إلا أن الساحة افتقدت اهتمام أقطارنا العربية « بأدب الأطفال » .

وليس في ذلك تجاهل أو غفلة عن المعارض التي أقيمت لكتب الاطفال في الأقطار العربية ، لكن الاهتمام « بأدب الأطفال » شيء وإقامة المعارض شيء آخر . فالكتب التي تقدم للأطفال في هذه المعارض نادرة،وقليل منها ما كتب متوخيا الأسس العلمية السليمة التي تحددت لهذا الفن الأدبي ، بعد أن استقل بنفسه ، « وأصبح شكلا من أشكال التعبير الأدبي له قواعده ومناهجه ، سواء منها ما اتصل بلغته وتوافقها مع قاموس الطفل ومع الحصيلة الاسلوبية للسن التي يكتب لها ، أو اتصل بمضمونه ومناسبته لكل مرحلة من مراحل الطفولة ، أو اتصل بقضايا الذوق وطرائق التكنيك في صوغ القصة ، أو بفن الحكاية للقصة المسموعة » . أما الكثرة الوافرة مما يقرؤه أطفالنا من الكتب بعد شرائها من تلك المعارض ، فقد كتبت كيفما اتفق : ترجمة أو نقلا أو تعريبا من

العربي العدد ٢٦٨ ابريل – نيسان ١٩٨١م

قصص أجنبية ، وتلخيصا أو تبسيطا للتاريخ والتراث وقصص الكبار ، ولم يقصد أكثر كتابها إلا الدخول في المجال التجاري للكتب . ومعروف أن كتب الاطفال تدر أكثر الربح للمؤلفين والناشرين على السواء .

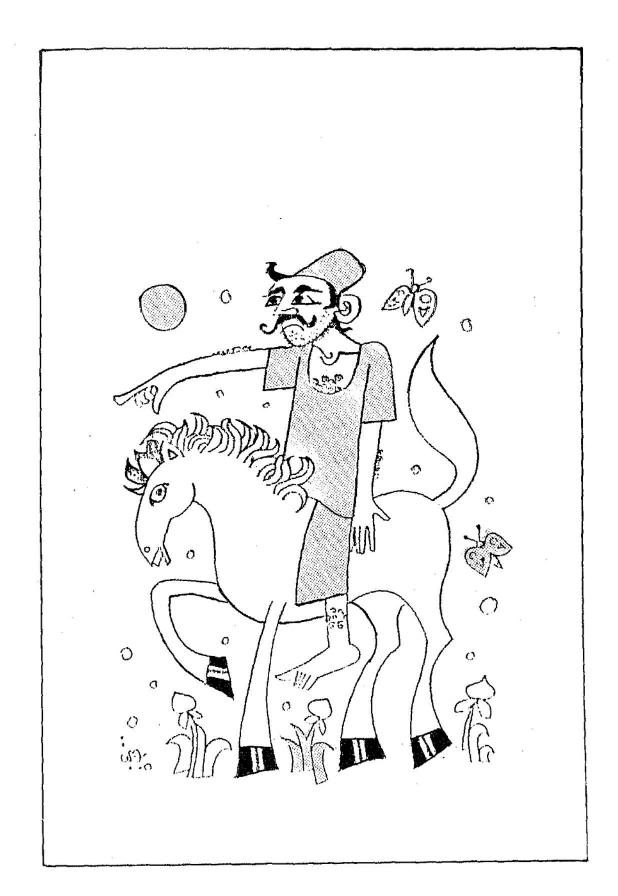
قبل وقوع الضرر

والذي يدعو للأسف والدهشة أن التجاهل والإغفال وعدم الاهتمام جاء كذلك من هيئاتنا العلمية العربية التي يدخل في اختصاصها هذا الفن الأدبي الجديد في بلادنا . فلم تتكلف واحدة منها مشقة البحث عن مدى صلاحية المادة التي تقدم لأطفالنا العرب في هذه المعارض ، أو محاولة الاجابة عن التساؤلات الكثيرة التي تفرضها أصول هذا الفن وقواعده : هل يكفي أن يُلقي الكاتبون بما يكتبون الى عالم الاطفال ليقرأه كل من يستطيع القراءة منهم ، وكأنّ تعلم القراءة رخصة تجيز لكل طفل أن يقرأ قصص الاطفال جميعا بصرف النظر عن عمره الزمني والادراكي ؟ كم من هؤلاء الكاتبين سأل نفسه قبل أن يكتب القصة : من سيقرؤها من الاطفال ؟ وما مستواه اللغوي ؟ وهل تمكنه قدرته اللغوية من أن يفهم ويستمتع بلغة القصة وأسلوبها ؟ هل يختار الكاتب اللغة السهلة البسيطة المناسبة لبساطة الأفكار التي يرغب في توصيلها الى جمهوره إن كان من الاطفال الصغار ، أو الاسلوب الموافق لبساطة العقول التي تتلقى هذا الاسلوب ؟ هل يكتب القصة لتقرأ أم لتحكى ؟ هل يعبر بالعربية الفصحى في كلتا الحالتين دون مراعاة لنوعية الجنس الادبي أو اكتراث بالسن التي تقدم لها القصة ؟

وهل سأل الكاتبون أنفسهم عن المضامين التي تحتويها قصصهم ، كالمواقف ، والأحداث الدرامية ، والموضوعات ، وعن مدى مناسبتها للمستوى الادراكي لمن يكتبون لهم من الاطفال ؟ وهل فكروا في الضرر

النفسي الذي يقع على أطفال ما دون السادسة اذا ما احتوت قصصهم مواقف الفزع والخوف وحوادث الرعب ، كقصص الجن والعفاريت والمردة والغيلان ، وما فيها من تعذيب وقتل للأطفال ، أو سجنهم في الظلام دون طعام وشراب ؟ أو مواقف السحرة ومسخهم الانسان الى حجارة أو حيوانات ؟ أو الموضوعات الكثيرة كقتل الانسان والاطفال وطبخهم طعاما يؤكل ، أو قتل الآباء والأصدقاء والحيوانات الصديقة العزيزة على الأطفال ؟ وهل دار بخلد الكاتبين أن « أطفال هذه المرحلة ليست لديهم خبرة بالحياة في هذا العالم ، وانما تغلب عليهم السذاجة فيصدقون ما يقرءون وما يحكى لهم ، فهم يعتقدون في قوة السحر والاشرار والغيلان والجنيات حين تتحدث لهم القصص عن أفعالهم التي تدل على قدرات خارقة ، ويعيشون بعد سماعها أو قراءتها في خوف شديد ، يعذبهم الفزع ، ويقلقهم الرعب في يقظتهم وأحلامهم ؟ »

والذين يكتبون منهم قصص المخاطر والمغامرات والبطولات والجريمة والعنف هل فكروا فيما ترمي اليه الكثير من هذه القصص ، وهي المترجمة - وقد كتبت بمهارة ودربة ، بحيث تشد اليها الاطفال - لتمجد الرجل الابيض وحضارته ومعتقداته ، ولترفعه الى مصاف المثل والقدوة ، وتضعه مواضع البطولة دائما ، بينما تحط من شأن الشعوب الاخرى ؟ وان جانبا كبيرا منها يمجد للصبية - في مرحلة المراهقة - الجريمة والمجرمين والخارجين على القانون وعلى نظام الاسرة والمجتمع ، وتصور القتل والنهب والتسيب والالحاد والجنس بصور بطولية مبهرة تفتن الاطفال فيتعشقونها ، ومن ثم تدفعهم الى التهور بتقليدها والقيام بمغامرات حمقاء « فالطفل وهو مستغرق في قراءة القصة أو سماع الحكاية ، لايكون مدركا قوة التأثير التي يستجيب لها ، لأنها تحدث دون شعور منه ، وذلك بواسطة عقله الباطن الذي يعي السلوك والتجربة من أحداث القصة ، أو من سلوك الشخصيات فيما يقرأ . ومعروف أن الطفل



سريع التأثر بما يحيط به من مؤثرات مختلفة ، وتتكون اتجاهاته ، ومثله ، وأهداف الحياة عنده في مرحلة طفولته ، فتجاربه الذاتية والقرائية فيها لها الاهمية الكبرى في تكوين شخصيته وفي تقرير مصيره في مستقبل حياته » .

محنة الاطفال العرب

وعدم الاهتمام « بأدب الأطفال » أو الغفلة عنه في أقطارنا العربية ، حتى في العام الدولي للطفل ، ليس مصادفة أو حادثا وقتيا ، بل هو نتيجة طبيعية لعدم اهتمام لغتنا العربية في تاريخها الطويل بهذا النوع من الادب . وطفلنا العربي بعامة ، في مسيرته مع التاريخ ، قد أصاب علاقته بالفن الادبي سوء الطالع ، فظل محروما من الادب الرفيع المؤلف له خاصة قرونا طويلة . والذين يهتمون بالدراسات الادبية يدركون أن « أدب الكبار » قد استأثر بنتاجنا التراثي كله ، وبجهود المدونين على درب المسيرة الطويلة من تاريخ الادب العربي ، ولم يلتفت أحد الى « أدب الاطفال » لاتأليفا ولاتدوينا .

ذلك أن مجتمعنا العربي كان ينظر الى الطفل على أنه رجل صغير ، ولم يهتم بمطالبه الا بالقدر الذي يؤهله لكي يكون قادرا على تحمل مسئوليته تجاه ذلك المجتمع ، ومن ثم كان العرب يبعثون بأبنائهم الى الصحراء في اليوم الثامن من مولدهم مع مرضعات من البدو ، ثم لا يعودون بهم الى الحضر حتى يبلغوا الثامنة أو العاشرة ، وذلك لينهلوا في هذه السنوات الاولى من طفولتهم روح الحرية في الصحراء ، وليجدوا في هوائها وخشونة العيش فيها ما يسرع بهم الى النمو الخشن ، ويهبهم الغلظة ، ويؤهلهم ليكونوا فرسان حرب وأجناد قتال ، يحملون السلاح ويحمون الذمار [1] . وأقسى من ذلك كله ،

---

١ ـ انظر : السيرة النبوية لابن هشام ط ٢ (القاهرة ١٩٥٥) ج١ ص ١٦٠ ـ ١٦١ ، وانظر كذلك : حياة محمد ، لمحمد حسين هيكل (القاهرة ١٣٥٤هـ) ص١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ .

تلك المحنة الكبرى التي مر بها الاطفال العرب في الجاهلية ، محنة الوأد خشية الاملاق أوالخوف من العار .

والذين دونوا تراثنا الأدبي في أواخر العصر الأموي وفي العصر العباسي ، وجهوا كل جهدهم الى أدب الكبار ، ولم يسترع انتباههم من « ادب الاطفال » إلا الاغنيات التي كان الكبار يرقصون بها الصغار . [٢] وحتى اغنيات الترقيص هذه تدخل في العالم الموسيقى للطفل ولكنها لاتدخل في أدبه ، ذلك أن معانيها ـ وهي فوق مستوى الاطفال ـ نصنفها في أدب الكبار ، فهي أغان عن الطفل وليست أغاني للطفل يمكن أن يغنيها بنفسه فيسعد بنغمتها ومعانيها معا .

وما وصل الينا من موسوعات التراث القصصي العربي ، حين نتأملها ، نجدها قد ترجمت أو حكيت أو كتبت ابتداء للكبار . فكتاب « كليلة ودمنة » مثلا برموزه السياسية والطائفية والشعوبية ، وعشرات المصنفات التي الفت على شاكلته كانت كلها للكبار ، وسيد مصنفات التسلية « ألف ليلة وليلة » ، وكثير من المجموعات التي كتبت على نمطه ، وحكاياته عن الجن والاساطير والمغامرات وأسفار البحار ، وما فيه من المفاجآت والنوادر التي أمتعت العالم وأسعدته ، وما أضافه اليه كل عصر من روحه ، وما أسهم فيه كل قطر عربي من صبغته ، وما اشترك فيه كل شعب من تراثه الشعبي وخياله قصد به امتاع الرجل سيد المجتمع ، فقصصه يفترض أن قد حكتها « شهرزاد » ـ وهي رمز المرأة والمجتمع ـ على مدار الليالي الطويلة المديدة « لشهريار » رمز الرجولة والمسئولية . ومن ثم فقد استثمرت الموهبة القصصية كلها لمؤانسة الرجال ، وتجمع الخيال الخلاق برمته لتسلية الكبار ، ولم تلتفت الام « شهرزاد » ـ وهي تمثل تلك الموهبة القصصية وذلك الخيال الخلاق ـ الى اطفالها فتقص عليهم

---

٢ ـ انظر : الغناء للأطفال عند العرب للدكتور أحمد عيسى (المطبعة الأميرية ببولاق ١٩٣٦) ص ٣ ـ ٦ ، والسيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٣٦ .

شيئا يناسبهم من روائع موهبتها ، ذلك أن اهتمامها كله ـ وهو يمثل اهتمام المجتمع العربي ـ محوره الرجل ، فاستأثر به وحده ولم يشاركه أحد فيه حتى أطفاله من شهرزاد .

ولغتنا العربية ظلت الى عهد قريب لغة المثقفين من أبنائها ، ولم تكن لغة المبتدئين في مراحل التعليم ، فكان من العسير على الطفل أن يقرأ للمتعة أو للاستفادة دون مساعدة الكبار . ولم يدخل اطفالنا عالم الادب المكتوب لهم الا في العشرينات من هذا القرن بعد أن بدأت قطرات من ندى « أدب الاطفال » تقطر في عالمهم على يد الشاعر أحمد شوقي والكاتبين محمد الهراوي وكامل كيلاني [3] وقد دخلوا ذلك المجال الادبي أول أمرهم بعد تردد وإحجام ، « فالتأليف للأطفال ـ في ذلك الوقت ـ يعد تضحية كبيرة في أكثر البلاد ، لأنه في الاغلب لايصل بالمؤلفين الى ما يسمونه بالمجد الادبي ، ويكاد الناس يجمعون على أنه لايهتم بالتأليف للصغار سوى الذين لايجدون ما يلقونه للكبار » . [4]

ولم تبلل تلك القطرات الصدى الذي يعاني منه أطفالنا ، اللهم الا قلة قليلة من طبقة القادرين على شراء كتب الثقافة والتسلية في ذلك الوقت ، أما الاعداد الكبيرة من أطفالنا العرب ، فقد ظلت في العصور المتأخرة تحت وطأة المخلفات من القصص الشعبية ، تلك التي مسخها خيال الكبار بعد أن شوهته عهود الظلم والفقر والجهل والطغيان ، فخرجت صدى للحياة ، ولما في نفوس الكبار المقهورة وقلوبهم المتألمة وحريتهم السليبة ، مليئة بقصص الرعب والخوف وحكايات الفزع والآلام تنفيسا واسقاطا .

وشبت اجيال وأجيال من الاطفال العرب الذين عاشوا عهود الجهل

---

٣ ـ أحمد شوقي ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ ، محمد الهراوي : ١٨٨٥ ـ ١٩٣٩ ، كامل كيلاني ١٨٩٧ ـ ١٩٥٩ .

٤ ـ د . زكي مبارك : البلاغ الاسبوعي ، القاهرة ١٩٣١/٩/٨ .

والاستبداد والاضمحلال يعانون من فقر التجربة ، وجدب العاطفة ، وتشويه الخيال . وما زال جيلنا جيل الآباء والاجداد لاطفال اليوم ، يذكر قصص الخوف والفزع والعذاب من حكايات « أبونا الغول » مع ست الحسن والجمال و « أمنا الغولة » التي تأكل الاطفال بعد أن تسجنهم في السراديب المظلمة، وقصص « جنيات البحر » التي تخطف الصيادين ، و « حصان أخوي خضير » الجني الذي تشكل في شكل حصان يطارد اخت خضير الجميلة لأنه يحبها و « الشاة المسحورة » التي أكلت رب الاسرة ، « وسرور » [٥] الذي قتلته زوجة أبيه وطبخته طعاما للضيوف ، وغير ذلك كثير من القصص الشعبية التي كانت تطاردنا أشباح شخصياتها في الصحو والمنام ، ومع ذلك كنا نتوقف لسماعها والاستزادة منها على الرغم من آلامنا ، فلم يكن أمامنا أدب غيرها يشبع الخيال النهم ، والعواطف المجدبة والتجربة الفقيرة !

عتاب على الهيئات الأدبية

وتغير وجه من الصورة في الخمسينيات من هذا القرن ، فخرج للاطفال العرب فيض من الادب المكتوب اختلط فيه الغث الكثير بالسمين القليل . وكان أهم ملامح التغييرات اعتراف الهيئات الادبية بنتاج « أدب الاطفال » فنا من فنون الادب الجادة والهادفة . أما الوجه الآخر من الصورة فلما يزل قائما ، ذلك أن الهيئات العلمية والتربوية في أقطارنا العربية ، لم تسهم في دراسة نتاج الذهن العربي من « أدب الاطفال » دراسة علمية تتحدد بها قواعده وأصوله ومناهجه ، وتظهر اجناسه الادبية ومقاييسها النقدية ، وتبين ما يقدم منها

---

٥ ـ حصان أخوي خضير ، والشاة المسحورة ، وسرور ، قصص شعبية خليجية تحكى للأطفال .

للاطفال حسب أعمارهم الزمنية أو الادراكية ، وتوضح الدور الكبير الذي يساهم به « أدب الاطفال » في صنع الانسان وبنائه . ولم تتبع بالدراسة تطور هذا الفن في ادبنا العربي ، ولم تقدم حكما سلبيا على النتاج الذي يعرض لأطفالنا ، وكان أولى أن تبادر بنقده وألا تتردد أو تتهاون في وصف التافه والفج منه بما يستحقه ، وان تستبعد مالا يصلح منه فتحمي اطفالنا من الكثير الذي تضربهم قراءته ، وأن تكشف عن الجيد الذي يغذي جوانب التفكير عند الناشئة ويقوي نواحي الخيال فيهم ثم يصنفه المتخصصون ويوزعونه بحسب مراحل الطفولة والسن الادراكي للاطفال .

كذلك لم تقدم هيئاتنا العلمية والتربوية من الدراسات ما ينير الطريق أمام القائمين على تنشئة الاطفال من المعلمات ، والرواد ، والمشرفين على النوادي وقرى الاطفال ، ليختاروا لهم من عالم الادب خير أنواعه ، فيتذوق الصغار منه خلال المتعة بالسماع أو القراءة جمال الصور اشعاعا من جمال الكلمات ، ويوفر لهم الغذاء الروحي والرضى العاطفي ، ويبعث فيهم ألوانا من السعادة



تغريهم بمواصلة القراءة ، ومن ثم تتكون عواطفهم نحوها وتصبح عادة وهواية عندهم ، وليتعرف المعلمون والرواد على الاهداف التربوية للقصة وروايتها ، لأن الاطفال وهم في حاجة الى كاتب قصة خلاق ، في حاجة كذلك الى راو فنان ، فالكاتب يخرج القصة من الحياة والراوي يعيدها الى الحياة ، وهما معا يكملان دائرة الحياة للاطفال . ولعل العلم لم يظهر الحاجة الملحة في حياة الاطفال الى فن رواية القصة كما أظهرها في هذا العصر ، اعترافا بالفائدة التربوية والنفسية التي يمكن أن تؤديها للناشئة ، وذلك منذ أخذت تعترف مدرسة « فروبل » التربوية في المانيا بهذه الحاجة ، وتعطيها الدفعة القوية في عالم التربية ، وتقرر : « أن وظيفة القصة وحكايتها للاطفال لم تعد تقيم على ضوء مكانتها في مدارس الاطفال فقط ، بل اصبحت طبيعتها تمارس في كل مكان يوجد فيه الاطفال » .

واذا كانت الشكوى تتزايد من المراهقين ومشكلاتهم في عصر(الفيديو ، والتلفزيزن ، والديسكو ، والوجي بوجي) عصر الآفات التي تلاحق الشباب بمغرياتها ، وتصرفه عن القراءة بمستحدثاتها ، فإن في امكان جامعاتنا العربية أن تحد من تأثير هذه المغريات من خلال اهتمامها « بأدب الاطفال » ، ذلك لأنه أقوى أساس يقوم عليه التكوين العقلي والنفسي والعاطفي لهؤلاء الشباب ، وخير سبيل ينمي مدركات الخيال ويرهف الاحساس بالجمال عند الاطفال ، وأجدى اسلوب تتأصل به القيم الاجتماعية والسياسية ، وتتأكد به العواطف الدينية والقومية عند الناشئة ، كما انه أقوم طريق تتحدد به المثل العليا والسلوك الانساني المحمود لاطفال اليوم وشباب الغد وصانعي الامة في المستقبل القريب ، ولأن الجيد منه يصلهم منذ طفولتهم بالحياة ، ويهيء لهم فرص الترف الذاتي ، وينمي فيهم الوعي الجماعي ، وروح التعاون ، ويحبب اليهم خدمة الآخرين ، فينمو الصغير من حالة التمركز حول ذاته الى كائن اجتماعي يتمركز حول الآخرين ، . ويتحول من المتعة الى الاحتمال ، ومن

الاحتمال الى المشاركة الوجدانية ثم الى الاحساس العقلي بشعور الآخرين ، ومن ثم يسهم في خلق شباب مثابر مخلص واجتماعي متعاون ، يقف امام المخاوف والقلق ليقضي عليها ولا يفر منها .

فالكلمة المنطوقة والمكتوبة التي تسعد الاطفال وتسليهم ، وتطور وعيهم وطريقة فهمهم للحياة ، وتنمي ادراكهم ومحبتهم للجمال ولروح المرح ، وتوسع افق القراءة عندهم وتعمق ابعاد استمتاعهم لها ، انما هي مفاتيح لفهم الجنس البشري ، ولمعرفة نمو الانسان على درب التاريخ الطويل ، تعطيهم فرص التعرف على انفسهم بأنفسهم ، وتمكنهم من التصدي للمخاوف واقتلاعها من جذورها ، وتطلق العنان لاحلامهم وطاقاتهم الابداعية ، ومن ثم يقدمون للانسانية فيما بعد جهودا لايقدر عليها غيرهم . يقدمونها الى تيار الحياة الدافق المتواصل اسهاما منهم في سبيل تحقيق الغاية الكبرى التي تجمع البشر مع البشر ، والبذر مع الزارع ، والمصباح والضوء

وبعد ، فلعل الوقت في وطننا العربي قد حان لتبدأ البحوث والدراسات الاكاديمية في هذا الميدان ، وتتولى المناهج الدراسية في جامعاتنا ومعاهدنا التربوية دراسة هذا الفن الادبي ، فن « أدب الاطفال » .




نبيل

الآثار السلبية لكتب الأطفال المترجمة

بقلم : يعقوب الشاروني

على امتداد الوطن العربي ، أصبح الراشدون من آباء وأمهات مدرسين ومربين ، يدركون أكثر من ذي قبل ، مطالب الأطفال واحتياجاتهم الفكرية والعقلية والعاطفية . وأقوى دليل على هذا ، ذلك الازدياد الكبير في مبيعات كتب الأطفال في الوطن العربي . وهي كتب أصبح البعض يعدها سلعة رائجة لا يهتم فيها بجودة المضمون ، قدر اهتمامه بإبهار الشكل ، أو بقدرتها على جذب اهتمام الصغار .

لقد حمل التغير في النظرة إلى مرحلة الطفولة ـ وإن كان تغيراً محدودا ـ العديد من دور النشر على أن تقدم للأطفال ألوانا مختلفة من الكتب والمجلات ، فيها مترجم كثير ، أو مؤلف بغير خبرة كافية . وأدب الأطفال في اللغة العربية الذي كان إلى ما قبل ربع قرن يمر بأزمة وجود ، أصبح الآن يمر بأزمة جودة . أو بعبارة أخرى صارت أزمة الكم التي كان يعاني منها أدب الأطفال ، أزمة في الكيف . فقد توسعت الكتابة للأطفال ، وكَثُرَ هواتها

العربي العدد ٣٥٩ اكتوبر ـ تشرين الأول ١٩٨٨ م .

والمستفيدون منها . وكثير من هذه الكتابات يتم في غيبة النقد ، وفي غيبة الرقابة الوطنية ، فتجيء أدباً تعوزه من ناحية مقومات الأدب الناجح ، على الرغم من وجود الكتب التي تضمه على رفوف الكثير من مكتبات المدارس الحكومية ، أو بين أيدي الأطفال . وتعوزه من ناحية أخرى تلبية الاحتياجات القومية والفكرية والنفسية والعلمية التي تسعى المجتمعات العربية إلى توفيرها لأطفالها .

ولما كانت الخبرة الناضجة بالكتابة للأطفال نادرة وقليلة في الوطن العربي ، فقد لجأ عدد كبير من الناشرين إلى البحث عن كتب ومجلات الأطفال الرائجة في العالم الغربي ، يترجمونها ، ويقدمونها بنفس رسومها إلى أطفالنا ، بغير إدراك لما تحتوي عليه من قيم تربوية غير ملائمة لنا ، أو مرفوضة حتى في البلاد التي تصدر فيها تلك المطبوعات .

ونستعرض فيما يلي بعض القضايا التي تثيرها مطبوعات الأطفال المترجمة ، التي تجد رواجاً بين قطاعات كبيرة من أطفالنا العرب .

الرجل الخارق والخيال العلمي :

تعتمد معظم روائع أدب الأطفال على الخيال ، فالخيال هو أثمن هبة أعطتها الطبيعة للأطفال ، وهو خيال أوسع من خيال الراشدين وأخصب ، لذلك يحرص من يكتبون للأطفال على توسيع آفاق هذا الخيال وتنميته .

وقصص الخيال العلمي في مقدمة ما يثير خيال الأطفال ، وينمي قدراتهم العقلية ، فأهم قضايا التثقيف تدور حول البحث في كيفية تهيئة الفرص ، ليكون في وسع العقل أن يصطنع روابط ، ويستخرج نتائج ، من مجرد سماع حقائق متفرقة .

ويتخذ أدب الخيال العلمي موضوعه من الظواهر العلمية ، وتوقعاتها المقبلة ، والتنبؤ بها ، وانعكاسات ذلك على عالم المستقبل ومصير الانسان . إن

العالم الألماني «هرمان أوبرت» ، عندما قرأ في سنة ١٩٠٦ رواية «جول فيرن» : «من الأرض إلى القمر» ، أثار خياله مافي القصة من صور عن عالم الفضاء ، بصواريخه وكواكبه وقذائفه المتدفقة نحو المجاهل البعيدة ، فتساءل ذلك العالم الصغير : «هل يمكن أن يحدث هذا ؟» فأجابته أمه : «كل الأعمال الكبيرة تبدأ بالأحلام ، ثم يسعى الناس لتحقيقها» . ومنذ ذلك الوقت ، أخذ هرمان يفكر في المدفع الذي أطلق قذيفة «جول فيرن» نحو القمر بسرعة أحد عشر كيلومترا في الثانية ، وظل يفكر في كيفية التخلص من الجاذبية الأرضية ، وفي الكيفية التي يمكن أن يصنع بها هذه القذيفة . وظلت هذه القضية تشغله ست عشرة سنة ، طلع بعدها على العالم بمخطوطة في علم الفضاء ، كانت الخطوة الأولى في إطلاق أول الأقمار الصناعية حول الأرض سنة ١٩٥٧ .

كذلك فإن شخصيات قصص الرجل الخارق للطبيعة ، مثل قصص «سوبرمان» ، «والرجل الأخضر» ، «وباتمان» وغيرها ، تلجأُ إلى تبسيط الشخصيات ، بحيث تجعل بعضها ممثلاً للخير المطلق ، وبعضها ممثلا للشر المطلق ، على الرغم من مخالفة هذا لطبيعة البشر ، مما يؤدي إلى فهم الأطفال لمجتمعهم ، والمجتمعات الأخرى فهماً خاطئا ، ويستثير لديهم دوافع التعصب والعدوان . ففي كل إنسان جانب طيب وجانب خبيث ، ولا بد أن يساعد الأدب على أن يفهم الأطفال دوافع الانسان وأسباب سلوكه ، وذلك بطريقة مبسطة ، تناسب مراحل الطفولة التي نوجه اليها ما نكتب .

إن كثيراً من هذه القصص تدور حول سلسلة متصلة من حوادث العنف الجنونية ، قبل أن ينتصر البطل الذي يأخذ بناصية المظلومين في القصة . هذا في حين أنه ينبغي أن يكون سلوك أشخاص القصة من بدايتها إلى نهايتها سلوكا سَوِيّاً لا شذوذ فيه ، لأن الأطفال يتأثرون بالقدوة المتمثلة في أحداث القصة ومواقفها المختلفة ، أكثر مما يتأثرون بعبارة تدين الأفعال الخاطئة ، ولا تقال إلا في نهاية القصة . كما أن هذا النوع من القصص يؤكد

قيماً معادية لكل ما قامت عليه نظم الدول المتمدنة الحديثة : فمن القيم التي يجب أن تشيع في نفوس الأطفال ، احترام القانون ، وترك مهمة محاكمة المخطيء والحكم عليه وتنفيذ الحكم ، للقضاء ولسلطات الأمن . فعندما يكون الطفل صغيرا ، نطلب منه أن يحتكم لوالديه فيما ينشأ من نزاع بينه وبين إخوته أو أبناء الجيران . وفي المدرسة نطلب إليه أن يلجأ في تلك الحالات الى هيئة التدريس أومدير المدرسة . وعندما يلتحق بعمل ، لا بد أن يلجأ لرؤسائه فيما يثور بينه وبين زملائه من نزاع أو خلاف وإلا استحق العقاب . وفي الحياة اليومية ، لا بد أن يلجأ إلى سلطات الأمن أو إلى سلطة القضاء ، للفصل فيما ينشأ بينه وبين الآخرين من نزاع .

لكن كثيرا من قصص الرجل الخارق للطبيعة ، تجعل البطل هو الذي يحدد ما هو الخير وما هو الشر ، وتتركه يحكم بنفسه على الآخرين وبمعياره الشخصي . ثم ينفذ بنفسه ما ينتهي إليه من أحكام ، حتى لو كانت الحكم بالاعدام ! وبهذا تلغي هذه القصص كل ما قدمته الحضارة من نظام للدولة ، يخضع فيه كل شخص للقانون الذي سَنّته الجماعة ، حتى لا يُترك الأمر فوضى لوجهات النظر الشخصية التي تُروِّجُ لها وتُغلِّبها مثل هذه القصص التي تعطى ذلك الفرد المتفوق الذي يُفترض أن يتمثل به الطفل كل سلطات الشرطة والقضاء وأجهزة تنفيذ الأحكام !!

ازدراء الأجناس الملونة :

من بين القصص التي تنشرها الكتب والمجلات المترجمة ، عن دور نشر أجنبية ، تلك القصص التي تتضمن ازدراء الأجناس الملونة ، أو احتقار الحياة الانسانية والاستهانة بها ، مثل قصص الغرب الأمريكي التي تدور حول إبادة الهنود الحمر ، أو قصص طرزان التي تؤكد تفوق الرجل الأبيض .

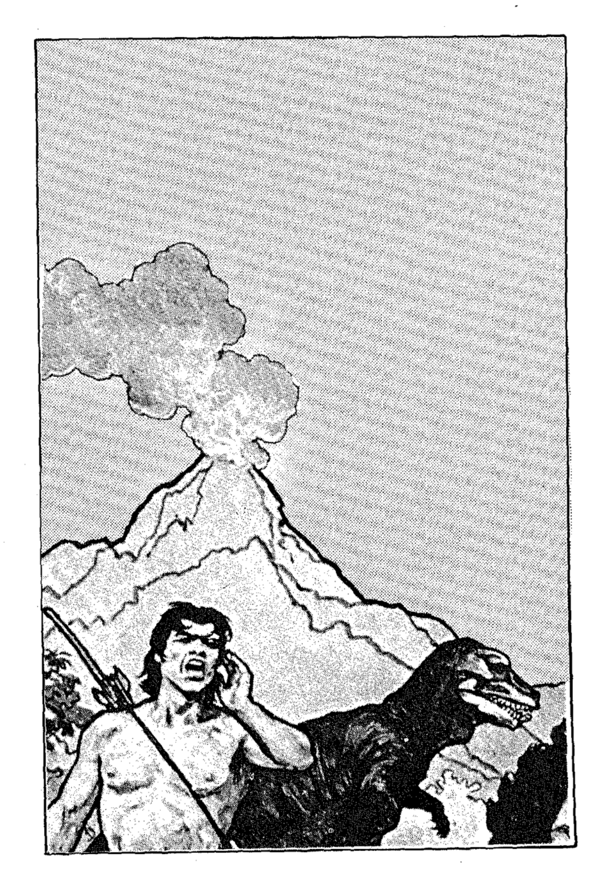
إن قصص الغرب الأمريكي التي كثيرا ما تقدمها القصص المصورة المسلسلة في كتب ومجلات الأطفال ، تؤكد لدى أطفالنا شعوراً قويا بتفوق الرجل الأبيض ، وبتفاهة حياة سكان أمريكا الأصليين ، وبأن من حق الرجل الأبيض أن يقتلهم كما يقتل الحيوانات المتوحشة ، لا يمنعه من هذا أنهم أصحاب الأرض الأصليون .

وهذه صورة تُروِّج لها حاليا بعض الأفلام المغرضة في الغرب ، وفي أمريكا خاصة . إنهم يريدون أن يضعوا في وعي أطفال العالم أن العرب وأهل فلسطين خاصة ، هم هنود حمر في هذه المنطقة ! وهم بذلك يقيمون مشابهة مفتعلة ، تجعل مجتمع الغرب يتقبل عمليات إبادة وقتل العرب والفلسطينيين .

وهذه قضية يجب التنبيه إليها ومحاربتها ، ليس على مستوى الوطن العربي فقط ، بل على مستوى العالم كله ، لأنها أصبحت إحدى الوسائل الأساسية في الحرب النفسية والدعائية ضد المنطقة العربية كلها . ويكفي أن نرى الصورة البشعة التي ترسمها كتب الأطفال الصادرة في «اسرائيل» عن الانسان العربي ، وأن نتذكر ذلك النداء المعادي لكل قيم الحضارة والانسانية الذي انتشر منذ سنوات على صفحات كل صحف ومجلات أمريكا ، والذي يقول بغير خجل ولا حياء : «ادفع دولاراً ، تقتل عربيا» .

ومثل هذه الصورة نجدها أيضا في قصص طرزان التي يلجأ فيها هذا العملاق الأبيض إلى استعداء الحيوانات على أهل أفريقيا السود ، تقتل منهم من يرى أنهم أصبحوا أعداء له .

ويقول تقرير اليونسكو ، إن هذه القصص : «تصور الزنوج أنهم يسلكون سلوك الحيوانات ، ويبدو البيض دائما أرفع منهم وأسمى كما أن الشعور العنصري واضح فيها جدا» .



ويقرأ أطفالنا تلك القصص ، ويتحمسون لمواقف يرون فيها طرزان يستدعي أصدقاءه من الفيلة والقرود ، لتهجم على قرى أهل البلاد الأصليين ، فتحطم بيوتهم ، وتهدم أكواخهم ، وتدوسهم بأرجلها ، كل هذا لإرضاء نزعات تلك الشخصية التي تتصرف بعضلاتها وغرائزها ، بدل أن تتصرف بعقلها وحكمتها . .

الأطفال والعنف :

ولعل من أخطر ما يقابلنا في كتب الأطفال ومجلاتهم المترجمة ، تلك القصص التي تمجد العنف كوسيلة لحل المشاكل ، والتي تجعل القوة البدنية هي العامل الأقوى في حسم مختلف المواقف . وهو أمر نجده في كثير من قصص المغامرات والجاسوسية ، وأيضا في قصص سوبرمان وطرزان .

وفي هذا يقول مؤتمر اليونسكو الذي عُقد في مارس سنة ١٩٥٢ بإيطاليا ، لبحث موضوع الرقابة على صحف الأطفال :

«نظرا لما لاحظه المؤتمر على صحف الأطفال من تصويرها الحياة لقرائها ، على أنها سلسلة طويلة من الفخاخ المؤذية التي يجب عليهم أن يكافحوا لتفاديها ، ومن الكفاح الدائم «للانتقام» للأرامل واليتامى ومن إليهم ، فإنها تناشد هذه الصحف الحد من عنف موضوعاتها ، وأن تفضل عليها الموضوعات الهادئة المتزنة» .

إن هذه القصص تؤدي إلى تصوير العنف تصويراً مبهرا أمام الأطفال ، وكأنما فيه حل لكل المشاكل ، في حين أن تاريخ الحضارة هو تاريخ إحلال العقل محل القوة . وعندما نقدم للأطفال شخصيات مثل طرزان الذي تربى بين الحيوانات ، والذي لا يعرف وسيلة لحل ما يواجهه من مشكلات إلا القوة البدنية ، وعندما نقدم للأطفال شخصيات مثل سوبرمان الذي يتغلب على كل

من يقف في طريقه عن طريق القتل ، عندما نقدم للأطفال مثل هذه القصص في الكتب والمجلات والتلفاز ، فان الأطفال سَيُسْقِطون من سلوكهم كل ما قدمه لنا تاريخ الحضارة من وجوب استخدام العقل في حل المشكلات بدلاً من القوة .

إن مثل هذه القصص تتنافى مع أهم أهداف التربية السلوكية للأطفال . فأول ما نهتم بغرسه في أطفالنا ، هو تدريبهم على مواجهة المشكلات وحلّها بنجاح ، عن طريق استخدام العقل ، مع استبعاد القوة البدنية بشكل شبه كامل .

ان «الأوديسّا » عندما تحكي قصة «أوليس» مع «السيكلوب» ذي العين الواحدة ، تبين كيف استطاع هذا الانسان الضعيف بجسمه ، القوي بعقله ، أن يتغلب على ابن الآلهة القوى بجسمه ، الضعيف في عقله : ومن غير المقبول أن يُعَلِّم اليونان القدماء أبناءهم ، منذ ثلاثة آلاف سنة ، الاعتماد على العقل واستبعاد القوة لحل المشكلات ، ثم نأتي نحن ، في نهاية القرن العشرين ، لنقص على أطفالنا قصص الجاسوسية ، ومغامرات العنف وطرزان وسوبرمان ، فنلغي بها كل انجازات الحضارة من فكر وحكمة ، عندما نؤكد بما نترجمه لأطفالنا من تلك القصص ، أن القوة هي الوسيلة الحاسمة لحل المشكلات التي تواجه الانسان !!

المنافسة حتى الموت :

ومن بين القصص التي تترجم لأطفالنا ، تلك التي تدور حول المنافسة بين طرفين ، وتجعل الصراع حتى الموت هو الوسيلة الوحيدة لإنهاء التنافس بين الأطراف المتنازعة .

ان هذه القصص تُقَدَّمُ إلى أطفالنا بأسلوب فيه كثير من الفكاهة ، كما تُقَدَّمُ عادة بأسلوب «الكومكس» أو الرسوم المسلسلة ، وأوضح مثال لها القصص التي تدور حول شخصيات الكارتون «توم وجيري» .

ان الموضوع الرئيسي المتكرر فيها هو ما يدبره كل طرف للطرف الآخر من أساليب للأذى !! وإذا كنا نضحك ونحن نقرأ هذه القصص ونشاهد رسومها ، فإن الطفل الذي يطالعها أسبوعا بعد أسبوع في مجلته ، أو يقرؤها في كتبه التي يشتريها لنفسه أو نشتريها له ، سيتركز في وعيه نمط خاطيء من السلوك ، من السهل تقليده والتمثل به ، لما فيه من تنمية للإحساس بالتفوق على الآخرين ، على الرغم مما يسببه من أذى وأضرار لهؤلاء الآخرين .

إن كثيرا من قصص الأطفال المترجمة ، بل إن أكثر قصص الأطفال المترجمة رواجاً ، إنما هي تعبير عن أوضاع مجتمعات تختلف كثيرا في أهدافها عن مجتمعنا . ولا بد أن ننتبه لما تتضمنه هذه القصص من أخطار ، على الرغم مما فيها من سهولة وجاذبية وتشويق لأطفالنا .

إن المواد المترجمة للأطفال لا بد أن تخضع لتدقيق حاسم شديد ، حتى لا تفسد كثيرا مما نريد أن نغرسه وننميه في أطفالنا .





حِكايَاتُ الأطفالِ العَرَب

بقلم : الدكتور على الحديدي

تعود « بداية أدب الأطفال » في الزمان الى أول الزمان ، وذلك منذ أن تكاملت قدرة الانسان على التعبير ، وأخذت الأمومة والطفولة البشرية تسلكان طريقهما المرسوم نحو تكوين أسر وجماعات . ثم انحدر في مسيرته مع الأيام على الدرب الطويل من عمر الانسان ، تحكيه الأمهات والجدات ميراثا يتلقفه وجدان الصغار ، وتهفو إليه آذانهم استمتاعا وترويحا وتسلية ، واستوعبه ضمير الجماعة ، ليحقق به كثيرا من مواقفه ، ويرسب جانبا كبيرا من عواطفه ومعارفه . واحتفظت به ذاكرة الزمن ليسهم بنصيب كبير في نقل تراث البشرية وخبراتها من جيل إلى جيل . وخلال التطور الانساني المبكر ، كانت القصص ـ وهي مادة الحياة ـ سواء رويت للكبار أو حكيت للصغار ، وسيلة لتقاسم الخبرة والتعليم ، ولونا رفيعا من ألوان الامتاع والمؤانسة .

والمجتمعات الانسانية القديمة لم تكن تهتم بالطفل إلا بالقدر الذي يؤهله كي يكون قادرا على تحمل مسئولياته تجاه المجتمع الذي يعيش فيه ، ولم تكن مرحلة الطفولة عندهم مرحلة مهمة في ذاتها أو مستقلة بمفردها ، بل مرحلة

انتقال تعبر بالكائن الصغير إلى مراحل الشباب والنضج والرجولة . ومن ثم لم تكن هذه المجتمعات القديمة تعامل الطفل أو تنظر إليه خلالها إلا على أنه راشد صغير ، وكانت تتصور أن ما ينطبق على الراشد ينطبق على الطفل سواء بسواء . ومن هنا لم تفرد الأطفال بأدب خاص بهم ينشئه لهم فنانون يبدعون خلقه ، بل بسطت لهم حكايات الكبار من خرافات ، وأساطير ، وحكايات الحيوان ، والجن ، وقصص التاريخ أو الحرب والبطولات . . إلى غير ذلك من القصص التي ابتكرها الانسان الكبير في تاريخه الطويل .

وعاش أدب الأطفال عالة على التراث الأدبي للكبار ، يتخذ منه مصادر يغترف منها المادة والصورة والخيال . وكلما تطور التفكير الانساني وتطور فنه الأدبي ، تطورت معه حكايات الصغار لتصبح هي الاخرى جزءا من مادة الحياة ، ووسيلة اتصال أساسية للبشرية ، وسبيل الأجيال المتعاقبة لنقل الأفكار والقيم الروحية والمثل ومستويات السلوك والتقاليد . وصارت حكايات الأطفال كالجدول ينساب في موازاة النهر العظيم من قصص الكبار ليستمد منه الحياة .

عندما تغير وجه الصورة

وعلى الرغم من أن الأطفال العرب ظلوا طوال العهود المزدهرة من الدولة العربية محرومين من الأدب الرفيع المؤلف لهم خاصة إلا أنهم عاشوا في فيض مبسط من قصص الكبار التي زخر بها المجتمع العربي ، شعبية رائعة ومؤلفة مبتكرة ، نتاجا للعقلية العربية التي منحت حظا موفورا من الخيال ، وأعطت القدرة على صياغة المادة المحيطة بها قصصا جميلا ، وامتازت بالموهبة المبدعة التي تعيد تأليف القصص القديمة المتوارثة وتخرجها في فن يكاد يكون جديدا ، والتي تستقبل الحكاية المنقولة إليها بحفاوة وتقدير ، وتصوغها من جديد بمهارة ودربة

فائقتين ، وتضيف إليها روحها العربية ، وتضفي عليها الكثير من موهبة الخيال والفن التي تتملك ناصيتها ، فلا يملك التاريخ إلا أن ينسبها إلى العرب وينسى مصدرها الأول .

وتغير وجه الصورة المزدهر منذ توالت النكبات والكوارث على أقطارنا العربية ، فقد اجتاحها « هولاكو » بجيشه المغولي - ١٢٥٨ م - ١٢٦٠ م - وأهلك الحرث والنسل وحرق بغداد ودمشق ، ولم يوقف تدميره للأقطار العربية إلا هزيمته وإبادة جيشه على يد المصريين في موقعة « عين جالوت » . وبعد نحو مائة وخمسين عاما جاءنا إعصار « تيمور لنك » المدمر ، فخرب عواصم الثقافة العربية : بغداد ، ودمشق ، والقاهرة ، وهدم البلاد وأهلك العباد . ثم كانت المرحلة العثمانية ، التي بدأت في عام ١٥١٦ م ، واستمرت حتى أوائل القرن العشرين ، وفي ظلها عاش الوطن العربي عزلة سياسية منعت العربي من الاتصال بالدول الخارجية ، وعزلة ثقافية وفكرية أخرجت العرب من تيار الثقافة العالمي ، فلم يعد هناك تفاعل بينهم وبين الثقافات الأخرى بالتبادل الفكري ، وعزلة تاريخية ، قطعت صلتهم بماضيهم وثقافات أجدادهم التي غذت العالم فكريا نحو تسعة قرون ثم جاءت الطامة الكبرى على الأقطار العربية بالاحتلال الأوروبي . . . . أحفاد الصليبيين الذين تقاسموا الوطن العربي فيما بينهم . وكانوا جميعا يصدرون على هوى واحد ، هو التحكم في الوطن العربي بأنواع القهر والاستغلال ، ونهب ثرواته وإشاعة الاضطراب والشك في مفاهيمه الدينية والقومية ، وإعلان الحرب على معنوياته حتى يفقد شخصيته ويفقد بذلك كيانه إلى الأبد .

لم يعد العربي يشعر بذاته بعد هذه النكبات المتوالية ، وابتعد عن الحياة العامة فتجمد وتخلف ، وأصبح يعيش في ظلمة الجهل وظلمة الاستبداد ، ظلمات بعضها فوق بعض . ومن الطبيعي أن تنحدر الحياة الأدبية الرسمية في عصور التخلف وظلمات الجهالة وفقدان الذات ، ويتولى الأدب الشعبي مهمة التعبير عن هذه الحياة فيخرج صدى لما تعانيه الأمة العربية ، ممسوخ الخيال

مريض التصور بعد أن شوهته عهود الظلم والتدهور ، ويكون صورة صادقة لما في نفوس الكبار المقهورة ، وقلوبهم المكلومة ، ونفوسهم المضطربة الخائفة ، وحريتهم السلبية ، في قصص وأغان مليئة بالرعب والخوف ، وحكايات ممزوجة بالألم والتعذيب تنفيسا وإسقاطا رمزيا . ونفذ ذلك كله وتسرب من نهر الأدب الشعبي للكبار إلى الجدول الصغير من « أدب الأطفال » . وعاشت الأجيال من الأطفال العرب الذين عاصروا عهود الاضمحلال ونكبات الاستعمار يعانون من فقر التجربة وجدب العاطفة وتشويه الخيال ، ويقاسون من حكايات الرعب والخوف والفزع التي تسربت اليهم من قصص الكبار فعاشوا تطاردهم أشباح شخصياتها المخيفة في الصحو والمنام .

في عصر التنوير

وبدأت النهضة العربية الحديثة . وأخذت الحياة في الأقطار العربية تتغير صورتها رويدا ليعود إليها شيء من صفائها ، وبعث التراث الأدبي ، ودخلت البلاد في عصر التنوير ، ودبت الحياة فيما دوِّن من التراث الأدبي الشعبي لعهود الازدهار ، وانتشر التعليم ثم رحل المستعمر . واجتاحت البلاد حركة ثقافية نشطة تعوض سني التخلف والجهل . وكان التركيز كله منصبا على أدب الكبار وثقافتهم ولم يهتم أحد بثقافة الطفل وأدبه ، بل ظل سوء الطالع ملازما للأطفال العرب ، فأدبهم المبسط من أدب الكبار في عصور الازدهار لم يكن مدوَّنا ، ولم يلتفت إليه أحد من رواد حركة إحياء التراث الأدبي الشعبي في أقطارنا العربية . فاختفى في رمال التاريخ وسقط من ذاكرة الزمن ، ولم يبق منه إلا النادر القليل الذي قاوم عوادي الدهر . وتوارثت كل منطقة عربية منه ما يعبر عن جانب من الحياة فيها ، أو يرسب معارفها ، أو يحقق جزءا من مواقفها وعواطفها .

وشبت أجيال العصور الحديثة من أطفالنا العرب ورصيدهم من الحكايات نوعان : القليل النادر من مخلفات الماضي المجيد والمبسط من قصصه

الشعبي في عصور الازدهار فيبعث فيهم روح المرح والمتعة ، ويخلب ألبابهم بألوان الخيالات المبهرة ، ويفتنهم بشخصياته الآسرة التي تشد إليها الصغار فيتعلمون منها خبرات الحياة وهي تعرض الحق في بهائه ، والعدل في قضائه ، والصدق في صفائه ، والجمال في روائه . لكن أكثر ما يحكى لهم قصص تعبر عن عصور التخلف والتدهور والاحتلال ، في صور من التراث الشعبي ترمز إلى الظلم والاستبداد وقهر الرجال ، فتبعث في قلوب الأطفال الخوف والاضطراب وعدم الأمان ، ويحسون ما فيها من ألم وعذاب ، وتقلقهم أشباحها المفزعة بعدائها وعدوانها ، وتروعهم شخصياتها المخيفة بظلمها وجبروتها ، من مردة تعذب الأطفال ، أو غيلان تخطفهم وتسجنهم في الظلام ، أو سحرة أشرار يمسخونهم حجارة وحيوانات ، أو آدميين مجرمين يعذبونهم ويحرقونهم بالنار ويطبخونهم طعاما للآكلين !! .

والعلماء متفقون على أن الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة ـ قبل السادسة ـ يجب أن يجنب حكايات الرعب والفزع والتعذيب والخوف ، وكذلك القصص التي تحوي مضامين تنتهك التقاليد الاجتماعية أو العواطف الدينية ، أو تقلل من شأن القيم الوطنية والأخلاقية ، فلا تحكى لهم قصص الشياطين والغيلان والمردة والسحرة والأشرار ، أو الآدميين المجرمين ، أو القصص التي تضم ما يخالف تعاليم الدين أو تقاليد المجتمع ، لأن أطفال هذه السن ليست لديهم خبرة بالحياة في هذا العالم ، وتغلب عليهم السذاجة فيصدقون كل ما يقال لهم ولا يفرقون بين الرمز والحقيقة . وحين تحكى لهم مثل هذه القصص يعيشون حياة ملؤها الألم والعذاب ، أو تهتز في نفوسهم القيم السائدة في مجتمعهم .

الأطفال بعد السادسة

أما أطفال السادسة وما بعدها ، فقد اختلف العلماء في أن تحكى لهم قصص تضم الرعب والخوف والفزع . وهناك من يرى أن مثل هذه القصص

يجب أن تمحى من أدب الأطفال ، ذلك لأن الطفل ـ وهو أمل المستقبل وعلى عاتقه تقع مهمة التغير إلى الأفضل ، وإلى ما فيه خير المجتمع والانسان ـ يجب أن يتهيأ له المعين الذي يغترف منه الصدق والحق والخير والعدل والأمن والمثل الأعلى الذي يجتذبه . ومن الظلم أن نطالبه بالانطلاق إلى الحياة نموذجا لانسان المستقبل.ونحن نقطر في طفولته ـ عن طريق القصص ـ ما يبعث في نفسه الاضطراب وعدم الأمان والاحساس بالظلم والمعاناة من الخوف والرعب والذعر من الحياة . وانضم علماء النفس إلى هذا الفريق ، واحتجوا على حكاية مثل هذه القصص للأطفال ، وكان تأثير هذا الاحتجاج أن أعيدت في أوروبا كتابة حكايات الجنيات والخرافات المفزعة لتخفيف ما تحويه في أصولها المتوارثة من تفصيلات البشاعة والتعذيب . ففي قصة « الغربان السبعة » من مجموعة « الأخوين جريم » مثلا ، وفيها الأخت الصغيرة التي يتحتم عليها أن تقطع إصبعها لكي تتمكن من دخول القصر الفضي وتنقذ إخوتها السبعة ، عدلت القصة بحيث لا تشير إلى الألم أو الدم الذي سال من بتر ذلك الاصبع .

والذين لا يجدون ضيرا من حكاية هذه القصص لطفل السادسة وما بعدها كما هي دون تعديل ، يؤمنون بأن القصص الشعبية تصور قدر الانسان ومصيره ، وهي رمز للخير والشر معا كما يوجدان في الحياة ، ويرون أن الطفل في سن السادسة لديه معلومات أكثر عن العالم تؤكد له عن طريق الحقائق أن هذه القصص وهم وخيال . وفي نفس الوقت يقولون إن الرعب في هذه الحكايات قد يكون عاملا للتنفيس عن مشاعر الخوف والقلق الكامنة في نفس الطفل ، وذلك كما يحدث في قصة « الغربان السبعة » السابقة ، فمن سياقها يمثل بتر إصبع الأخت التضحية بها جزاء مسئوليتها عن اللعنة التي أصابت إخوتها السبعة .

قصص الخوف والفزع

والعلماء الذين يبادرون بنقد القصص التي تقدم للأطفال عامة لأنها تحوي الخوف والفزع لا بد لهم من أن يدركوا أن الأطفال لديهم مخاوفهم الخاصة

بهم ، وبعد أن يقرأ أو يسمع طفل السادسة أحداث الفزع يجد الحنان والحب والأمن بين أهله فترتد إليه نفسه الهلعة الخائفة ، ويعرف أن ما سمعه أو قرأه إنما هو خيال كاتب أو قصاص لن يمسسه منه سوء أو يصيبه من جرائه مكروه . وقد تكون الكتب التي تقرأ والقصص التي تحكى هي الوسائل الأولى التي عن طريقها يتعلم الأطفال كيف يواجهون مصاعب الحياة ومشاقها ، ومن ثم لا بد أن يواجهوا هذه المصاعب في قصصهم لكي يعرفوا شيئا عن آلام الحياة وصعوباتها ، وعن الرعب والقسوة والغدر في الحياة ، وعن الحرب وما تخلفه من قتل وبؤس وتدمير وشقاء ، وعن الخيانة والحقد والخداع بوجوهها السوداء . وليس هناك من سبب لحماية عقول الأطفال أو تدليلها أكثر مما ينبغي .

ومن ناحية أخرى ليس هناك من سبب يدعو لأن نصدم الأطفال الصغار - ما قبل السادسة - بهذه المفزعات متعمدين تخويفهم بها في هذه السن المبكرة . ومن ثم إذا كنا سنقدمها لهؤلاء الأطفال ، يجب أن نعدل فيها حتى نخفف منها حدة الفزع والخوف والألم والتعذيب ، أو ننتظر حتى يأتي الوقت الذي يتطور فيه الطفل ويصل المرحلة التي تتكون فيها القوة الداخلية ليواجه مصاعب الحياة ويتعرف مآسيها . وتلك مسألة نسبية تتوقف على السن الادراكي للطفل ، وعلى تجاربه ، والبيئة المحيطة به . كما أنها تشير إلى أهمية معرفة الأمهات والمربيات والمدرسات وأمناء المكتبات ورواة القصص لهؤلاء الصغار معرفة وثيقة يصلون فيها إلى قلوبهم وعواطفهم . والمرحلة التي تتكون فيها تلك القوة الداخلية عند الأطفال الأسوياء هي سن السادسة وما بعدها .

وقصص الأطفال الشعبية التي تضم الخوف والفزع والتعذيب ليست وحدها التي يجب أن نجنب الأطفال سماعها في المرحلة المبكرة ، بل هناك نوع آخر أكثر خطرا على وجدان الطفل وتكوين عواطفه تجاه دينه ومجتمعه ووطنه ، تلك هي القصص التي تحوي مفاهيم تنتهك تعاليم الدين ، أو تستهين بالتقاليد الاجتماعية الأصلية أو تحبط النزعة الوطنية في نفسه ، وتتمثل في سلوك

شخصيات القصة ، فتترسب في ذهن الطفل وتستقر في وجدانه وعـواطفه . والطفل وهو مستغرق في سماع الحكاية لا يكون مدركا قـوة التأثيـرات التي يستجيب لها لأنها تحدث دون شعور منه ، وذلك بواسطة عقله الباطن الذي يعي السلوك والتجربة من أحداث القصة أو من سلوك شخصياتها . ويقوم الطفل بعملية توحد مع الصور والنماذج المعروضة في القصة ، ويميل إلى محـاكاتهـا وتقليدها ، ويتأثر بما يسمع فينمو لديه الخيال المريض ويكسبه المعاني السيئة ، ويثير في نفسه القلق والشك والاضطراب ونزعة الاجـرام حين يقـوم بعملية موازنة ومقارنة بين ما يسمع من القصص وما يرى في واقع المجتمع الذي يعيش فيه . وإذا كان الطفل سريع التأثر بمـا يحيط به من مؤثـرات مختلفة وتتكـون اتجاهاته ومثله وأهداف الحياة عنده في مرحلة طفولته ، فتجاربه الذاتية مما يسمع ويقرأ لها أهمية كبرى في مستقبل حياته .

في الخليج العربي

وإذا استعرضنا ما يحكى اليوم لـلأطفال في منـطقة الخليـج العربي من التراث الأدبي الشعبي نجده يضم بين ما حملته الأيام من أعماق التاريخ حكايات الجنيات والسحرة ، والقصص الشعبيـة ، وحكايـات الحيوان ، والأغـاني ، والأحـاجي ، وحكايـات البحر ، والحكـايـات الـدوارة ، وقصص الأذكيـاء والحمقى وغيرها من صنوف الحكايات الشعبية المختلفة . هذه الحكايات التي مازال الكبار يروونها للصغار حتى هذه الأيام جديرة بالدراسة لبيان ما يصلح منها للأطفال ومالا تصلح حكايته لهم . وعسير أن يتناول بحث واحد أجناس الحكاية الشعبية كلها في منطقة الخليج ومن أجل ذلك سنبدأ بأمثلة من حكايات الجنيات والسحرة .

وجمهور العلماء والباحثين في التراث الأدبي الشعبي يـطلقون مصـطلح « حكايات الجنيـات والسحرة **Fairy Tales** عـلى القصص التي تدور حـول

الجنيات أو المخلوقات التي فوق مستوى البشر ، ومع ذلك فالمجموعات المختلفة من هـذه القصص لا توجـد الجنيات إلا في عـدد قليل منهـا . ومن ثم أطلق جوزيف جاكوبس هذا المصطلح في مقدمته لكتابه English Fairy Tales على القصص التي تحدث فيها الخوارق أو الأمور الغريبة ، كأن يكون فيها جنيات أو عمالقة أو أقزام ، أو حيوانات تتكلم ، أو يكون فيها عمل غير طبيعي كالحمق والغباء . وأطلقت روث توز هذا المصطلح في كتابها story telling على القصة التي كتبها مؤلف واحد ، وتدور حول قوى سحريـة أو خارقـة تحقق الآمال والأحـلام ، وهي في رأيها غـير القصة الشعبيـة لأن القصة الشعبيـة مجهـولـة المؤلف ، أو يتعدد مؤلفوها .

وفي عصرنا الحديث لا يمكن لأحد أن يفكر في طفل وحكاية دون أن يفكر في قصص الجنيات والحكايات الخرافية . ترى أهي عادة سيئة خلفتها لنا ـ فيما خلفت ـ البـدائيـة الأولى ؟ أم أنها رواسب من تفكـير العصـور القـديمـة ومعتقداتها ؟ أم أن هذه الحكاية تستطيع أن تبرر علميا شهرتها وذيوعهـا بين الأطفال ، وأن تثبت أن حب الأطفال وشغفهم بها له نتائج تربوية مؤكدة ؟ وهل يمكن أن نزعم ونحن في عصر الأقمار الصناعية وعصر التقدم في بحوث علم نفس الطفل وطرق تربيته أنها بوجه عام قصص تلائم الأطفال في هذا الجيل وتصلح أن نقدمها لهم ؟ .

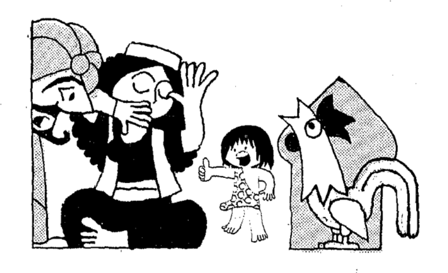
نعم ، إن حكايات الجنيات الخالية من الفزع والخوف وقتل الأطفـال وتعذيبهم والتي استطاعت عبر هذه القرون الطويلة أن تحتفظ بحب الأطفال لها ، وأن يشتد ولعهم بها في عصور مختلفة التطور والحضارة ، لابد أنها تحوي في جوهرها من عناصر الحياة ما يجعلها قادرة على تلبية كثير من حاجات الطفولة . فالعجوز المسكينة التي تستند بيدها المرتجفة على عصاها السحرية تستطيع بحركة من هذه العصا أو بكلمة مرتعشة من فمها الخالي من الأسنان أن تبعث في الأطفال روح المرح والمتعة ، تلك التي نبذل نحن الكبار قصارى جهدنا لنحركها فيهم ونوجه مشاعرهم نحوها ، ! ويمكنها كذلك أن تقرع بعصاها السحرية الأبواب

المغلقة فتنفتح على كل ألوان الخيالات العجيبة المبهرة والمغامرات الآسرة التي تخلب لب الطفل وتفتنه ، وتشد اليها خياله فيحلق في عالم جديد تتفتح له تصوراته ومدركاته ، ويشارك في الأحداث ، وينفعل بالعواطف ، ويستمتع بالمغامرة .

وحكاية الجنيات تلائم أطفال عصرنا ـ عصر الأقمار الصناعية ـ وتلبي كثيرا من احتياجاتهم الخيالية العاطفية وسط عالم طغت عليه المادية وتفيدهم من طرق شتى ، ومن ذلك قدرتها المتميزة على عرض الحق والعدل والصدق والجمال والخير في ثوب من الخيال والتصور ، وذلك هو الطريق الذي اتخذه جنس الأطفال تجاه الحكمة ، والذي تسلكه الفطرة والغريزة لكل طفل ميراثا من براءة الطفولة واستجابتها الفطرية للحق والصدق والعدل .

كذلك تعرض كثير من حكايات الجنيات الحقائق الأولية لقانون الحق والخير والعدل في صورة متخيلة من تجارب الانسان . ومع أن الطفل حين سماعه القصة لا يدرك إلا الخيالات لكن الحق والتجربة يمتزجان بوجدانه ويصبحان جزءا من تجربته الشخصية ، يميزهما في المراحل التالية من حياته حين يتعرض فيها لمواقف مماثلة ، كما تضيف عنصرا جديدا لمخزونه من الاستنتاجات ولرصيده من الأخلاقيات يستخدمها ويتعامل بها في حياته المستقبلية . وفوق ما تحويه من صور الحق والعدل والتجربة ، فإن شخصياتها الرئيسية تتميز بالخصال الحميدة من شجاعة وشهامة وأمانة ووفاء ، كما أن فيها من الآثار والذخائر والتراث ما يصل الطفل بألوان الفنون الشعبية لأمته ، وهذه عناصر ضرورية تدخل في تكوين الذوق الفني لكل إنسان . ومع ذلك لهذه الأسباب وغيرها تأتي تبعا للغاية الكبرى من حكاية قصص الجنيات للأطفال وهي تسليتهم وإمتاعهم وإدخال السرور عليهم . وقد لازمتها هذه الغاية من أول الزمان إلى عصرنا الحديث ، لم تتخل عنها إلا في فترة الاضمحلال والتدهور والاحتلال والاستبداد وظلمة الفقر والجهل ، فترة فقدان الذات التي خرج

الخيال فيها ممسوخا والتصور مريضا مشوها في قصص وأغان مليئة بالرعب والهلع والخوف ، وحكايات ممزوجة بالألم والتعذيب تنفيسا وإسقاطا رمزيا . وحكايات هذه الفترة المظلمة هي ما يتحتم أن نجنب الأطفال الصغار سماعها ، كما يتحتم ألا نقصر الحكايات التى نحكيها لأطفالنا على قصص الجنيات وحدها ، بل نقدمها لهم لونا من ألوان التسلية مع غيرها من القصص التاريخية والعلمية والبطولية وغيرها من قصص الأطفال . وسوف يدرك الطفل أن قصص الجنيات إنما هي وهم من خيال وتصور .





كتاب العربي

الطفل العربي والمستقبل !

الكتاب الثالث والعشرون

١٥ ابريل ١٩٨٩

الفهرس

الفهرس

صـــــــدر مـــــن

كتاب العربي *

● الكتاب الأول

الحرية .... د . أحمد زكي (يناير ١٩٨٤)

● الكتاب الثاني

العلم في حياة الإنسان .... د . عبدالحليم منتصر (أبريل ١٩٨٤)

● الكتاب الثالث

المجلات الثقافية والتحديات المعاصرة .... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٤)

● الكتاب الرابع

مراجعات حول :

العروبة والإسلام وأوروبا .... د . محمود السمرة (أكتوبر ١٩٨٤)

● الكتاب الخامس

العربي ومسيرة ربع قرن مع :

الحياة .. والناس .. والوحدة

في دول الخليج العربي .... (مجموعة كتّاب) (نوفمبر ١٩٨٤)

---

* تطلب من موزعي العربي

صدر من

كتاب العربي

● الكتاب السادس

طبائع البشر ..

دراسات نفسية واجتماعية .... د . فاخر عاقل (يناير ١٩٨٥)

● الكتاب السابع

حوار .. لا مواجهة

دراسات حول الإسلام والعصر

...... د . أحمد كمال أبو المجد (أبريل ١٩٨٥)

● الكتاب الثامن

آراء ودراسات في الفكر القومي ...... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٥)

● الكتاب التاسع

أضواء على لغتنا السمحة .... محمد خليفة التونسي (أكتوبر ١٩٨٥)

● الكتاب العاشر

الكويت ربع قرن من الاستقلال .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٦)

● الكتاب الحادي عشر

نظرات في الواقع الاقتصادي المعاصر

... د . حازم الببلاوي (أبريل ١٩٨٦)

● الكتاب الثاني عشر

السلوك الإنساني الحقيقة والخيال ...... د . فخري الدباغ (يوليو ١٩٨٦)

● الكتاب الثالث عشر

آراء حول قديم الشعر وجديده .... (مجموعة كتّاب) (أكتوبر ١٩٨٦)

● الكتاب الرابع عشر

المسلمون والعصر .... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٧)

● الكتاب الخامس عشر

من أسرار الحياة والكون .... د . عبدالمحسن صالح (أبريل ١٩٨٧)

● الكتاب السادس عشر

دراسات حول الطب الوقائي .... (مجموعة كتّاب) (يوليو ١٩٨٧)

● الكتاب السابع عشر

خطاب الى العقل العربي .... د . فؤاد زكريا (أكتوبر ١٩٨٧)

● الكتاب الثامن عشر

المسرح العربي بين النقل والتأصيل ...... (مجموعة كتّاب) (يناير ١٩٨٨)

● الكتاب التاسع عشر

الفلسطينيون من الاقتلاع الى المقاومة ... (مجموعة كتّاب) (أبريل ١٩٨٨)

● الكتاب العشرون

أندلسيات .... محمد عبدالله عنان (يوليو ١٩٨٨)

● الكتاب الحادي والعشرون

ماذا في العلم والطب من جديد ؟ .... (مجموعة كتّاب) (أكتوبر ١٩٨٨)

● الكتاب الثاني والعشرون

الاسلام والعروبة في عالم متغير ..... د . عبدالعزيز كامل (يناير ١٩٨٩)

● الكتاب الثالث والعشرون

الطفل العربي والمستقبل ! .... (مجموعة كتّاب) (أبريل ١٩٨٩)

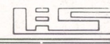

الكتاب القادم
القصة العربية
أجيال.. وآفاق
كتاب العربي
الكتاب الرابع والعشرون
١٥ يوليو ١٩٨٩

هذا الكتاب

* هناك خلط كبير - يصل الى حدود الخطأ العلمي - في تحديد حاجة الطفل في بيئات مختلفة ، اقتصاديا واجتماعيا ، ونجد البعض يتحدث عن الطفل العربي ، وكأنه شيء واحد ، مدرجا توكيد القيم والثقافة التي قد تكون متشابهة في إطار حاجات كل الأطفال ، دون النظر الى اختلاف واقعهم الاقتصادي والاجتماعي والبيئة التي يعيشون فيها ويتشكلون .

إن أطفال اليوم هم رجال الغد ، لذا فإن ما نقدمه لهم الآن يحدد شكل سلوكهم في المستقبل ، ويحدد طبيعة المجتمع الذي سوف يعيشون فيه أيضا .

لكل ذلك فإننا نقدم لقرائنا هذا الكتاب عن الطفل العربي وله . وهو كالعادة مجموعة من الموضوعات التي كتبها « للعربي » كوكبة من المهتمين بقضايا الطفل العربي ، ومراحل نموه ، وما يلاقيه في مسيرة حياته من مشكلات .





مرآة العقل العربي

الأسعار بالداخل

طبع في
مطبعة حكومة الكويت